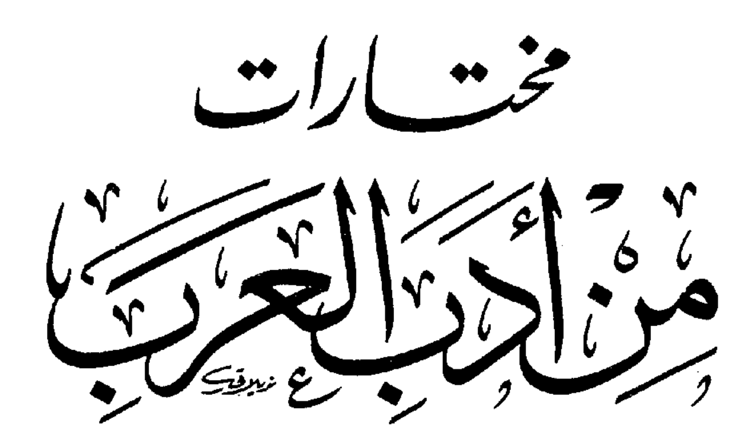


مختارات من أدب العرب

قسم النثر

مجموعة تمثل الأدب العربي الإسلامي في جميع مظاهره ومناحيه الأدبية والتاريخية والتهذيبية
من العصر الإسلامي الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري

للعلامة الأستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي
رئيس جامعة دار العلوم - ندوة العلماء - بلكهنؤ

الجزء الأول

تعليق
أبي الفضل عبد الحفيظ البلياوي
أستاذ الأدب في دار العلوم - ندوة العلماء سابقًا

ملتزم الطبع والنشر:
مؤسسة الصحافة والنشر
ص - ب ٩٣ - لكهنؤ - الهند

«المختـــارات»
كمَا يَـرَاها أديبْ عَرَبـي كَبـير

وهو الأستاذ علي الطنطاوي الذي يعتبر في طليعة أدباء العربية اليوم ومن أقدر كتَّابها وصاحب طريقة وأسلوب فيها وقد اشتغل بالتدريس في جامعتي بغداد ودمشق وشغل منصب القضاء مدة من الزمن وله عشرات من المؤلفات أكثرها في الأدب والنقد والتاريخ.

إذا كان الدليل على ذوق الأديب اختياره، فحسب القراء أن يعلموا أننا عرضنا من أمد قريب كتب المختارات الأدبية لنتخير واحداً منها نضعه بين أيدي تلاميذ الثانويات الشرعية في الشام، وذهب كل واحد من أعضاء اللجنة ـ وكلهم من الأدباء ـ يبحث ويفتش، فعدنا جميعاً وقد وجدنا أن أجود كتب المختارات المدرسية، وأجمعها لفنون القول، وألوان البيان، مختارات أبي الحسن.

ولقد كنت أتمنى من قديم أن نخرج بتلاميذنا من هذا السجن الضيق المظلم الذي حشرناهم فيه، إلى فضاء الحرية، وإلى ضياء النهار، فلا

نقتصر في الاختيار ، على «وصف الكتاب» للجاحظ ، وهو جمل مترادفة ، لا تؤلف بينها فكرة جامعة ، ولا يمدها روح ، ولا تخالطها حياة ، وعلى ألاعيب ابن العميد ، وغلاظات الصاحب، وهندسات القاضي الفاضل ، فننفر التلاميذ من الأدب ، ونكرهه إليهم ، وكنا نقول لهم : إن البيان الحق عند غير هؤلاء ، وإن أبا حيان التوحيدي أكتب من الجاحظ ، وإن كان الجاحظ أوسع رواية وأكثر علماً ، وأشد تصرفاً في فنون القول ، وأكبر أستاذية ، وإن الحسن البصري أبلغ منهما ، وإن ابن السماك أبلغ من الحسن البصري[١]

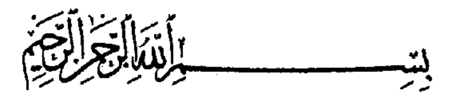
وإن النظر فيما كتب الغزالي في الإحياء ، وابن خلدون في المقدمة ، وابن الجوزي في الصيد ، وابن هشام في السيرة ، بل والشافعي في الأم ، والسرخسي في المبسوط ، أجدى على التلميذ وأنفع له في التأدب ، من قراءة حماقات الصاحب ، ومخرقات الحريري وابن الأثير .

وكتبت في ذلك مراراً ، فما التفت إلى ذلك أحد ، فيئست منه ، حتى وجدت كتاب أبي الحسن ، فإذا هو قد نفض كتب الأدب والتاريخ نفضاً ، وحرثها حرثاً ، فاستخرج جواهرها ، فأودعها كتابه[٢] .

* * *

(١) وقد تبدو هذه الأحكام غريبة على من ألف التقليد في الأدب وعكف عليه ، ولكنها حق كما أن من الحق أن أبا تمام أشعر من المتنبي وأعظم .

(٢) الأستاذ علي الطنطاوي في مقدمته لكتاب «المسلمون في الهند» طبع دار الفتح بدمشق .



مقـدمـة الكتـاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد! فإن الأدب العربي قد أصيب بمحنة أصيب بها أدب كل أمة ، وهي محنة تكاد تكون طبيعية ومطردة للآداب واللغات إلا أن آجالها تختلف ، فقد يطول أجل هذه المحنة في أدب قوم ويقصر في أدب قوم آخرين ، وذلك يرجع إلى الأحوال الاجتماعية والعوامل السياسية وحركات الإصلاح والتجديد ، والبعث الجديد ، فإذا توفرت في أمة قصر أجل هذه المحنة ، وإذا فقدت أو ضعفت طال أمد هذه المحنة وطال شقاء الأدب والأمة بها .

إن هذه المحنة هي تسلط أصحاب الصناعة والتكلف على هذا الأدب الذين يتخذونه حرفة وصناعة ويحتكرونه احتكاراً ويتنافسون في تنميقه وتحبيره ليثبتوا به براعتهم وتفوقهم ويصلوا به إلى أغراضهم ، ويستمر ذلك ويستفحل حتى يصبح الأدب مقصوراً عليهم مختصاً بهم ، ويأتي على الناس زمان لا يفهم من كلمة «الأدب» إلا ما أثر عن هذه الطبقة من كـلام مصنـوع وأدب تقليـدي لا قـوة فيـه ولا روح ، ولا جـدة فيـه ولا طرافة ، ولا متعة فيه ولا لذة .

ويطغى هذا الأدب الصناعي التقليدي على كل ما يؤثر عن هذه الأمة ، وتحتوي عليه مكتبتها الغنية الزاخرة من أدب طبعي وكلام مرسل ، وتعبير بليغ يحرك النفوس ويثير الإعجاب ، ويوسع آفاق الفكر ، ويغري بالتقليد ، ويبعث في النفس الثقة ، ولا عيب فيه إلا أنه صدر عن رجال لم ينقطعوا إلى الأدب والإنشاء ولم يتخذوه حرفة ومكسباً ، ولم يشتهروا بالصناعة الأدبية ، ولم يكن لهذا النتاج الأدبي الجميل الرائع عنوان أدبي ، ولم يكن في سياق أدبي ، وإنما جاء في بحث ديني ، أو كتاب علمي ، أو موضوع فلسفي أو اجتماعي ، فبقي مغموراً مطموراً في الأدب الديني ، أو الكتب العلمية ، ولم يشأ الأدب الصناعي ـ بكبريائه ـ أن يفسح له في مجلسه ولم ينتبه له مؤرخو الأدب ـ بضيق تفكيرهم وقصور نظرهم ـ فينوهوا به ويعطوه مكانه اللائق به .

إن هذا الأدب الطبيعي الجميل القوي كثير وقديم في المكتبة العربية ، بل هو أكبر سناً وأسبق زمناً من الأدب الصناعي ، فقد دون هذا الأدب في كتب الحديث والسيرة قبل أن يدون الأدب الصناعي في كتب الرسائل والمقامات ، ولكنه لم يحظ من دراسة الأدباء والباحثين وعنايتهم ما حظي به الأدب الصناعي ، مع أنه هو الأدب الذي تجلت فيه عبقرية اللغة العربية وأسرارها وبراعة أهل اللغة ولباقتهم ، وهو مدرسة الأدب الأصيلة الأولى .

ونأخذ كتب الحديث والسيرة ـ كمثال لهذا الأدب الطبعي ـ أولاً فنقول : إنها اشتملت على معجزات بيانية وقطع أدبية ساحرة ، تخلو منها مكتبة الأدب العربي ـ على سعتها وغناها ـ وهو دليل على صحة هذه اللغة ومرونتها ، واقتدارها على التعبير الدقيق عن خواطر ومشاعر ووجدانات وكيفيات نفسية عميقة دقيقة ، ووصف بليغ مصور للحوادث الصغيرة ، وهي الكتب التي حفظت لنا مناهج كلام العرب الأولين وأساليب بيانهم ؛ ولئن صح ما قاله الرقاشي : «إن ما تكلمت به العرب من جيد المنثور ،

أكثر مما تكلمت به من جيد المنظوم ، فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره» فكتب الحديث النبوي تسد هذا الفراغ الواقع في تاريخ الأدب العربي تنقل إلينا هذا الذخر الأدبي الذي أعتقد أنه قد ضاع ، وتمتاز أنها قد اتصل سندها وصحت روايتها فهي أوثق مصدر للغة العربية البليغة التي كانت سائدة في عهدها الذهبي الأول وللأدب العربي الذي كان منتشراً في جزيرة العرب.

إن هذه الكتب تشتمل على روايات قصيرة وطويلة وكلها أمثلة جميلة للغة العرب العرباء التي كانوا يتكلمون بها ويعبرون فيها عن ضمائرهم وخواطرهم ، ويجد دارس الأدب العربي فيها من البلاغة العربية ، والقدرة البيانية ، والوصف الدقيق ، والتعبير الرقيق ، وعدم التكلف والصناعة ما يقف أمامه خاشعاً معترفاً للرواة بالبلاغة والتحري في صحة النقل والرواية ، وللغة العربية بالسعة والجمال.

أما الروايات الطويلة فهي ثروة أدبية ذات قيمة فنية عظيمة وهي التي تجلت فيها بلاغة الراوي العربي واقتداره على الوصف والتعبير والتصوير ، وهي التي يطول فيها نفسه فيحكي حكاية يعبر فيها عن معان كثيرة وأحاسيس دقيقة ، ومناظر متنوعة ، فلا يخذله اللسان ولا يخونه البيان ولا يتخلف عنه مدد اللغة ، وكأنها لوحة فنية منسجمة متناسقة قد أبدع فيها الفنان ، أو صورة متناسبة قد أحسن فيها المصور كل الإحسان.

اقرأ معي حديث كعب بن مالك عن تخلفه عن غزوة تبوك وهو موضوع دقيق محرج ، يطلب منه الصراحة والاعتراف بالتقصير ، والشهادة على النفس ، ويطلب منه تصوير ذلك الجو القاتم العابس الذي عاش فيه خمسين ليلة ، ويطلب منه تصوير الخواطر التي كانت تجيش في صدره وتساورَ نفسه وهو يعيش في جفاء وعتاب ممن يحبهم وتربطه بهم العقيدة والعاطفة ، لا يجد لذة في فراقهم ولا يرى في الدنيا عوضاً عنهم ، وتصوير تلك الصلة الروحية والحب العميق الذي يربطه بالنبي ﷺ

ربطاً وثيقاً محكماً، لا يحله العتاب والعقاب، ولا يضعفه إقبال الملوك عليه وتوددهم إليه، وتصوير ذلك السرور الذي غمره على إثر قبول توبته، ما أصعب هذا الموضوع، وما أكثره تعقداً ودقة، ولكنه ببلاغته العربية يتغلب على هذه المشاكل النفسية والأدبية، ويترك لنا ثروة نعتز بها.

اقرأ معي هذه القطعة الصغيرة التي أقتبسها من حديثه الطويل، وهو يحكي ما أحاط بهذه الغزوة العظيمة من ظروف وأجواء، ويصور تلك الحالة النفسية التي تخلف فيها عن هذه الغزوة وما انتابه من التردد، ولم يكن التخلف عن الغزوات من سيرته وعادته، وتمتع بما احتوت عليه هذه القطعة من القوة والجمال، وصدق التصوير وبراعة التعبير.

«وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي أنا قادر عليه فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد الجد. فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت! فلم يقدر لي ذلك. فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق أو رجلاً ممن عذره الله من الضعفاء».

ثم انظر كيف يصوّر حالته وقد هجره المسلمون ونهوا عن كلامه، وكيف يعبّر عن حالة المحب الذي هجره الحبيب ـ عقوبة وتأديباً ـ وهو يطمع في وده ويتسلى بنظراته والذي لم يزده هذا العتاب إلا رسوخاً في المحبة ولوعة وجوى، دعه يقص قصته بلسانه البليغ:

«ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من

تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج وأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ، ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي ، وإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي ، فسلمت عليه فوالله ما رد السلام ، فقلت يا أبا قتادة! أنشدك بالله! هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناي ، وتوليت حتى تسورت الجدار».

واقرأ معي كذلك حديث الإفك الذي ظهرت فيه براعة السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها الأدبية وقوتها البيانية ، وحسن تصويرها ووصفها للعواطف والمشاعر النسوية اللطيفة الدقيقة ، وقد تجلت في هذه القطعة رقة عاطفة المرأة المحبة لزوجها مع إباء الحرة الواثقة بعفافها وطهارتها ، المؤمنة بربها. وقد أضفى هذا المزيج الغريب من الرقة والشدة ، والعاطفة والعقل. زد إلى ذلك بيان عائشة التي تقلبت في أعطاف البلاغة العربية وانتقلت فيها من بيت إلى بيت ، قد أضفى كل ذلك على هذه الرواية من الجمال الفني ما يجعلها من القطع الأدبية الخالدة في الأدب.

انظر كيف تصف ما تقوّله الناس وتحدثوا به وما شعرت به من تغير في وجه الرسول ﷺ ، تذكر كل ذلك في حياء المرأة وأدبها من غير إبهام أو عي:

قالت عائشة: «فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً والناس يفيضون في أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يريبني في

وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي. إنما يدخلّ علي رسول الله ﷺ فيسلم ثمّ يقول كيف تيكم؟ ثم ينصرف فذلك يريبني، ولا أشعر بالشر».

وتذكر توجعها من الخبر المشاع فتقول: «فبكيت يومي ذلك كله، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت: «وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي».

وتتقدم في الحكاية وتذكر كيف يسألها رسول الله ﷺ عما قيل عنها ويعزم عليها الصدق، فلا تلبث أن تعتريها حمية المرأة العفيفة الفاضلة، ويقلص دمعها حتى لا تحس منها بقطرة، وترجو أباها وأمها أن يجيبا عنها رسول الله ﷺ فيمتنعان ويفضلان السكوت حياء من رسول الله ﷺ واستحياء من الدفاع عن قضية بنتهما وهو الدفاع عن النفس، فتنبري للكلام القوي الصريح المبين ـ وهي البليغة الأديبة ـ وتتمثل بقول سيدنا يعقوب وتفوض أمرها إلى الله، وتنزل براءتها من السماء فتطلب منها أمها أن تشكر رسول الله ﷺ وتقوم إليه فتأبى ـ في دلال العفائف وأنفة المؤمن ـ أن تحمد إلا الله الذي أنزل براءتها من فوق سبع سماوات، وخلد طهارتها إلى آخر يوم يقرأ فيه القرآن ويؤمن به.

واقرأ كذلك حكايتها للهجرة النبوية وذكرها لتفاصيلها وما وقع لرسول الله ﷺ وصاحبه رضي الله عنه في الطريق، ووصولهما إلى المدينة، وكيف تلقاهما الأنصار، وفرحوا بقدوم رسول الله ﷺ وكل ذلك مثال رائع للوصف الدقيق البليغ، والمبيان القادر الوصاف.

وهنالك روايات أخرى طويلة النفس، ضافية البيان، تشتمل على غرر الكلام وبدائعه الحسان ومناهج العرب الأولين في كلامهم، كحديث صلح الحديبية وحديث الإيلاء وغير ذلك، كانت تستحق أن تكون في المكانة الأولى في دراستنا الأدبية، ولكنها أفلتت من نظر المؤلفين

والناقدين ، لأنها لم تدخل في دواوين الأدب ، ولأن تصورهم للأدب كان تصوراً محدوداً جامداً لا يعدو الصناعة .

ويلي الحديث كتب السيرة ، فقد حفظت لنا جزءاً كبيراً من كلام العرب الأقحاح ، ومثلت تلك اللغة البليغة التي كانت في عصور العربية الأولى وهذبها الإسلام ورققها ، واشتملت على قطع أدبية لا يوجد لها نظير في المكتبة العربية المتأخرة .

اقرا في سيرة ابن هشام حديث حليمة ابنة أبي ذويب السعدية عن رضاعة رسول الله ﷺ واقرأ فيها قصص الاضطهاد والتعذيب ، واقرأ فيها مغازي رسول الله ﷺ وحروبه ، واقرأ في كتب الحديث والشمائل ، وفي كتب التاريخ والسير أحاديث الوصف والحلية تجد من القدرة الفائقة على الوصف والتعبير والبيان الساحر لدقائق الحياة وخوالج النفس وتر من اللغة النقية الصافية واللفظ الخفيف والتعبير الدقيق الرقيق ما يطربك ويملؤك سروراً ولذة وثقة وإيماناً بعبقرية هذه اللغة ، ورغبة في دراستها والتوسع فيها .

وهكذا صان الله هذه اللغة الكريمة الأمينة للقرآن من الضياع وانتقلت ثروتها من جيل إلى جيل ومن كتاب إلى كتاب ، حتى جاء دور التأليف والتاريخ في القرن الثالث والرابع ، وحفظ لنا المؤرخون أمثال الطبري والمسعودي ، والأدباء ، أمثال الجاحظ وابن قتيبة وأبي الفرج الأصبهاني ثروة زاخرة من الأدب في كتبهم وحفظوا لنا تلك اللغة العذبة البليغة التي كان العرب الصرحاء يتكلمون بها في بيوتهم وعلى موائدهم وفي مجالس انبساطهم ، وجاء منها الشيء الكثير في كتاب البخلاء للجاحظ وكتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (على ضآلة قيمة الكتابين الأخيرين التاريخية) ، وروضة العقلاء ونزهة الفضلاء وكتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ، وهذه كتب التاريخ

والأدب التي تمثل لنا العربية في جمالها الأول ونقائها الأصيل وسعتها النادرة.

ثم جاء دور المتكلفين المقلدين للعجم، ونبغ في العواصم العربية أمثال أبي إسحاق الصابي وأبي الفضل بن العميد والصاحب بن عبّاد، وأبي بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني وأبي العلاء المعري، واخترعوا أسلوباً للكتابة والإنشاء هو بالصناعة اليدوية والوشي والتطريز أشبه منه بالبيان العربي السلسال وكلام العرب الأولين المرسل الجاري مع الطبع، وغلب عليهم السجع والبديع وغلوا في ذلك غُلوّاً أذهب بهاء اللغة ورواءها وقيد الأدب بسلاسل وأغلال أفقدت حريته وانطلاقه وخفة روحه وجماله.

وتزعم هؤلاء الأدب العربي واحتكروه وخضع لهم العالم العربي الإسلامي لنفوذهم وعلو مكانتهم تارة، وللانحطاط الفكري والاجتماعي الذي كان يسود على العالم الإسلامي أخرى. وأصبح أسلوبهم للكتابة هو الأسلوب الوحيد الذي يحتذى ويقلد في العالم الإسلامي.

وجاء أبو القاسم الحريري فألف المقامات ـ وهو أسلوب الكتابة المسجعة المختمر ـ وقد تهيأت لقبولها فعكف عليها العالم الإسلامي دراسة وشرحاً وتقليداً وحفظاً، وتغلغلت في مدارس الفكر والأدب، وبقيت مسيطرة على العقول والأقلام أطول مدة تمتع بها كتاب أدبي، وما ذاك لفضل الكتاب بل لأنه قد وافق هوى النفوس وصادف عصر الجمود والعقم الأدبي في العالم الإسلامي.

ثم جاء القاضي الفاضل ـ مجدد أسلوب الحريري وبالأصح مقلده ـ وهو وزير أعظم دولة إسلامية في عصرها، وكاتب سر أحب سلطان في عهده صلاح الدين الأيوبي قاهر الصليبيين ومعيد مجد المسلمين ـ فانتشر

أسلوبه في العالم الإسلامي وحرص على تقليده الكتاب والمنشئون في أنحاء المملكة الإسلامية[١].

وهكذا بقي أسلوب وحيد يتحكم في العالم الإسلامي ويسيطر على الأوساط الأدبية وأصبح ما خلفه هؤلاء الكتاب المتصنعون من تراث أدبي هو المعنى بالأدب العربي ، وجاء المؤرخون للأدب فاعتبروهم أئمة البلاغة وأمراء البيان وأصحاب الأساليب وقدموا ما كتبوه وعرضوه للدارسين والباحثين وقلد بعضهم بعضاً وتناقلوه ، وأصبحت كتب التاريخ والأدب نسخة واحدة وأصبحت الكتابة صورة واحدة من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر ، لا يستثنى منها إلا عبقريان اثنان ، أولهما ابن خلدون ، وثانيهما الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي[٢] (م١١٦٧هـ).

وتناسى هؤلاء ما كتب غيرهم وانصرف الناس ـ حتى الباحثين منهم ـ عن ذخائر الأدب العربي الثمينة ، ولم يفكر أحد في أن يبحث التاريخ والسِّيَر والتراجم وفي مؤلفات العلماء عن قطع أدبية رائعة تفوق ـ في قوتها وحيويتها ، وسلاستها وسلامتها وفي بلاغتها وجمال لغتها ـ على دواوين أدبية ومجاميع ورسائل أكب عليها الناس وافتتنوا بها.

هذا وقد بقيت طائفة من العلماء ـ حتى في عصور الانحطاط الأدبي ـ غير خاضعين لأسلوب تقليدي في عصرهم ، متحررين من السجع والبديع والصنائع والمحسنات اللفظية يكتبون ويؤلفون في لغة عربية نقية وفي أسلوب مطبوع يتدفق بالحياة ، إذا قرأه الإنسان ملكه الإعجاب وآمن بفكرتهم وخضع لعقيدتهم ولما يقررونه. وهذه القطع التي طويت في أثناء كتب علمية أو دينية فجهلها الأدباء وزهد فيها تلاميذ الأدب هي من بقايا الأدب العربي الأصيل ، وهي التي عاشت بها العربية هذه السنين الطوال

(١) ظهرت نماذجهم في الكتاب لقيمتها الفنية ولأنها تمثل دوراً من تاريخ الأدب العربي.

(٢) اقرأ كتابه الفريد «حجة الله البالغة» ، واقرأ ترجمة مؤلفه في «نزهة الخواطر» الجزء السادس ، طبع دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد (الهند).

وهي التي يفزع إليها المتأدب المتذوق وهي رياض خضراء في صحراء العربية القاحلة التي تمتد من عصر ابن العميد إلى عصر القاضي الفاضل إلى أن جاء ابن خلدون.

إن ما كتب هؤلاء العلماء غير معتقدين أنهم يكتبون للأدب ولا زاعمين أنهم في مكانة عالية من الإنشاء هو الذي يسعد العربية ويشرفها أكثر مما يسعدها ويشرفها كتابات الأدباء ورسائلهم وموضوعاتهم الأدبية، وأخاف لو أنهم قصدوا الأدب وتكلفوا الإنشاء لفسدت كتابتهم وفقدت ذلك الرونق وتلك العذوبة التي تمتاز بها كتابتهم وخسرنا هذه القطع الجميلة المليئة بالحياة، فقد التصقت بالأدب شروط وصفات وتقاليد هي المفسدة له، الطامسة لنوره، فلا بد فيه من السجع والصناعة ولا بد فيه من البديع والمحسنات اللفظية ولا بد من تقليد من يعد في الطبقة الأولى من الأدباء، أما الكتابات العلمية التاريخية أو الدينية فليست فيها هذه الالتزامات وهذه الشروط القاسية فتأتي أبلغ وأجمل.

ونرى الكاتب الواحد إذا تناول موضوعاً أدبياً وتكلف الإنشاء تدلى وأسفَّ، وتعسف وتكلف، ولم يأت بخير، وإذا استرسل في الكلام وكتب في موضوع علمي أو ديني أحسن وأجاد، هكذا نرى الزمخشري متكلفاً مقلداً في «أطواق الذهب» وكاتباً موفقاً بليغاً في مقدمة «المفصل» وفي مواضع من تفسيره «الكشاف»، ونجد ابن الجوزي غير موفق في كتابه «المدهش» وكاتباً مترسلاً بليغاً في كتابه «صيد الخاطر»، وظني أنهما كانا يعتبران أثريهما الأدبيين «أطواق الذهب» و«المدهش» من أفضل كتاباتهما الأدبية التي يعتمدان عليها ويفتخران بها ولعل عصرهما صفق لهذين الكتابين الأطواق والمدهش أكثر مما صفق لكتاباتهم العلمية والأدبية والدينية. ولكن قاضي الزمان وحاكم الذوق قد حكما بالعدل. وليس اليوم للكتابين الأولين قيمة كبيرة. أما صيد الخاطر وتلبيس إبليس والمفصل والكشاف فهي جديرة بالبقاء جديرة بكل اعتناء.

ليس السر في فضل هذه الكتابات العلمية والدينية وتأثيرها وقوتها وجمالها هو التحرر من السجع والبديع وترسلها فحسب بل السبب الأكبر هو أن هذه الكتابات قد كتبت عن عقيدة وعاطفة وعن فكرة واقتناع وعن حماسة وعزم. أما الكتابات الأدبية فقد كان غالبها يكتب بالاقتراح من ملك أو وزير أو صديق أو لإرضاء شهوة الأدب أو تحقيق رغبة المجتمع أو حُبّاً للظهور والتفوق ، وهذه كلها دوافع سطحية لا تمنح الكتابة القوة والروح ولا تسبغ عليها لباس البقاء والخلود ولا تعطيها التأثير في النفوس والقلوب ، والفرق بينها وبين الكتابات المنبعثة من القلب والعقيدة كالفرق بين الصورة والإنسان وكالفرق بين النائحة والثكلى.

ويذكرني هذا قصة روينا في الصبا وهي أن كلباً قال لغزال: مالي لا ألحقك وأنا من تعرف في العدو والقوة؟ قال: لأنك تعدو لسيدك وأنا أعدو لنفسي.

وقد كان هؤلاء الكتاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرة أو عقيدة أو يكتبون لأنفسهم يكتبون إجابة لنداء ضميرهم وعقيدتهم مندفعين منبعثين فتشتعل مواهبهم ويفيض خاطرهم ويتحرق قلبهم فتنثال عليهم المعاني وتطاوعهم الألفاظ وتؤثر كتابتهم في نفوس قرائها لأنها خرجت من قلب فلا تستقر إلا في قلب.

أما هؤلاء المتصنعون فإنهم في كتاباتهم الأدبية أشبه بالممثلين قد يمثلون الملوك فيتصنعون أبهة الملك ومظاهره ، وقد يمثلون الصعلوك فيتظاهرون بالفقر، وقد يمثلون السعيد وقد يمثلون الشقي من غير أن يذوقوا لذة السعادة أو يكتووا بنار الشقاء ، وقد يعزُّون من غير أن يشاركوا المفجوع في أحزانه وقد يهنئون من غير أن يشاركوا السعيد في أفراحه.

بالعكس من ذلك اقرأ كتابات الغزالي في «الإحياء» وفي «المنقذ من الضلال» ، واقرأ خطب عبد القادر الجيلي (رضي الله عنه) ما صح منها ، واقرأ ما كتبه القاضي ابن شداد عن صلاح الدين ، واقرأ ما كتبه شيخ

الإسلام ابن تيمية وتلميذه الحافظ ابن قيم الجوزية في كتبهما ترَ مثالاً رائعاً للكتابة الأدبية العالية يتدفق قوة وحياة وتأثيراً ، وذلك هو الأدب الحيّ الخليق بالبقاء ولا سبب لذلك إلا أنه كتب عن عقيدة وعاطفة.

وهنالك شيء آخر وهو أن الإيمان وصفاء النفس والاشتغال بالله والعزوف عن الشهوات يمنح صاحبه صفاء حس ولطافة نفس وعذوبة روح ونفوذاً إلى المعاني الدقيقة واقتداراً على التعبير البليغ فتأتي كتابته كأنها قطعة من نفس صاحبها وصورة لروحه خفيفة على النفس مشرقة الديباجة لطيفة السبك بارعة في التصوير لذلك كان من الأدب الصوفي وفي كلام الصالحين العارفين قطع أدبية خالدة لم تفقد جمالها وقوتها على مر العصور والأجيال. وترى من ذلك نماذج في كلام السادة الحسن البصري وابن السَّمَّاك والفضيل بن عياض وابن عربي الطائي تعد من محاسن العربية ، واقرأ ـ على سبيل المثال ـ الحوار الذي دار بين ابن عربي ونفسه وسجله في كتابه «رسالة روح القدس».

إن هذه القطع الأدبية الدافقة بالحياة والقوة والجمال كثيرة غير قليلة في المكتبة العربية إذا جمعت تكونت منها مكتبة لكنها منثورة مبعثرة في هذه المكتبة مطوية مغمورة في أوراق كتب ومؤلفات لا تجدها في ركن الأدب والإنشاء في مكتباتنا العربية ولا يذكرها المؤرخون للأدب في كتبهم ، هذه القطع أصدق تمثيلاً للغة العربية وأدبها الرفيع ومحاسنه من كثير من الكتب المختصة بالأدب ومن كثير من المجاميع والرسائل والمقامات والمقالات الأدبية التي تعتبر أساس الأدب وزهو العربية ومحصول العقول.

وهذه القطع هي التي تخدم اللغة والأدب ، أكثر مما تخدمها كتب اللغة والأدب وهي التي تفتق القريحة وتنشط الذهن وتقوّي الذوق السليم وتعلم الكتابة الحقيقية.

إن هذه القطع والنصوص منثورة كما قلت في كتب الحديث والسيرة

والتاريخ وكتب الطبقات والتراجم والرحلات وفي الكتب التي ألفت في الإصلاح والدين والأخلاق والاجتماع ، وفي بحوث علمية ودينية ، وفي كتب الوعظ والتصوف وفي الكتب التي سجل فيها المؤلفون خواطرهم وتجارب حياتهم ، وملاحظاتهم وانطباعاتهم ، ورووا فيها قصة حياتهم .

هذه ثروة أدبية زاخرة تكاد تكون ضائعة ، وقد جنى هذا الإهمال على اللغة والأدب وعلى الكتابة والإنشاء وعلى التأليف والتصنيف وعلى التفكير ، فقد حرمه مادة غزيرة من التعبير وباعثاً قوياً للتفكير .

مخطىء من يظن أن المكتبة العربية قد استنفدت وعصرت إلى آخر قطراتها ، إنها لا تزال مجهولة تحتاج إلى اكتشافات ومغامرات ، إنها لا تزال بكراً جديدة تعطي الجديد وتفجأ بالغريب المجهول ، إنها لا تزال فيها ثروة دفينة تنتظر من يحفرها ويثيرها .

إن مكتبة الأدب العربي في حاجة شديدة إلى استعراض جديد وإلى دراسة جديدة وإلى عرض جديد .

ولكن هذه الدراسة وهذا الاستعراض يحتاجان إلى شيء كبير من الشجاعة وإلى شيء كبير من الصبر والاحتمال وإلى شيء كبير من رحابة الصدر وسعة النظر فالذي يخوض فيها ليخرج على العالم بتحف أدبية جديدة وذخائر عربية جديدة ، ينبغي ألا يكون ضيق التفكير ، جامداً متعصباً في فهمه للأدب ، متعصباً لبلد أو لطبقة أو لعصر ، تهوله ضخامة العمل ، واتساع المكتبة العربية ، أو يوحشه عنوان ديني أو يمنعه ـ من الاختيار والدراسة ـ اسم قديم لا صلة له بالأدب والأدباء ، يجب أن يكون حر التفكير ، واسع الأفق بعيد النظر متطلعاً إلى الدراسة والتجربة واسع الاطلاع على الكنوز القديمة يفهم الأدب في أوسع معانيه ويعتقد أنه تعبير عن الحياة وعن الشعور والوجدان في أسلوب مفهم مؤثر لا-غير .

إنني لا أزدري كتب الأدب القديمة ـ من رسائل ومقامات وغيرها ـ ولا أقلل قيمتها اللغوية والفنية وأعتقد أنها مرحلة طبعية في حياة اللغات

والآداب ، ولكنني أعتقد أنها ليست الأدب كله وأنها لا تحسن تمثيل أدبنا العالي الذي هو من أجمل آداب العالم وأوسعها ، وأنها جنت على القرائح والملكات الكتابية ، والمواهب والطاقات وعلى صلاحية اللغة العربية ومنعت من التوسع والانطلاق في آفاق الفكر والتعبير والتحليق في أجواء الحقيقة والخيال ، وتخلفت بهذه الأمة العظيمة ذات اللغة العبقرية والأدب الغني فترة غير قصيرة فخير لنا أن نعطيها حظها من العناية والدراسة ونضعها في مكانها الطبعي في تاريخ الأدب وطبقات الأدباء ، وأن ننقّب في المكتبة العربية من جديد ونعرض على ناشئتنا وعلى الجيل الجديد نماذج جديدة من الكتب القديمة للأدب العربي حتى يتذوق جمال هذه اللغة وينشأ على الإبانة والتعبير البليغ ، ويتعرف بهذه المكتبة الواسعة ويستطيع أن يفيد منها .

على هذا الأساس ، وعلى هذه الفكرة ألفنا كتابنا ، «مختارات من أدب العرب» وها هو الجزء الأول من هذا الكتاب يجمع بين الطبعي والفني ـ ولكل قيمة أدبية ـ ويجمع بين القديم والحديث ، نرجو أن يقع من الأدباء والمعلمين موقع الاستحسان والقبول .

وقد عنيت بترجمة أصحاب النصوص ، وأشرت إلى مكانتهم الأدبية ، وما تمتاز به القطعة التي اقتبست من كتاباتهم الكثيرة ، وأدبهم الجم ، ليستعين به المعلمون في تربية الذوق الأدبي ، ومعرفة الفضل لأصحابه .

وشكري واعترافي لأستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي[١] معتمد دار العلوم ندوة العلماء والدكتور السيد عبد العلي الحسني[٢] مدير ندوة العلماء والأستاذ محمد عمران خان الندوي الأزهري عميد دار العلوم

---

(١) توفي إلى رحمة الله تعالى لثلاث عشرة خلون من ربيع الأول عام ١٣٧٣هـ ـ الموافق ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٥٣م .

(٢) توفي إلى رحمة الله تعالى في ٢٢ ذي القعدة ١٣٨٠هـ ـ الموافق ٧ مايو ١٩٦١م .

سابقاً الذين كان لتشجيعهم وإتاحتهم للفرص فضل كبير في تأليف هذا الكتاب ، عام ١٣٥٩هـ ، وتقريره للدارسة في دار العلوم ندوة العلماء ، كما كان لحضرات الأساتذة الشيخ محمد حليم عطا[1] مدرس الحديث الشريف في دار العلوم ، والأستاذ الكبير السيد طلحة الحسني[2] معلم الكلية الشرقية في لاهور سابقاً ، والأستاذ محمد ناظم الندوي أستاذ آداب اللغة العربية في دار العلوم سابقاً ، والأستاذ عبد السلام القدوائي الندوي أستاذ التاريخ والسياسة في دار العلوم سابقاً ، توجيهات وآراء سديدة ، ومساعدات غالية ، وشكري وتقديري للأستاذ عبد الحفيظ البلياوي ، الذي ساعد المؤلف وتناول الكتاب بالشرح الغريب وإيضاح الغامض؛ توفي إلى رحمة الله في ١٧ من جمادى الآخرة سنة ١٣٩١هـ المصادف ١٠ أغسطس ١٩٧١م.

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على خير خلقه وخاتم رسله سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه.

أبو الحسن علي الحسني الندوي

ندوة العلماء لكهنؤ (الهند) — **لعشر خلون من ربيع الأول**

١٣٩١هـ ـ ٦ مايو ١٩٧١م

* * *

(١) كانت وفاته يوم ٧ أكتوبر عام ١٩٥٥م.

(٢) المتوفى ٢٢ رجب ١٣٩٠هـ ـ الموافق ٢٥ سبتمبر ١٩٧٠.

عبادُ الرّحمٰن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا[١] ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً[٢] لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا[٣] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا[٤] ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟[٥] وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا[٦] ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا[٧] ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا[٨] ﴿٦٩﴾ إِلَّا

---

(١) مضيئاً.

(٢) أي هذا خلفاً من هذا يقال «هن يمشين خِلْفَةً» أي تذهب هذه وتجيء هذه.

(٣) أي بسكينة ووقار.

(٤) ما ينوب الإنسان من شدة ومصيبة.

(٥) لم يضيِّقوا.

(٦) وسطاً.

(٧) عذاباً وعقوبة.

(٨) ذليلاً حقيراً.

مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ[1] وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا[2] ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ[3] رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا[4] ﴾ (صدق الله العظيم) [سورة الفرقان: ٦١ـ٧٧]

* * *

(١) الباطل والشرك بالله.

(٢) من يؤتم أي يقتدى به ج أيمة وأئمة.

(٣) لا يبالي بكم.

(٤) ملازماً.

سيّدنا موسىٰ
على نبينا وعليه الصلاة والسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ[1] مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا[2] فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا[3] يَسْتَضْعِفُ[4] طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ[5] نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ[6] فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ[7] ۝٦ وَأَوْحَيْنَآ[8] إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ[9] وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ

---

(١) الخبر ج أنباء.
(٢) تجبر وتكبرّ.
(٣) جمع شيعة وهي الفرقة.
(٤) أي يجعل ضعيفاً.
(٥) يستبقي.
(٦) أي نجعل لهم سلطاناً وقدرة.
(٧) يتحرزون.
(٨) ألهمنا.
(٩) البحر.

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ(١) ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ(٢) إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا(٣) عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ(٤) فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ(٥) وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ(٦) أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ(٧) ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ(٨) مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا(٩)

---

(١) لقطه أي أخذه بلا تعب.

(٢) أي خالياً من كل شيء سوى موسى (كما روى ابن عباس) أو خالياً من الحزن.

(٣) قوينا يقال ربط الله على قلبه: قواه وصبّره

(٤) اتبعي أثره.

(٥) البعيد.

(٦) يقال بلغ فلان أشده أي قوته وفي القرآن حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة والأشُد بفتح الهمزة وضم الشين (كما في القرآن) والأشُد بضمهما القوة وهو جمع لاواحد له أو واحد جاء على بناء الجمع.

(٧) يقال استوى الرجل أي انتهى شبابه وبلغ أشده.

(٨) بابه ضرب، ضربه بجمع الكف.

(٩) المعين.

لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ (١) فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ (٢) قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ (٣) مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ (٤) بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ (٥) يَأْتَمِرُونَ (٦) بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ (٧) مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ (٨) قَالَ مَا خَطْبُكُمَا (٩) قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ (١٠) ٱلرِّعَآءُ (١١) وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى

---

(١) ينتظر.

(٢) يستغيثه..

(٣) الضال والمنقاد للهوى.

(٤) بطش به فتك..

(٥) أشراف القوم.

(٦) ائتمروا وتآمروا تشاوروا.

(٧) يقال جلس تلقاءه أي تجاهه.

(٨) تدفعان وتطردان غنمهما عن الماء.

(٩) شأنكما.

(١٠) يرجع مأخوذ من الصدور وهو الرجوع عن الماء ويقابله الورود وهو الإتيان إلى الماء.

(١١) جمع راع.

ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ (١) فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (صدق الله العظيم) [سورة القصص: ١ـ٢٨]

* * *

---

(١) جمع حجة أي السنة.

جوامع الكلم[١]

لسيدنا ومولانا محمد[٢] رسول الله ﷺ

أما بعد[٣] فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق[٤] العرى كلمة التقوى ، وخير الملل[٥] ملة إبراهيم ، وخير السنن[٦] سنة محمد ﷺ ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الأمور عوازمها[٧] وشر الأمور محدثاتها[٨] ، وأحسن الهدي[٩] هدي الأنبياء ، وأشرف الموت قتل الشهداء ، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ، وخير

---

(١) من إضافة الصفة إلى الموصوف أي الكلمات الجامعة.

(٢) سيدنا محمد رسول الله ﷺ أفصح العالمين لساناً ، وأبلغهم بياناً اجتمع له من صفات البليغ وخلال البيان من سليقة وبيئة وخلق وذوق وصفاء حس وتمكن لسان وميراث أدب وموهبة حكمة ما لم يجتمع لأحد قبله ولا يجتمع لأحد بعده ، زد على ذلك أن لسانه مجرى الوحي فكان مرتعاً بعد السيل ، وحدِّث عن خضرته ونباته ، كان مطاع اللفظ ، مثقف اللسان ، فياض الخاطر جميل المذهب ، سهل اللفظ ، إماماً مجتهداً صاحب معجزات وآيات في اللسان العربي.

(٣) مبني على الضم لقطعه عن الإضافة.

(٤) المحكم. والعرى جمع عروة وهي من الإبريق ونحوه مقبضه والعروة ما يوثق به وما يعول عليه.

(٥) جمع ملة وهي الشريعة.

(٦) جمع سنة وهي الطريقة.

(٧) جمع عازمة وأمر عازم أي معزوم عليه.

(٨) جمع محدث وهو ما لم يكن معروفاً في كتاب ولا سنة ولا إجماع.

(٩) السيرة.

العلم ما نفع ، وخير الهدى ما اتبع ، وشر العمى عمى القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى[١] وشر المعذرة حين يحضر الموت وشر الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من لا يأتي الصلاة إلا دبرا ، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرا[٢] ، وأعظم الخطايا اللسان الكذوب[٣] ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ورأس الحكمة مخافة الله ، وخير ما وقر[٤] في القلوب اليقين ، والارتياب[٥] من الكفر ، والنياحة من عمل الجاهلية ، والغلول[٦] من جثاء[٧] جهنم ، والكنزكي[٨] من النار ، والشعر من مزامير[٩] إبليس ، والخمر جُمَّاع[١٠] الإثم ، والنساء حبالة الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون ، وشر المكاسب كسب الربا ، وشر المأكل مال اليتيم ، والسعيد من وعِظ بغيره ، والشقي من شقي في بطن أمِّه ، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربع أذرع ، والأمر بآخرته ، وملاك[١١] العمل خواتمه[١٢] ، وشر الروايا[١٣] رواياالكذب ، وكل ما هو آت قريب ، وسباب المؤمن فسوق

---

(١) شغل.
(٢) بالفتح ترك ما يلزمك تعهده ، وبالضم الكلام القبيح .
(٣) الكثير الكذب والمراد به ههنا الكاذب .
(٤) ثبت بابه ضرب .
(٥) ارتاب من الشيء أي شك فيه .
(٦) السرقة من مال الغنيمة .
(٧) جمع جثوة وهو الشيء المجموع وما جمع من نحو تراب فاستعير للجماعة .
(٨) إحراق الجلد بحديدة محماة أو نحوها .
(٩) جمع مزمار وهو الذي يزمر فيه .
(١٠) ككتاب بالكسر والتخفيف ، وبالضم والتشديد مجتمع أصل كل شيء .
(١١) بفتح الميم وكسرها قوام الأمر .
(١٢) جمع خاتم وهو عاقبة كل شيء .
(١٣) جمع رويَّة وهو ما يروي الإنسان في نفسه من القول والفعل وقيل جمع راوية للرجل الكثير الرواية وقيل جمع رواية أي الذين يروون الكذب .

وقتال المؤمن كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومنَ يتألّ[1] على الله يُكذّبه ، ومن يَغفر يغفر الله له ومن يعف يعف الله عنه ، ومن يكظم الغَيظ يأجره الله ، ومن يصبر على الرَزِيّة يعوضه الله ، ومن يتبع السمعة يسمع الله به ، ومن يصبر يضعف الله له ومن يعص الله يعذبه الله ، اللهم اغفر لي ولأمتي، اللهم اغفر لي ولأمتي، اللهم اغفر لي ولأمتي، استغفر الله لي ولكم[2] .

* * *

(١) يحلف .

(٢) البيهقي في الدلائل وابن عساكر عن عقبة بن عامر الجهني .

الخطابة المعجزة

عن أبي سعيد الخدري قال لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا الكبار في قريش وفي قبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد[١] هذا الحي[٢] من الأنصار في أنفسهم ، حتى كثرت فيهم القالة[٣] ، حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله ﷺ قومَه ، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء[٤] الذي أصبت ، قسمت في قومك ، وأعطيت عطايا عظاما[٥] في قبائل العرب. ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء ، قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد»؟ قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي! قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة»[٦] قال: فجاء رجال من المهاجرين ، فتركهم فدخلوا ، وجاء آخرون فردَّهم ، فلما اجتمعوا أتى سعد ، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي

---

(١) وَجَد يجد وجداً وجِدة وموجدة ووجداناً عليه أي غضب.

(٢) البطن من بطون العرب ج أحياء.

(٣) القول الفاشي في الناس خيراً كان أو شراً.

(٤) الغنيمة ج أفياء وفيوء.

(٥) جمع عظيم.

(٦) الموضع الذي يحاط عليه لتأوي إليه الماشية فيقيها البرد والريح ج حظائر.

من الأنصار ، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

«يا معشر الأنصار ما قالةٌ بلغتني عنكم ، وجِدَةٌ[١] وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله بي ، وعالةً[٢] فأغناكم الله بي ، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا : الله ورسوله أمنُّ وأفضل! ثم قال : ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟! قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ، لله ولرسوله المن والفضل! قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلَصَدَقْتُم : ولَصُدِّقتم أتيتَنا مكذَّباً فصدَّقناك ، ومخذولاً[٣] فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فواسيناك[٤] ، أوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعةٍ[٥] من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضَوْن يا معشر الأنصار ، أن يذهب الناس بالشاء[٦] والبعير ، وترجعون برسول الله إلى رحالكم فو الذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعباً[٧] وادياً وسلكت الأنصار شِعباً ووادياً لسلكت شعب الأنصار وواديها .

الأنصار شعار[٨] والناس دثار[٩] ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .

---

(١) السخط والغضب .

(٢) جمع عائل أي الفقير .

(٣) الذي تُرِك نصرته وإعانته ج مخاذيل بابه نصر .

(٤) آسى مواساة الرجل في ماله أي جعله أسوته فيه .

(٥) نبت ناعم في أول ما يبدأ ، ومنه إنما الدنيا لعاعة أي أنها كالنبات الأخضر لا بقاء لها .

(٦) جمع شاة .

(٧) بالكسر الطريق في الجبل ومسيل الماء في بطن أرض وما انفرج بين الجبلين ج شِعَاب .

(٨) بالفتح والكسر وهو اللباس الذي يلي شعر الجسد وهو كناية عن البطانة من الناس والخاصة ج أَشعِرَة وشُعُر .

(٩) بالكسر الثوب الذي يستدفأ به من فوق الشعار .

قال: فبكى القوم حتى أخضَلوا[1] لحاهم[2]، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قَسْماً وحَظّاً[3].

* * *

(١) خضَّل وأخضل الشيء ندَّاه وبلَّه.
(٢) جمع لحية أي شعر الخدين والذقن.
(٣) زاد المعاد

في بَني سَعْـد

كانت حليمة بنت أبي ذُؤَيب السعدية أم رسول الله ﷺ التي أرضعته تحدِّث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير[١] ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر تلتمسُ الرُّضعاء[٢] ، قالت: وذلك في سنة شهباء[٣] لم تُبْق لنا شيئاً ، قالت: فخرجت على أتان لي قمراء[٤] ، معنا شارف[٥] لنا ، والله ما تبضُّ[٦] بقطرة ، وما ننام ليلنا أجمع من صبيينا الذي معنا ، من بكائه من الجوع ، ما في ثديي ما يغنيه وما في شارفنا ما يغديه (قال ابن هشام): ويقال يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفَرَج فخرجت على أتاني تلك فلقد أدَمتُ[٧] بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعَجَفاً[٨] حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منَّا امرأة إلا وقد عُرِض عليها رسول الله ﷺ ، فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم ، وذلك أنا إنما كنا

---

(١) يقال إن اسمه عبد الله بن الحارث.

(٢) جمع رضيع وهو الراضع.

(٣) أي سنة مجدبة لا خضرة فيها ولا مطر.

(٤) وهي ما لونها البياض إلى الخضرة يقال حمار أقمر وأتان قمراء.

(٥) المسنة الهرمة من النوق.

(٦) تسيل قليلاً قليلاً.

(٧) أي أطلت عليهم المسافة تمهلهم عليها مأخوذ من الشيء الدائم وفي سائر الأصول «اذمت» وأذمت الركاب أعيت وتخلفت عن جماعة الإبل ولم تلحق بها يريد أنها تأخرت بالركب أي تأخر الركب بسببها.

(٨) هزالاً.

نرجو المعروفَ من أبي الصبي ، فكنّا نقول يتيم ، وما عسى أن تصنع أمه وجدُّه ، فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأةٌ قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري ، فلما أجمعنا الانطلاقَ قلتُ لصاحبي : والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ، ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه ، قال : لا عليك أن تفعلي ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، قالت : فذهبت إليه فأخذتُه ، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره قالت : فلما أخذتُه رجعتُ به إلى رحلي ، فلما وضعتُه في حجري[١] أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روي ، وشرب معه أخوه حتى روي ، ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل[٢] فحلب منها ما شرب وشربتُ معه حتى انتهينا رياً وشبعاً فبتنا بخير ليلة ، قالت : يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمي واللهِ يا حليمةُ؟ لقد أخذتِ نسمةً مباركةً ، قالت : فقلت : والله إني لأرجو ذلك ، قالت : ثم خرجنا وركبتُ أتاني وحملته عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم ، حتى إن صواحبي ليقلن لي ياابنة أبي ذؤيب! ويحك اربَعي[٣] علينا ، أليست هذه أتانك التي كنتِ خرجتِ عليها؟ فأقول لهن : بلى والله إنها لهي هي ، فيقلن : والله إن لها لشأناً ، قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمي تروح عليَّ . حين قدمنا به معنا شباعاً لُبَّنا ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم :[٤] ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبضُّ بقطرة لبن ، وتروح

(١) حضن الإنسان ج حجور .

(٢) أي ممتلئة .

(٣) اربعي بنا وهوِّني علينا .

(٤) جمع راعٍ .

غنمي شباعاً لُبَّناً فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلتُه ، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتية حتى كان غلاماً جَفراً[١] قالت فقدمنا به على أمه ونحن أحرصُ شيء على مُكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته ، فكلَّمنا أمه وقلت لها : لو تركت بُنَيَّ عندي حتى يغلظ ، فإني أخشى عليه وباء مكة ، قالت : فلم نزل بها حتى ردته معنا ، قالت : فرجعنا به فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفي بهم[٢] لنا خلف بيوتنا ، إذ أتانا أخوه يشتدُّ فقال لي ولأبيه : ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثيابٌ بيضٌ ، فأضجعاه ، فشقّا بطنه ، فهما يسوطانه[٣] .

قالت : فخرجتُ أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائماً منتقعاً[٤] وجهه . قالت : فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له : ما لكَ يا بُني؟! قال : جاءني رجلان عليهما ثيابٌ بيضٌ فأضجعاني وشَقّا بطني ، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو . قالت : فرجعنا به إلى خبائنا ، قالت : وقال لي أبوه : يا حليمة لقد خشيتُ أن يكون هذا الغلامُ قد أصيب ، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به . قالت : فاحتملناه فقدمنا به على أمه ، فقالت : ما أقدمك به يا ظئر؟ وقد كنتِ حريصةً عليه وعلى مُكثه عندك . قالت : فقلت : قد بلغ الله يا بني وقضيت الذي علي وتخوفت الأحداث عليه ، فأدَّيته إليك كما تحبين . قالت : ما هذا شأنك فاصدقيني خبرك . قالت : فلم تدعني[٥] حتى أخبرتها . قالت : أفتخوفت[٦] عليه الشيطان . قالت :

---

(١) غليظاً شديداً .

(٢) الصغار من الغنم واحدتها بهمة .

(٣) يقال : سطت اللبن ، أوالدم أو غيرهما ، أسوطه : إذا ضربت بعضه ببعض ، واسم العود الذي يضرب به : السوط .

(٤) أي متغيراً وجهه لأمر أصابه .

(٥) فلم تتركني .

(٦) أي خفت .

قلت: نعم. قالت: كلا والله، ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لبُنيَّ لشأناً، أفلا أخبرك خبره. قالت: قلت: بلى. قالت: رأيتُ حين حملتُ به أنه خرج مني نورٌ أضاء لي قصور بصرى من أرض الشام، ثم حملت به، فوالله ما رأيت من حَمْل قطّ كان أخفَّ عليَّ، ولا أيسرَ منه. ووقع حين ولدته وإنه لواضعٌ يديه بالأرض رافعٌ رأسه إلى السماء. دعيه عنك، وانطلقي راشدة[١].

* * *

(١) سيرة ابن هشام.

كيف هَاجَر النَّبي ﷺ

إن عائشة[١] زوج النبي ﷺ قالت: لم أعقل أبويَّ قطُّ إلا وهما يدينان الدين، ولم يمرّ علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرةً وعشيةً. فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة، حتى إذا بلغَ برك[٢] الغماد لقيه ابن الدُّغُنَّة ـ وهو سيد القارة[٣] ـ فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض، وأعبد ربي. قال ابن الدُغنَّة: فإن مثلكَ يا أبا بكر لا يخرُج ولا يُخرَج، إنك تكسب المُعدم[٤] وتصل الرَّحم، وتحمل الكلَّ[٥] وتقري[٦] الضَّيف وتعين على نوائب[٧] الحق، فأنا لك جار، ارجعْ واعبُدْ ربَّك ببلدك، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشيةً في أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يَخْرُجُ مثله

---

(١) حبيبة رسول الله ﷺ وبنت خليفته أبي بكر الصديق رضي الله عنه من أكبر فقهاء الصحابة، عاشت خمساً وستين وأقامت في صحبته ﷺ ثمانية أعوام وخمسة أشهر، توفيت في سنة ٥٧ وقيل في سنة ٥٨هـ.

(٢) موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن.

(٣) قبيلة مشهورة من بني الهون بن خزيمة.

(٤) الفقير.

(٥) الثقل وهو من الكلال الذي هو الإعياء أي تعين الضعيف المنقطع.

(٦) قرى كضربِ قرى وقراء الضيف أضافه.

(٧) جمع نائبة أي المصيبة.

ولا يُخْرَج ، أتُخْرِجون رجلاً يكسب المُعدم ، ويَصلُ الرحم، ويحمل الكَل ، ويُقري الضيف ، ويعين على نوائب الحق؟ فلم تكذِّب[١] قريشُ بجوار ابن الدغـنَّـة ، وقالوا لابن الدُغنَّة: مُرْ أبا بكر فليعبدْ ربه في داره فليصلِّ فيها وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا. فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر ، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربَّه في داره ، ولا يستعلن بصلاته ، ولا يقرأ في غير داره.

ثم بدا لأبي بكر فابتنى[٢] مسجداً بفناء داره ، وكان يصلّي فيه ويقرأ القرآن فيتقـذَّف[٣] عليه نساءُ المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه. وكان أبو بكر رجلاً بـكَّاء لا يملك[٤] عينيه إذا قـرىء القرآن ، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدُغنَّة ، فقدم عليهم فقالوا إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره ، فقد جاوز ذلك ، فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهَه ، فإنْ أحبَّ أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يردّ إليك ذمتك فإنا قد كرهنا أن نخفرك[٥] ولسنا مقرّين لأبي بكر الاستعلان.

قالت عائشة: فأتى ابن الدُغُـنَّـة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع إليَّ ذمتي. فإني لا أحبّ أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له. فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله.

---

(١) أي فلم تستطع أن تخالف.
(٢) أي بنى لنفسه.
(٣) أي يزدحمون عليه حتى يسقط بعضهم على بعض فيكاد ينكسر.
(٤) أي لا يستطيع إمساكهما عن البكاء.
(٥) الإخفار هو نقض العهد.

والنبيُّ ﷺ يومئذ بمكة فقال النبي ﷺ للمسلمين إني أريتُ دار هجرتكم ذات نخلٍ بين لابتين[١] وهما الحرَّتان فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة مَنْ كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة وتجهَّز[٢] أبو بكر قبل المدينة.

فقال له رسول الله ﷺ: على رسلك[٣] فإني أرجو أن يؤذن لي. فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف[٤] راحلتين كانتا عنده ورق السَّمُرِ ـ وهو الخَبَط[٥] أربعة أشهر.

قال ابن شهاب قال عروة قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة[٦] قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً[٧] في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمرٌ، قالت: فجاء رسول الله ﷺ، فاستأذن فأذِن له، فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر: أخرج مَنْ عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلُكَ بأبي أنت يا رسول الله، قال: فإني قد أذن لي في الخروج، فقال أبو بكر: الصحابة[٨] بأبي أنت يا رسول الله! قال رسول الله ﷺ: نعم! قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتيَّ هاتين قال رسول الله ﷺ: بالثَمن.

---

(١) أي حرَّتين والحرة هي أرض ذات حجارة سود.
(٢) تجهز للسفر اتخذ لوازمه وتجهز للأمر تهيّأ له.
(٣) الرسل والرسلة التمهل والتؤدة والرفق يقال على رسلك يا رجل أي على مهلك وتَأَنَّ.
(٤) علف الدابة أطعمها.
(٥) ما يخبط بالعصا فيسقط من ورق الشجر.
(٦) حد انتصاف النهار ج ظهائر ونحر الظهيرة أول الزوال.
(٧) المغطي رأسه.
(٨) أي أريد المصاحبة وأطلبها.

قالت عائشة: فجهزنا أحثَّ[١] الجهاز ، وصنعنا لهما سفرةً[٢] في جِراب[٣] فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعةً من نطاقها[٤] ، فربطت به على فم الجراب فبذلك سُمِّيت ذات النطاق ، قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور فكَمَنَا فيه ثلاث ليال ، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر ، وهو غلام شاب ثقِف[٥] لقن[٦] ، فيدَّلج[٧] من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت[٨] فلا يسمع أمراً يُكتادان[٩] به إلا وعاه[١٠] ، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، فيرعى عليهما عامر بن فُهيرة مولى أبي بكر منحة[١١] من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء ، فيبيتان في رِسل[١٢] ، وهو لبن منحتهما ورضيفهما[١٣] حتى ينعق[١٤] بها عامر بن فهيرة بغلس[١٥] ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

---

(١) أي أسرعه.

(٢) طعام المسافر.

(٣) بالكسر وعاء من جلد ج أجرِبة وجُرُب وجُرْب.

(٤) شقة تلبسها المرأة وتشد وسطها فترسل الأعلى على الأسفل والأسفل ينجر على الأرض ج نُطُق.

(٥) الحاذق الفطن.

(٦) السريع الفهم.

(٧) أدلج الرجل إذا سار الليل في أوله وقيل في كله وادلج بالتشديد إذا سار في آخره.

(٨) كمن بات بمكة يظهر ذلك للكفار.

(٩) اكتاده اكتياداً احتال عليه ومكر به.

(١٠) وعى كضرب وعياً الحديث أي تدبره وحفظه.

(١١) شاة تحلب إناء بالغداة وإناء بالعشي.

(١٢) اللبن الطري.

(١٣) الرضيف والرضيفة اللبن الذي يغلي بالرضفة أي الذي طرحت فيه الحجارة المحماة.

(١٤) نعق كفتح نَعْقا ونَعيقاً ونُعاقاً ونَعَقاناً الراعي بغنمه صاح بها وزجرها.

(١٥) ظلمة آخر الليل ج أغلاس.

واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدُّئل ـ وهو من بني عبد بن عدي ـ هادياً خرِّيتاً[١] ـ والخريت الماهرَ بالهداية ـ قد غمس[٢] حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي ، وهو على دين كفار قريش ، فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ براحلتيهما صبح ثلاث ، وانطلق معهما عامر بن فُهيرة والدليل فأخذ بهم على طريق السواحل .

قال ابن شهاب وأخبرني عبد الرحمن بن مالك المُدلجي وهو ابن أخي سُراقة بن مالك بن جُعشُم أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن جُعْشُم يقول : جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره ، فبينما أنا جالسٌ في مجلس من مجالس قومي بني مُدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال : يا سراقة إني قد رأيت آنفاً[٣] أسودة[٤] بالساحل أُراها محمداً أو أصحابه ، قال سراقة : فعرفت أنهم هم ، فقلت له : إنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيتَ فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا[٥] ، ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة[٦] فتحبسها عليَّ ، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزُجِّه[٧] الأرض وخفضت

(١) الدليل الحاذق الذي يهتدي إلى آخرات المفاوز وهي مضايقها وطرقها الخفية ج خراريت وخرارات .

(٢) غمس كضرب غمساً أدخل ، يريد أنه كان حليفاً لهم وأخذ بنصيب من عقدهم وكانوا إذا تحالفوا غمسوا أيمانهم في دم أو خلوق أو نحوهما من شيء فيه تلوين فيكون ذلك تأكيداً للحلف .

(٣) أي من وقت قريب .

(٤) جمع سواد أي الشخص جج أساود .

(٥) أي في نظرنا معاينة .

(٦) قطعة أرفع قليلاً مما حولها ج أَكَم وأكمات جج آكام وأُكُم وأكام .

(٧) الحديد في أسفل الرمح .

عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها فرفعتها تقرِّب[١] بي حتى دنوت منهم ، فعثرت بي فرسي فخررت عنها فقمت فأهويت[٢] يدي إلى كنانتي[٣] فاستخرجت منهاالأزلام[٤] فاستقسمت بها أضُرُّهم أم لا؟ فخرج الذي أكره فركبت فرسي وعصيت الأزلام تقرِّب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت[٥] يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع[٦] في السماء مثل الدخان ، فاستقسمتُ بالأزلام فخرج الذي أكره ، فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم ، ووقع في نفسي ـ حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم ـ أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزأني[٧] ولم يسألاني إلا أن قال: أخفِ عنّا فسألته أن يكتب لي كتاب امن فأمر عامر بن فُهيرة فكتب لي في رقعة من أدَم[٨] ، ثم مضى رسول الله ﷺ .

قال ابن شهاب فأخبرني عروة بن الزبير أنَّ رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تُجَّاراً قافلين[٩] من الشام،

---

(١) التقريب سير دون العدو.

(٢) أي مددت يدي.

(٣) جعبة من جلد أو خشب تجعل فيها السهام ج كنائن وكنانات.

(٤) جمع زلم سهم لا ريش عليه وكان العرب في الجاهلية يستقسمون بها.

(٥) ساخ يسوخ سوخاً في الطين غاص فيه وغاب.

(٦) سطع كفتح سطعة وسطوعاً وسطيعاً الغبار أو الرائحة أو النور ارتفع وانتشر.

(٧) رزأ كفتح رَزْأً ورُزْأً ومرزئة الرجل ماله أصاب منه شيئاً مهما كان أي نقصه.

(٨) جمع أديم وهو الجلد المدبوغ ج آدَم وأدم وآدِمة وآدام.

(٩) قفل كضرب ونصر قفلا قفولاً رجع من السفر خاصة والقافلة الرفقة الراجعة من السفر أو المبتدئة به تفاؤلاً بالرجوع ج قوافل.

فكسا[١] الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض ، وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرَّة[٢] فينتظرونه حتى يردّهم حرّ الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم فلما أووا إلى بيوتهم أوفى[٣] رجلٌ من يهود على أطم[٤] من آطامهم لأمر ينظر إليه فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيِّضين[٥] يزول بهم السراب[٦] فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته : يا معاشر العرب! هذا جَدّكم[٧] الذي تنتظرون ، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقَّوا رسول الله ﷺ بظهر الحره فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو[٨] بن عوف ، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول ، فقام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيّي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلّل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك . فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضعَ[٩] عشرَة ليلة وأسَّس[١٠] المسجد الذي أسِّسَ على التقوى وصلى فيه رسول الله ﷺ . ثم ركب

---

(١) كسا يكسو كَسْوا الثوب فلاناً ألبسه .

(٢) أرض ذات حجارة سود .

(٣) أشرف وطلع .

(٤) القصر وكل حصن مبني بحجارة ج آطام .

(٥) اللابسين ثياباً بيضاً .

(٦) أي يزول السراب عن النظر بسبب عروضهم له وقيل أي ظهر حركتهم فيه للعين .

(٧) حظكم وصاحب دولتكم .

(٨) أي بقباء وكان نزوله ﷺ على كلثوم بن الهدم .

(٩) بالكسر والفتح ما بين الثلاث إلى التسع يقال بضع سنين وبضع عشرة من النساء وبضع وعشرون امرأة ومع المذكر بضعة عشر من الرجال وبضعة وعشرون رجلاً ويجب تقديم بضع فلا يقال عشرون وبضع .

(١٠) جعل أساساً .

راحلته فسار يمشي معه الناس حتى بركت[١] عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مربَدًا[٢] للتمر لسُهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زُرارة ، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته هذا ـ إن شاء الله ـ المنزل .

ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما[٣] بالمربد ليتخذه مسجداً فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً. وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللَّبِن[٤] في بنيانه ويقول ـ وهو ينقل اللَّبِن ـ

هـذا الحمـالُ[٥] لا حمـال خيبـرْ هـــذا أبـــرُّ ربّنـــا وأطهـــرْ

ويقول :

اللهـم إنّ الأجـر أجـر الآخـرهْ فـارحَـمِ الأنصـار والمهـاجِـرَهْ

فتمثل[٦] بشعر رجل من المسلمين لم يُسَمَّ لي .

قال ابن شهاب ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعر تام غير هذه الأبيات[٧] .

* * *

(١) برك كنصر بروكاً وتبراكاً البعير استناخ وهو أن يلصق صدره بالأرض .
(٢) الموضع الذي يجفف فيه التمر .
(٣) ساوم سواماً ومساومة بالسلعة غالى بها أي عرضها بثمن دفع المشتري أقل منه وهكذا إلى أن يتفقا على الثمن .
(٤) جمع لبنه أي المضروب من الطين مربعاً للبناء .
(٥) الحمال والحمل بمعنى أي ليس كحمل خيبر من التمر والثمر . وربَّنا بالنصب : منادى .
(٦) أي أنشد بيتاً .
(٧) الجامع الصحيح للبخاري الجزء الأول باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة المنورة .

ابتلاء كعب بن مالك رضي الله عنه

قال كعب : لم أتخلف[١] عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتَبْ أحدٌ تخلَّف عنها إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا[٢] على الإسلام وما أحبّ أنَّ لي بها مشهدَ بدرٍ وإن كانت بدر أذكَرَ في الناس منها .

كان من خبري : أني لم أكن قطُّ أقوى ولا أيسر[٣] حين تخلَّفت عنه في تلك الغزاة ، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوةً إلا ورَّى[٤] بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً[٥] وعدواً كثيراً فجلَّى[٦] للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة[٧] غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ،

---

(١) لم أتأخر .
(٢) تعاقدنا وتعاهدنا .
(٣) ذو غِنىً .
(٤) أراده وأظهر غيره .
(٥) بالفتح فلاة لا ماء فيها .
(٦) كشف وأوضح .
(٧) العُدَّة والجهاز وتأهب اهبته أي أخذ عدته وتجهز .

ولا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ. قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيَّب إلا ظن أنه سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي الله ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال. وتجهَّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، فطفقتُ أغدو لكي أتجهَّز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً فأقول في نفسي وأنا قادر عليه فلم يزل يتمادى[١] بي حتى اشتد بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً ، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم. فغدوت بعدأن فصلوا لأتجهَّز ، فرجعت ولم أقض شيئاً. ثم غدوتُ فرجعتُ ولم أقض شيئاً ، فلم يزل بي حتى أسرعوا ، وتفارط[٢] الغزو وهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليتني فعلت ، فلم يقدَّر لي ذلك فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً[٣] عليه النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء.

ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوكاً فقال ـ وهو جالس في القوم بتبوك ـ ما فعل كعب؟ فقال رجل من بني سَلَمة: يا رسول الله! حبسه بُراده ونظره في عطفيه[٤]. فقال مُعاذ بن جَبَل: بئس ما قلت ، والله يا رسول الله! ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجّه قافلاً ، حضرني همي ، وطفقت أتذكر الكذب ، وأقول بماذا أخرج من سَخطه[٥] غداً؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي.

---

(١) يستمر.

(٢) تفارط الشيء تأخر وقته يقال تفارطت الصلاة عن وقتها إذا تأخرت عنه.

(٣) رجل مغموص عليه أي مطعون عليه في حسبه ودينه بابه ضرب وسمع.

(٤) عطفا الرجل جانباه ج أعطاف وعِطاف وعُطُوف.

(٥) ضد الرضى وقيل إنه لا يكون إلا من الكبراء والعظماء وبابه سمع.

فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادماً زاح[١] عني الباطل وعرفت أني لن أخرجَ منه أبداً بشيء فيه كذبٌ فأجمعتُ[٢] صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم[٣] إلى الله، فجئته فلما سلمت عليه تبسَّم تبسم المُغضَب ثم قال: تعال، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعتَ ظهرك؟ فقلت: بلى أني ـ والله ـ لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أُعطيتُ جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عَلَيَّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد[٤] على فيه إني لأرجو فيه عفو الله.

لا والله ما كان لي من عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلَّفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك فقمت وسار رجال من بني سَلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنتِ أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلَّفون قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. فوالله ما زالوا يؤنبوني[٥] حتى أردتُ أن أرجع فأكذِّب نفسي، ثم قلت: لهم هل لقي هذا معي أحد قالوا نعم رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع

---

(١) زال.

(٢) أي عزمت أن أصدق له.

(٣) جمع سريرة السر الذي يكتم، ما يسره الإنسان من أمره، النية.

(٤) أي تغضب عليَّ.

(٥) أي يلومونني أشد اللوم.

العَمْري وهلال بن أميّـة الواقفي. فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة[١] ، فمضيت حين ذكروهما لي ، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا ـ أيها الثلاثة ـ[٢] من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا[٣] وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم[٤] فكنتُ أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله ﷺ فأسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه بردِّالسلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه فأسارقه[٥] النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليَّ وإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسوَّرت[٦] جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليَّ فسلَّمت عليه ، فوالله ما رد عليَّ السلام فقلت: يا أبا قتادة! أنشدك[٧] بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته فقال: ـ الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار. قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: ـ من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إليَّ حتى إذا جاءني دفع إليَّ كتاباً من ملك غسَّان[٨] فإذا فيه:

---

(١) القدوة.

(٢) بالرفع بمعنى الاختصاص أي متخصصين من بين سائر الناس.

(٣) استكان استكانة: خضع وذل.

(٤) جلُد ككرم جَلَد أو جلادة وجلودة ومجلوداً كان ذا قوة وصبر وصلابة.

(٥) نظر الواحد منهما إلى الآخر اختلاساً بحيث لا يشعر غيرهما بذلك.

(٦) تسوَّر الحائط وعليه صعد عليه؟

(٧) نشده كنصر وضرب نَشْداً أو نِشداناً ونشدَه الله وبالله استحلفه أي سأله وأقسم عليه بالله.

(٨) اسم ماء نزل عليه قوم من الأزد فنسبوا إليه ومنهم بنو جفنة.



أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضيعة فالحق بنا نواسك[١].

فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء فتيممت[٢] بها التنُّور[٣] فسجرته[٤] بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه قال لا ولكن لا يقربك قالت إنه ـ والله ـ ما به حَرَكة إلى شيء، واللهِ ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب.

فلبثتُ بعد ذلك عشرَ ليالٍ حتى كملت لنا خمسون ليلة منْ حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبحَ خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر اللهَ قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت سمعت صوتَ صارخ أوفى[٥] على جبل سلع بأعلى صوته:

يا كعب بن مالك! أبشر. قال: فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء

---

(١) المواساة لغة في آساه مؤاساة أي عاونه.

(٢) قصدت.

(٣) أنث الضمير على إرادة الصحيفة.

(٤) سجر كنصر سجر التنور أي ملأه وقوداً وأحماه.

(٥) أشرف وطلع.

فَرج ، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشّرونّنا وذهب قِبَلَ صاحبيَّ مبشرون، وركض[١] إليَّ رجل فرساً وسعى ساعٍ من أسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيَّ فكسوته إياهما ببشراه . والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما .

وانطلقت إلى رسول الله ﷺ ، فيتلقّاني الناس فوجاً فوجاً يهنئوني بالتوبة يقولون : لتهنك توبة الله عليك . قال كعب : حتى دخلت المسجد فإذا برسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول[٢] حتى صافحني وهنّأني . والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة .

قال كعب : فلما سلَّمتُ على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور : أبشِرْ بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك .

قال : قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال : لا بل من عند الله .

وكان رسول الله ﷺ إذا سُر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه . فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله! إن من توبتي أن انخلع[٣] من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله . قال رسول الله ﷺ : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك . قلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر فقلت : يا رسول الله! إن الله إنما نجّاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدِّث إلا صدقاً ما بقيت . فو الله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن

(١) ركض كنصر ركضا الفرس برجليه استحثه للعدو .

(٢) هرول هرولة أسرع في مشيه .

(٣) أخرج .

مما أبلاني. وما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً وأني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت.

وأنزل الله على رسول الله ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ...﴾ إلى قوله: ﴿... وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٩]. فو الله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال الله تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1] [التوبة: ٩٥ ـ ٩٦].

* * *

(١) حديث كعب بن مالك كتاب المغازي صحيح البخاري.

مقتَـل عُـمَر بن الخطّـاب رضـي الله عنـه

قال عمرو بن ميمون: إني لقائم ما بيني وبينه - يعني عمر - إلا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما غداة أُصيب ، وكان إذا مرَّ بين الصفين قال: استووا ، حتى إذا لم ير فيهن خللاً تقدم فكَّبر ، وربما قرأ بسورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فما هو إلا أن كبَّر فسمعته يقول:

قتلني أو أكلني الكلب.

حين طعنه فطار العِلج[١] بسكين ذات طرفين ، لا يمر على أحد يميناً ولا شمالاً إلا طَعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة.

فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً[٢] ، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه.

وتناول عمر رضي الله عنه يد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فقدَّمه (أي للإمامة) فمن يلي عمر فقد رأى الذي أرى وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر ، وهم يقولون سبحان الله

---

(١) بالكسر الرجل الضخم القوي من كفار العجم وقد يطلق على الكافر عموماً ج علوج وأعلاج وعِلجَة وهو هنا أبو لؤلؤة واسمه فيروز وكان مجوسياً

(٢) قلنسوة طويلة كانت تلبس في صدر الإسلام وكل ثوب يكون غطاء الرأس جزءاً منه متصلاً به.

سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال عمر:

يا ابن عباس! انظر من قتلني؟

قال: فجال (ابن عباس) ساعة ثم جاء فقال:

غلام المغيرة.

قال: الصَّنَع[١]؟ قال نعم.

قال: قاتله الله، لقد أمرت به معروفاً.

الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدّعي الإسلام، قد كنتَ أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوجُ بالمدينة[٢].

وكان العباس أكثرهم رقيقاً[٣] فقال ابن عباس رضي الله عنهما، إن شئت فعلت «أي إن شئت قتلنا».

قال: كذبت[٤] بعدما تكلّموا بلسانكم، وصلّوا قبلتكم، وحجّوا حجكم فاحتُمِلَ إلى بيته رضي الله عنه فانطلقنا معه، قال: ـ وكأنَّ الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ فقائل يقول: ـ لا بأس.

وقائل يقول: ـ أخاف عليه.

فأُتي بنبيذ فشربه فخرج من جوفه، ثم أُتي بلبن فشربه فخرج من جوفه، فعرفوا أن ميت.

فدخلنا عليه وجاء الناس فجعلوا يثنون عليه، وجاء رجل شاب

---

(١) بفتحتين وبالفتح والكسر وسكون النون حاذق في الصنعة ماهر في عمل اليدين.

(٢) كان عمر رضي الله عنه يكره كثرة سبايا الفرس في مركز الإسلام وعاصمة الخلافة ويحذر من اختلاطهم بالمسلمين وإفسادهم.

(٣) المملوك للواحد والجمع يقال عبد رقيق وعبيد رقيق وقد يجمع على أرقَّاء.

(٤) أي أخطأت.

فقال: ـ أبشر يا أمير المؤمنين! ببشرى الله ، لك من صحبة رسول الله ﷺ وقدم في الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ثم شهادة .

قال: وددت أن ذلك كان كفافاً[١] لا عليَّ ولا لي ، فلما أدبر إذا إزاره يمسُّ الأرض فقال: ـ رُدُّوا عليَّ الغلام .

فقال يا ابن أخي! أرفع ثوبك فإنه أنقَى لثوبك ، وأتقى لربك .

ـ يا عبد الله بن عمر! انظر ما عليَّ من الدَّين؟

فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه ، قال إن وفى له مال آل عمر فأدِّه من أموالهم ، وإلا فسل في بني عدي[٢] بن كعب فإن لم تفِ أموالهم فسل في قريش ، ولا تعدُهم[٣] إلى غيرهم فأدِّ عني هذا المال .

انطلق إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فقل: يقرأ عليك عمر السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين فإني لستُ اليومَ للمؤمنين أميراً ، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه .

قال: فسلَّم فاستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدةً تبكي ، فقال: ـ يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت: كنت أريده لنفسي ولأؤثرنَّ به اليومَ على نفسي .

فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء .

فقال: ـ ارفعوني فأسنده رجل إليه .

فقال: ـ ما لديك؟

قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين ، قد أذنت .

فقال: الحمد لله ، ما كان شيء أهمَّ إليَّ من ذلك ، فإذا أنا قُبضت

---

(١) أي مقدار الحاجة من غير زيادة ولا نقصان .

(٢) قبيلة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٣) لا تتجاوزهم .

فاحملوني ثم سلِّم فقل: ـ يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذنت لي فأدخلوني ، وإن ردتني فردُّوني إلى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها والنساء تسير معها ، فلما رأيناها قمنا فولجت عليه ، فبكت عنده ساعة ، واستأذن الرجال فولجت[١] داخلاً[٢] لهم فسمعنا بكاءها من الداخل ، فقالوا:

أوص يا أمير المؤمنين! استخلف.

قال ما أجد أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط[٣] الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ.

فسمى عليّاً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم وقال:

يشهدكم عبد الله بن عمر ، وليس له من الأمر شيء (كهيئة التعزية له)[٤] فإن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك ، وإلا فليستعن به أيكم ما أُمِّر ، فإني لم أعزله من عجز ولا خيانة.

وقال أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم وأوصيه بالأنصار خيراً ـ الذين تبوّؤوا[٥] الدار والإيمان من قبلهم ـ أن يقبل من محسنهم وأن يعفي عن مسيئهم ، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنهم رِدء[٦] الإسلام وجباة[٧] المال وغيظ

---

(١) ولج يلج ولوجاً ولجة البيت وولج الشيء في غيره دخل فيه.

(٢) أي مدخلاً كان في الدار.

(٣) الرهط الجماعة دون العشرة.

(٤) أي قال له يشهدكم عبد الله بن عمر وقد قال له ذلك كهيئة التعزية له لأنه لما أخرجه من الخلافة أراد جبر خاطره بأن جعله من أهل المشاورة.

(٥) أي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم.

(٦) أي الناصر.

(٧) جمع الجابي أي الجامع جباً كنصر وجبى كضرب الخراج أي جمعه.

العدو ، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم ، وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادَّة[١] الإسلام أن يؤخذ من حواشي[٢] أموالهم وترد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل مَنْ وراءهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم .

فلما قُبِضَ خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلم عبد الله بن عمر .

قال : يستأذن عمر بن الخطاب ، قالت (أي عائشة) :

أدخلوه فأُدخل ، فوضع هنالك مع صاحبيه ، فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط ، فقال عبد الرحمن :

اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم .

قال الزبير : قد جعلت أمري إلى عليّ .

وقال طلحة : قد جعلت أمري إلى عثمان .

وقال سعد : قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف .

فقال له عبد الرحمن : أيكما تَبرَّأ من هذا الأمر فنجعله إليه ، والله عليه والإسلام[٣] لينظرن أفضلهم في نفسه .

فأُسكِتَ الشيخان ، فقال عبد الرحمن : أفتجعلونه إليَّ؟ والله عليَّ أن لا آلو عن أفضلكم .

قالا : نعم .

فأخذ بيد أحدهما فقال : لك قرابة من رسول الله ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت فالله عليك لئن أمَّرتك لتعدلن ولئن أمَّرتُ عثمان لتسمعنَّ ولتطيعن .

---

(١) المادَّة كل شيء يكون مدداً لغيره ويقال دع في الضرع مادة اللبن ، والأعراب مادة الإسلام.
(٢) جمع الحاشية وهي من صغار الناس والإبل لا كبار فيهم .
(٣) بالرفع فيهما والخبر محذوف أي عليه رقيب .

ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان!

فبايعه فبايع له عليٌّ رضي الله عنه وولج أهل الدار[١] فبايعوه[٢].

* * *

(١) أي أهل المدينة وفي القرآن والذين تَبَوَّؤوا الدار والإيمان.

(٢) صحيح البخاري كتاب المناقب باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

أخْـلاق المـؤمِـن

للحسن البصري[١]

هيهات هيهات ، أهلك الناس الأماني ، قول بلا عمل ، ومعرفة بغير صبر ، وإيمان بلا يقين ، ما لي أرى رجالاً ولا أرى عقولاً . ، وأسمع حسيساً[٢] ولا أرى أنيساً ، دخل القوم والله ثم خرجوا ، وعرفوا ثم أنكروا ، وحرَّموا ثم استحلُّوا ، إنما دين أحدكم لعقة على لسانه ، إذا سئل أمؤمن أنت بيوم الحساب؟ قال: نعم! كذب ومالك يوم الدين ، إن من أخلاق المؤمن قوة في دين ، وحزماً في لين ، وإيماناً في يقين ، وعلماً في حلم ، وحلماً بعلم ، وكيساً في رفق ، وتجمُّلاً في فاقة ، وقصداً في غنى ، وشفقة في نفقة ، ورحمة لمجهود ، وعطاء في الحقوق ، وإنصافاً في استقامة ، لا يحيف[٣] على من يبغض ، ولا يأثم

---

(١) أبو سعيد الحسن أبي الحسن يسار البصري كان من سادات التابعين وكبرائهم ، جمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة ، وأبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري وأمه خيرة مولاة أم المؤمنين أم سلمة زوجة النبي ﷺ وربما غابت في حاجة فيبكي فتعطيه أم سلمة رضي الله عنها ثديها تعلله به إلى أن تجيء أمه فدر عليه ثديها فشربه فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك . قال أبو عمرو بن العلاء ما رأيت أفصح من الحسن البصري ومن الحجاج بن يوسف الثقفي ، فقيل له فأيهما كان أفصح؟ قال: الحسن! ومولد الحسن لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة ويقال إنه وُلد على الرق وتوفي بالبصرة مستهل رجب سنة عشر ومئة .

(٢) الصوت الخفي .

(٣) لا يظلم .

في مساعدة من يحب ، ولا يهمز[١] ، ولا يغمز[٢] ، ولا يلمز[٣] ، ولا يلغو ، ولا يلهو ، ولا يلعب ، ولا يمشي بالنميمة ، ولا يتبع ما ليس له ، ولا يجحد[٤] الحق الذي عليه ،ولا يتجاوز في العذر ، ولا يشمت[٥] بالفجيعة[٦] إن حلَّت بغيره ، ولا يسر بالمعصية إذا نزلت بسواه .

المؤمن في الصلاة خاشع ، وإلى الركوع مسارع ، قوله شفاء ، وصبره تقى ، وسكوته فكرة ، ونظره عبرة ، يخالط العلماء ليعلم ، ويسكت بينهم ليسلم ، ويتكلم ليغنم ، إن أحسن استبشر ، وإن أساء استغفر ، وإن عتب استعتب[٧] ، وإن سفه عليه حلم ، وإن ظلم صبر ، وإن جير عليه عدل ، ولا يتعوذ بغير الله ، ولا يستعين إلا بالله ، وقور في الملأ ، شكور في الخلا ، قانع بالرزق ، حامد على الرخاء ، صابر على البلاء ، إن جلس مع الغافلين كتب من الذاكرين ، وإن جلس مع الذاكرين كتب من المستغفرين .

هكذا كان أصحاب النبي ﷺ الأول فالأول ، حتى لحقوا بالله عز وجل ، وهكذا كان المسلمون من سلفكم الصالح ، وإنما غيَّر بكم لما غيَّرتم ثم تلا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾[٨] [الرعد : ١١] .

❊ ❊ ❊

---

(١) لا يغتاب .
(٢) لا يطعن .
(٣) لا يعيب .
(٤) لا ينكر .
(٥) لا يفرح .
(٦) الرزيئة وهي المصيبة ج فجائع .
(٧) استرضاه .
(٨) سيرة الحسن البصري لعبد الرحمن ابن الجوزي .

إخـوَانُ الصّـفَـاء

لابن المقفع[١]

. . . . . فبينما الغراب في كلامه إذ أقبل نحوهم ظبي يسعى. فذُعرت[٢] منه السلحفاة فغاصت في الماء وخرج الجُرَذ[٣] إلى جُحره[٤] وطار الغراب فوقع على شجرة، ثم إن الغراب حَلَّق[٥] في السماء لينظر هل للظبي طالب؟ فنظر فلم ير شيئاً، فنادى الجرذ والسلحفاة، وخرجا، فقالت السلحفاة للظبي حين رأته ينظر إلى الماء: اشرب إن كان بك عطَش، ولا تخف فإنه لا خوف عليك. فدنا الظبي فرحَّبت به السلحفاة وحَيَّته، وقالت له: من أين أقبلت؟ قال: كنت أسنح[٦] بهذه

(١) هو عبد الله بن المقفَّع كاتب فارسي الأصل عربي النشأة نبغ في الكتابة في اللغتين الفارسية والعربية واستُكتب في عهد بني أمية وأسلم في عهد بني العباس وقُتل في عهد المنصور سنة ١٤٢. ابن المقفع أمة في الأدب والإنشاء صاحب طريقة في الكتابة عرفت به وأخذ عنه وهي طريقة سهلة جارية مع الطبع عامرة بالمعاني خفيفة اللفظ، للقلب والعاطفة فيها حظ قليل إلا ما كان تعبيراً عن وجدانه وتمثيلاً لأخلاقه كالصداقة والمروءة، والرجل آية في الترجمة لا تشم منها رائحة الترجمة ولا تميز النقل عن الوضع، وكتابه كليلة ودمنة الذي ترى أنموذجه في فصل إخوان الصفاء مثال خالد للترجمة.

(٢) دهشت بابه سمع.

(٣) نوع من الفأرج جرذان.

(٤) بالضم مكان تحتفره السباع والهوام لأنفسها ج أجحار وجِحَرة وَأجْحَرة.

(٥) ارتفع في طيرانه واستدار كالحلقة.

(٦) سَنَح الظبي والطير وغيرهما سنوحاً مرَّ من المياسر إلى الميامن ولكن المراد هنا أنه يرتع ويرعى.

الصَّحاري فلم تزل الأساورة[١] تطردني من مكان إلى مكان ، حتى رأيت اليوم شبَحاً[٢] ، فخفت أن يكون قانصاً[٣] . قالت: لا تخف فإنا لم نر ههنا قانصاً قط ، ونحن نبذل ودّنا ومكاننا ، والماء والمرعى كثيران عندنا فارغب في صحبتنا. فأقام الظبي معهم وكان لهم عريش[٤] يجتمعون فيه ، ويتذاكرون الأحاديث والأخبار.

فبينما الغراب والجرذ والسلحفاة ذات يوم في العريش ، غاب الظبي فتوقعوه ساعة ، فلم يأت ، فلما أبطأ أشفقوا أن يكون قد أصابه عنت[٥] فقال الجرذ والسلحفاة للغراب: انظر هل ترى مما يلينا شيئاً؟ فحلَّق الغراب في السماء ، فنظر ، فإذا الظبي في الحبائل مقتنصَاً ، فانقضَّ[٦] مسرعاً فأخبرهما بذلك فقالت السلحفاة والغراب للجرذ: هذا أمر لا يرجى فيه غيرك فأغِث أخاك ، فسعى الجرذ مسرعاً فأتى الظبي فقال له: كيف وقعت في هذه الورطة[٧] وأنت من الأكياس[٨]؟ قال الظبي ، هل يغني الكيَس مع المقادير شيئاً؟ فبينما هما في الحديث إذ وافتهما السلحفاة ، فقال لها الظبي: ما أصبت بمجيئك إلينا: فإن القانص لو انتهى إلينا وقد قطع الجرذ الحبائل استبقته عَدْوَاً ، وللجرذ أجحار كثيرة ، والغراب يطير وأنت ثقيلة لا سعي لك ولا حركة ، وأخاف عليك القانص ، قالت: لا عيش مع فراق الأحبة وإذا فارق الأليف[٩] أليفه فقد

---

(١) جمع أسوار بالضم والكسر الرامي بالسهام.
(٢) الشخص ج شبوح وأشباح.
(٣) الصياد.
(٤) مكان يستظل به ج عرش.
(٥) الوقوع في أمر شاق.
(٦) هوى ليقع.
(٧) الهلكة وكل أمر تعسر النجاة منه ج ورطات ووِرَاط.
(٨) جمع كيِّس وهو الفطن الظريف.
(٩) المحب ج ألائف.

سُلِب فؤاده ، وحرم سروره وغُشِّي بصره ، فلم ينته كلامها حتى وافى القانص ، ووافق ذلك فراغ الجرذ من قطع الشَّرَك ، فنجا الظبي بنفسه ، وطار الغراب محلقاً ودخل الجرذ لبعض الأجحار . ولم يبق غير السلحفاة ودنا الصيَّاد فوجد حبالته مقطعة ، فنظر يميناً وشمالاً فلم يجد غير السلحفاة تدب . فأخذها وربطها فلم يلبث الغراب والجرذ والظبي أن اجتمعوا فنظروا القانص قد ربط السلحفاة فاشتد حزنهم ، وقال الجرذ : ما أرانا نجاوز عقبة[١] من البلاء إلا صرنا في أشد منها ولقد صدق الذي قال : لا يزال الإنسان مستمراً في إقباله ما لا يعثر ، فإذ عثر لجَّ[٢] به العِثار ، وإن مشى في جَدَد[٣] الأرض : وحذري على السلحفاة خير الأصدقاء التي خِلَّتها ليست للمجازاة ولا لالتماس مكافأة ، ولكنها خلّة[٤] الكرم والشرف خلة هي أفضل من خلة الوالد لولده خِلَّة لا يزيلها إلا الموت ، ويح لهذا الجسد الموكل به البلاء الذي لا يزال في تصرف وتقلب ، ولا يدوم له شيء ، ولا يلبث معه أمر كما لا يدوم للطالع من النجوم طلوع ، ولا للآفل منها أفول[٥] لكن لا يزال الطالع منها آفلاً والآفل منها طالعاً ، وكما تكون آلام الكلوم[٦] وانتقاض[٧] الجراحات ، كذلك من قرحت كلومه بفقد إخوانه بعد اجتماعه بهم . فقال الظبي والغراب للجرذ : إن حذرنا وحذرك وكلامك وإن كان بليغاً كلُّ منها

---

(١) بفتحتين المرقى الصعب من الجبال ج عِقاب وعَقَبات .

(٢) تمادى .

(٣) الأرض الغليظة المستوية ج أجداد .

(٤) الصداقة .

(٥) أفل كضرب ونصر وسمع أفولاً القمر غابَ فهو آفل ج أُفَّل وأُفُول .

(٦) جمع كلم وهو الجرح .

(٧) يقال انتقض الجرح بعد برئه نكس أي عاود .

لا يغني عن السلحفاة شيئاً. وإنه كما يقال: إنما يختبر الناس عند البلاء، وذو الأمانة عند الأخذ والعطاء، والأهل والولد عند الفاقة كذلك يختبر الإخوان عند النوائب. قال الجرذ: أرى من الحيلة أن تذهب أيها الظبي! فتقع بمنظر من القانص كأنك جريح ويقع الغراب عليك كأنه يأكل منك وأسعى أنا فأكون قريباً من القانص مراقباً له لعله أن يرمي ما معه من الآلة ويضع السلحفاة ويقصدك طامعاً فيك، وراجياً تحصيلك، فإذا دنا منك ففِرَّ عنه رويداً بحيث لا ينقطع طَمَعه منك ومكِّنه من أخذك مرة بعد مرة حتى يبعد عنا وانح منه هذا النحو ما استطعت: فإني أرجو ألا ينصرف إلا وقد قطعت الحبائل عن السلحفاة وأنجو بها، ففعل الغراب والظبي ما أمرهما به الجرذ، وتبعهما القانص فاستجرَّه[1] الظبي حتى أبعده عن الجرذ والسلحفاة، والجرذ مقبل على قطع الحبائل حتى قطعها ونجا بالسلحفاة، وعاد القانص مجهوداً[2] لاغباً[3] فوجد حبالته مقطعة ففكر في أمره مع الظبي المتظلع[4] فظن أنه خولط[5] في عقله، وفكر في أمر الظبي والغراب الذي كأنه يأكل منه، وقرض حبالته، فاستوحش من الأرض وقال: هذه أرض جن أو سَحَرة فرجع مُوَلِّياً لا يلتمس شيئاً ولا يلتفت إليه، واجتمع الغراب والظبي والجرذ والسلحفاة إلى عريشهم سالمين آمنين كأحسن ما كانوا عليه.

فإذا كان هذا الخلق مع صغره وضعفه قد قدر على التخلص من مرابط الهلكة مرة بعد أخرى بمودته وخلوصها وثبات قلبه عليها واستمتاعه مع أصحابه بعضهم ببعض، فالإنسان الذي قد أُعطي العقل والفهم، وأُلهم

---

(١) أي جرَّه.

(٢) جهده الشيء أتعبه وأعياه.

(٣) لغب كفتح ونصر وكرم لغبا ولَغوبا ولغِب لَغَباً تعب وأعيا أشد الإعياء فهو اللاغب ج لُغَّب.

(٤) تظلّع أي أظهر أنه ظالع.

(٥) أي أصابه جنون.

الخير والشر ، ومنح التمييز والمعرفة أولى وأحرى بالتواصل والتعاضد[١] ، فهذا مثل إخوان الصفاء وائتلافهم في الصحبة[٢] .

* * *

(١) التعاون .

(٢) من كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع فصل الحمامة المطوقة .

وَصفُ الزاهِد

لابن السمَّاك[1]

قال ابن السماك حين مات داود الطائي[2] : يا أيها الناس! إن أهل الدنيا تعجلوا غموم القلب وهموم النفس وتعب الأبدان مع شدة الحساب ، فالرغبة متعبة لأهلها في الدنيا والآخرة ، والزهادة راحة لأهلها في الدنيا والآخرة، وإن داود الطائي نظر بقلبه إلى ما بين يديه فأغشى بصَرُ قلبه بصرَ العيون، فكأنه لم يبصر ما إليه تنظرون وكأنكم لا تبصرون ما إليه ينظر ، فأنتم منه تعجبون وهو منكم يتعجب ، فلما نظر إليكم راغبين مغرورين قد ذهبت على الدنيا عقولكم ، وماتت من حبها

(١) كان زاهداً عابداً ، حسن الكلام ، صاحب مواعظ. روى عنه أحمد بن حنبل وأنظاره ، كوفي قدم بغداد زمن هارون الرشيد فمكث بها مدة ثم رجع إلى الكوفة فمات بها سنة ١٨٣هـ (ابن خلكان).

(٢) هو داود بن نصير الطائي كان من الزهاد المعدودين شغل نفسه بالعلم ودرس الفقه ثم اختار العُزلة والانفراد والخلوة فلزم العبادة وتعفف عن قبول عطايا الملوك. قيل إنه صام أربعين سنة ما علم به أهله ، قدم هارون الرشيد الكوفة فكتب قوماً من القراء وأمر لكل واحد منهم بألفي درهم ، وكتب داود الطائي من جملتهم فدعاه باسمه فقيل له إن داود لم يعلم ، فقال أرسلوها إليه فقال ابن السماك وحماد بن أبي حنيفة نحن نذهب بها إليه ، وقال ابن السماك لحماد في الطريق انثرها بين يديه فإن للعين حظَّها ، رَجل ليس عنده شيء يؤمر له بألفي درهم يردُّها؟ فلما دخلا عليه نثراها بين يديه فقال لهما إنما يفعل هذا بالصبيان! وأبى أن يقبلها.
قال محارب بن دثار: لو كان داود في الأمم الماضية لقصَّ الله تعالى شيئاً من خبره ، توفي سنة ستين أو خمس وستين ومئة (ابن خلكان).

قلوبكم ، وعشقتها أنفسكم وامتدَّتْ إليها أبصاركم استوحش الزاهد منكم لأنه كان حياً وسط موتى .

يا داود! ما أعجب شأنك ألزمت نفسك الصمت حتى قومتها على العدل ، أهنتَها وإنما تريد كرامتها ، وأذللتها وإنما تريد إعزازها ، ووضعتها وإنما تريد تشريفها ، وأتعبتها وإنما تريد راحتها ، وأجعتَها وإنما تريد شبعها ، وأظمأتها وإنما تريد رِيّها ، وخشنت الملبس وإنما تريد ليّنه ، وجشَّبت[1] المطعم وإنما تريد طيّبه ، وأمتَّ نفسك قبل أن تموت ، وقبرتها قبل أن تقبر ، وعذبتها قبل أن تعذب ، وغيَّبتها عن الناس كي لا تذكر ، وغبت بنفسك عن الدنيا إلى الآخرة فما أظنك إلا قد ظفرت بما طلبت ، كان سيماك[2] في عملك وسرك ، ولم يكن سيماك في وجهك . فقهت في دينك ثم تركت الناس يفتون ، وسمعت الأحاديث ثم تركت الناس يحدثون ويروون ، وخرست عن القول وتركت الناس ينطقون ، ولا تحسد الأخيار ، ولا تعيب الأشرار ، ولا تقبل من السلطان عطية ، ولا من الإخوان هدية ، آنس ما تكون إذا كنت بالله خالياً ، وأوحش ما تكون إذا كنت مع الناس جالساً ، فأوحش ما تكون آنس ما يكون الناس ، وآنس ما تكون أوحش ما يكون الناس ، جاوزت حد المسافرين في أسفارهم ، وجاوزت حد المسجونين في سجونهم ، فأما المسافرون فيحملون من الطعام والحلاوة ما يأكلون فأما أنت فإنما هي خبزتك أو خبزتان في شهرك ترمي بها في دن[3] عندك ، فإذا أفطرت أخذت منه حاجتك فجعلته في مطهرتك ، ثم صببت عليه من الماء ما يكفيك ثم اصطبغت به ملحاً فهذا إدامك وحلواك فمن سمع بمثلك صبر صبرك أو عزم عزمك وما أظنك إلا قد لحقت بالماضين ، وما أظنك إلا

---

(١) جشب الطعام إذا غلظ .

(٢) البهجة والحسن .

(٣) الدّن وعاء كالبرميل كبير .

قد فضلت الآخرين ، ولا أحسبك إلا قد أتعبت العابدين ، وأما المسجون فيكون مع الناس محبوساً فيأنس بهم وأنت فسجنت نفسك في بيتك وحدك فلا محدث وجليس معك ولا أدري أي الأمور أشد عليك الخلوة في بيتك تمر بك الشهور والسنون أم تركك المطاعم والمشارب ، لا ستر على بابك ولا فراش تحتك ، ولا قلة[١] يبرد فيها ماؤك ، ولا قصعة[٢] يكون فيها غداؤك وعشاؤك ، مطهرتك قلت: وقصعتك تورك[٣] وكل أمرك يا داود عجب ، أما كنت ، تشتهي من الماء بارده ولا من الطعام طيبه ولا من اللباس لينه ، بلى ولكنك زهدت فيه لما بين يديك فما أصغر ما بذلت وما أحقر ما تركت وما أيسر ما فعلت في جنب ما أملت ، أما أنت فقد ظفرت بروح العاجل وسعدت ـ والله ـ في الآجل ، عزلت الشهرة عنك في حياتك لكي لا يدخلك عجبها ، ولا يلحقك فتنتها ، فلما مت شهرك ربك بموتك وألبسك رداء عملك فلو رأيت اليوم كثرة تبعك عرفت أن ربك قد أكرمك[٤]

* * *

(١) الجرَّة العظيمة .

(٢) الصحفة .

(٣) إناء صغير .

(٤) صفة الصفوة لابن الجوزي ـ

بينَ السيّـدة زبيـدَةَ والمـأمون

من السيدة زبيدة[١] :

كل ذنب يا أمير المؤمنين! وإن عظم صغير في جنب عفوك ، وكل زلل وإن جَلَّ حقير عند صفحك ، وذلك الذي عوَّدك الله فأطال مدتك ، وتمم نعمتك ، وأدام بك الخير ، ورفع بك الشر.

هذه رقعة الواله[٢] التي ترجوك في الحياة لنوائب الدهر ، وفي الممات لجميل الذكر ، فإن رأيت أن ترحم ضعفي واستكانتي وقلة حيلتي وأن تصل رحمي وتحتسب فيما جعلك الله له طالباً وفيه راغباً فافعل ، وتذكر مَنْ لو كان حياً لكان شفيعي إليك.

من المأمون : [٣]

---

(١) أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور العباسي وهي أم الأمين محمد بن الرشيد ، المرأة الفاضلة العريقة في المجد والشرف صاحبة معروف وحسنات على المسلمين ، إليها ينسب نهر زبيدة ، توفيت سنة ٢١٦هـ ورسالتها هذه تعبر عن حزن عميق مع احترام لائق لسدَّة الخلافة ومعرفة دقيقة للآداب السلطانية وهي مثال بليغ للإنشاء والتعبير في مثل هذا الموقف الحرج والمنازعة النفسية.

(٢) وله الرجل وَلَهاً حزن شديداً حتى كاد يذهب عقله بابه ضرب وسمع.

(٣) هو أبو العباس عبد الله المأمون بن هارون الرشيد وُلد سنة ١٧٠هـ وتوفي سنة ٢١٨هـ كان من مفاخر بني العباس حزماً وعزماً وحلماً وجمعاً للفضائل المنتشرة وحماية للعلم إلا أن فيه تسرعاً في الأحكام وقسوة في إنفاذها وتشيُّعاً للمعتزلة فلاسفة ذلك العصر. وجوابه هذا جواب مواساة وبر يجمع بين عزة الملوك وبر الأبناء وحلاوة التعزية وشيء من مرارة العتاب.

وصلت رقعتك يا أمَّاه! أحاطك الله وتولاّك بالرعاية ووقفت عليها وساءني - شهد الله - جميع ما أوضحت فيها لكن الأقدار نافذة، والأحكام جارية، والأمور متصرفة، والمخلوقون في قبضتها لا يقدرون على دفاعها، والدنيا كلها إلى شتات، وكل حيٍّ إلى ممات، والغدر والبغي حتف الإنسان، والمكر راجع إلى صاحبه، وقد أمرت برد جميع ما أخذ لك، ولم تفقدي ممن مضى إلى رحمة الله إلا وجهه وأنا بعد ذلك لك على أكثر مما تختارين والسلام[١].

* * *

(١) عصر المأمون.

بين قاضٍ وَقور ، وذباب جسُور

للجاحظ(١)

كان لنا بالبصرة قاض ، يقال له عبد الله بن سوار ، لم ير الناس حاكماً زميتاً(٢) ركيناً(٣) ، ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته ، مثل الذي ضبط وملك ، كان يصلي الغداة في منزله وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه فيحتبي(٤) ولا يتكىء ، فلا يزال منتصباً ، لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ولا تحل حبوته ، ولا يحل رجلاً على أخرى ، ولا يعتمد على أحد شقَّيْهِ ، حتى كأنه بناء مبني ، أو صخرة منصوبة ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ثم يعود إلى

---

(١) هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ولد بالبصرة ونشأ بها ، وتخرج في جميع الفنون السائرة في عصره ، وضرب فيها بسهم وافر ، وصنّف وألف ، وجمع وكتب ، وراسل وأنشأ ، كان دميم الخلقة لطيف الروح ، ذكي الفؤاد ، فكه المحاضرة ، معتزلي العقيدة ، أما الكتابة فهو فيها نابغة العرب وإمام الصناعة ، صاحب أسلوب خاص ، هو أبو عذرته ، ويكاد يكون خاتمه ، تمتاز كتابته بسهولة العبارة وجزالتها وتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقفاة أو مرسلة ، وزيادة الإطناب في الألفاظ والجمل ، والاستطراد ومزج الجد والهزل ، وتحكيم العقل والمنطق ، والاعتراض بالجمل الدعائية ، وبعد ذلك كله تصوير المجتمع الذي يعيش الكاتب فيه وبيان أخلاق عصره وعوائدهم . ومن كتبه الشهيرة كتاب «البيان والتبيين» وكتاب «البخلاء» وكتاب «الحيوان» و«ديوان رسائل» . توفي سَنة ٢٥٥هـ .

(٢) الزميت ، الجليل الوقور .

(٣) الركين ، الثابت الوقور الرزين .

(٤) احتبى الرجل جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة العصر ، ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك ، حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى مجلسه ، بل كثيراً ما كان يكون ذلك ، إذا بقي عليه شيء من قراءة العهود والشروط والوثائق ، ثم يصلي العشاء الآخرة وينصرف ، فالحق يقال: لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب.

كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها ، وفي صيفها وفي شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرك يداً ولا عضواً ، ولا يشير برأسه ، وليس إلاّ أن يتكلم ، ثم يوجز ويبلغ باليسير من الكلام إلى المعاني الكبيرة.

فبينا هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه ، وفي السماطين[١] بين يديه ، سقط على أنفه ذباب ، فأطال المكث ، ثم تحول إلى موق[٢] عينيه ، فرام الصبر على سقوطه على الموق ، وصبر على عضّته ونفاذ خرطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه ، من غير أن يحرك أرنبته[٣] أو يغضّن[٤] وجهه ، أو يذب بأصبعه ، فلما طال ذلك عليه من الذباب ، وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض ، فدعاه ذلك إلى أن يوالي بين الإطباق والفتح ، فتنحى ريثما سكن جفنه ، ثم عاد إلى موقه بأشد من مرته الأولى ، فغمس خرطومه في مكان كان قد آذاه فيه قبل ذلك ، فكان احتماله أقل ، وعجزه عن الصبر عليه في الثانية أقوى ، فحرك أجفانه ، وزاد في شدة الحركة ، وألح في فتح العين ، وفي تتابع الفتح والإطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى

(١) الصفين.

(٢) الموق ، مجرى الدمع من العين.

(٣) الأرنبة ، طرف الأنف.

(٤) غضن الشيء ، جعده وشنّجه.

موضعه ، فما زال يلحّ عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بداً من أن يذب عن عينه بيده ففعل ، وعيون القوم ترمقه ، وكأنهم لا يرونه فتنحى عنه بقدر ما رد يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذب عن وجهه ، بطرف كمه ، ثم ألجأه إلى أن تابع ذلك ، وعلم أن فعله كله بعين من حضره من أمنائه وجلسائه ، فلما نظروا إليه قال: أشهد أن الذباب ألجّ من الخنفساء[1] وأزهى[2] من الغراب ، قال: وأستغفر الله فما أكثر من أعجبته نفسه ، فأراد الله عز وجل أن يعرّفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً ، وقد علمتم أني عند نفسي وعند الناس من أرزن الناس ، فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج : ٧٣].

وكان بيّن اللسان ، قليل فضول الكلام ، وكان مهيباً في أصحابه ، وكان أحد من لم يطعن عليه في نفسه ، ولا في تعريض أصحابه للمنالة[3]

* * *

(١) دويبة سوداء أصغر من الجعل ، كريهة الرائحة.

(٢) أكثر تكبّراً ، وأكثر تحركاً.

(٣) منقول من كتاب «كنوز الأجداد» لمحمد كرد علي. ٨١ ـ ٨٢.

القميصُ الأحمَر

لابن عبد ربه[١]

بينما المنصور في الطواف بالبيت ليلاً إذ سمع قائلاً يقول: اللهُمَّ! إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع. فجزع المنصور فجلس بناحية من المسجد وأرسل إلى الرجل فصلى ركعتين واستلم[٢] الركن، وأقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة. فقال المنصور: ما الذي سمعتُك تذكر من ظهور الفساد والبغي في الأرض؟ وما الذي يحول بين الحق وأهله من الطمع؟ فو الله لقد حشوتَ[٣] مسامعي ما أمرضني. فقال: إن أمَّنتني يا أمير المؤمنين! أعلمتك بالأمور من أصولها وإلا احتجزتُ[٤] منك واقتصرتُ على نفسي فلي فيها شاغل. قال: فأنت آمن على نفسك فقل. فقال: يا أمير المؤمنين! إن الذي دخله الطمع ، وحال بينه وبين ما ظهر في الأرض من الفساد والبغي لأنت. فقال: فكيف ذلك؟ ويحك يدخلني الطمع والصفراء[٥] والبيضاء في قبضتي والحلو والحامض عندي؟

---

(١) (٢٤٦/٣٢٨هـ) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأموي من كبار كتَّاب الأندلس والمؤلفين العرب وكتابه العقد الفريد ـ والقميص الأحمر مأخوذ منه ـ من كتب التاريخ والأدب الجليلة الممتعة التي تجمع علماً كثيراً.

(٢) أي مسح بالكف وقبَّل.

(٣) ملأت.

(٤) أي انعزلت عنك أو حبست ما عندي عنك.

(٥) أي الذهب والفضة.

قال: وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك، إن الله استرعاك[١] أمر عباده وأموالهم فأغفلت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجَصِّ والآجُرِّ وأبواباً من الحديد، وحُرَّاساً معهم السلاح، ثم سجنت نفسك عنهم فيها، وبعثت عُمَّالك في جبايات الأموال وجمعها، وأمرت أن لا يدخل عليك أحدٌ من الرجال إلا فلانٌ وفلانٌ نفراً سمَّيتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم، ولا الملهوف[٢] ولا الجائع العاري إليك، ولا أحدٌ إلا وله في هذا المال حق.

فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك، وآثرتهم على رعيَّتك، وأمرت أن لا يُحجبوا دونك تَجبي الأموال وتجمعها، قالوا هذا قد خان الله فما لنا لا نخُونه. فائتمروا[٣] أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا. ولا يخرج لك عامل إلا خوَّنوه عندك ونفوه حتى تسقط منزلته عندك.

فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظَمهم الناس، وهابوهم وصانعوهم[٤]، فكان أول من صانعهم عُمَّالُك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيَّتك. ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيَّتك لينالوا ظلم من دونهم. فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلماً وبغياً وفساداً. وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل. فإن جاء متظلِّم[٥] حيل بينك وبينه فإن أراد رفع قصَّته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك وأوقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم.

---

(١) أي جعلك راعياً.
(٢) الحزين ذهب له مال أو فُجع بحميم. المظلوم ينادي ويستغيث.
(٣) تشاوروا.
(٤) رشوا.
(٥) أي الشاكي من الظلم.

فإن جاء ذلك المتظلِّم فبلغ بطانتك[١] خبره ، سألوا صاحب المظالم أنْ لا يرفع مظلمته إليك ، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ، ويلوذ[٢] به ، ويشكو ويستغيث ، وهو يدفعه. فإذا أُجهد وأُخرج ثم ظَهَرْتَ صرخ بين يديك فيضرب ضرباً مبرحاً[٣] يكون نكالاً[٤] لغيره وأنت تنظر فما تنكر ، فما بقاء الإسلام؟

وقد كنت يا أمير المؤمنين! أُسافر إلى الصين فقدمتها مَرَّة وقد أصيب ملكهم بسمعه فبكى يوماً بكاء شديداً فحثه جلساؤه على الصبر فقال: أما إني لست أبكي للبليّة النازلة ولكني أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته ، ثم قال: أما إذا قد ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب. نادوا في الناس أن لا يلبس ثوباً أحمر إلا متظلم ، ثم كان يركب الفيل طرفي النهار وينظر هل يرى مظلوماً.

فهذا يا أمير المؤمنين! مشرك بالله بلغت رأفته بالمشركين هذا المبلغ وأنت مؤمن بالله من أهل بيت نبيه لا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك. فإن كنت إنما تجمع المال لولدك فقد أراك الله عبراً في الطفل يسقط من بطن أمه ما له على الأرض مال. وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس له ولست الذي تعطي بل الله تعالى يعطي من يشاء ما يشاء.

فإن قلت: إنما تجمع المال لشَدِّ يدِ السلطان فقد أراك الله عبراً في بني أمَيَّة ما أغنى عنهم جمعهم من الذهب وما أعدُّوا من الرجال والسلاح والكُراع[٥] حين أراد الله بهم ما أراد.

---

(١) بطانة الرجل أهله وخاصته ج بطائن.

(٢) لاذ بالقوم التجأ إليهم وداناهم وعاذ بهم.

(٣) الشديد.

(٤) العبرة.

(٥) بضم الكاف اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير.

وإن قلت: إنما تجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها فو الله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه. يا أمير المؤمنين! هل يعاقب من عصاك بأشد من القتل؟ فقال المنصور: لا فقال: فكيف تصنع بالملك الذي خوّلك[1] ملك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن بالخلود في العذاب الأليم. قد رأى ما عقد عليه قلبك، وعملته جوارحك[2]، ونظر إليه بصرك، واجترحته[3] يداك، ومشت إليه رجلاك، هل يغني عنك ما شححت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يدك، ودعاك إلى الحساب؟

قال: فبكى المنصور ثم قال: ليتني لم أُخلق ويحك كيف أحتال لنفسي؟ فقال: يا أمير المؤمنين! إن للناس أعلاماً[4] يفزعون إليهم في دينهم ويرضون بهم في دنياهم فاجعلهم بطانتك يرشدوك. وشاورهم في أمرك يسدِّدوك[5]. قال: قد بعثت إليهم فهربوا مني. قال: خافوك أن تحملهم على طريقتك ولكن افتح بابك، وسهل حجابك، وانصر المظلوم، واقمع[6] الظالم، وخذ الفيء والصدقات على حلِّها. واقسمها بالحق والعدل على أهلها وأنا ضامن عنهم أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة وجاء المؤذِّنون فآذنوه بالصلاة فصلى وعاد إلى مجلسه وطلب الرجل فلم يوجد[7]

* * *

(١) أعطاك.

(٢) جمع جارحة أي العضو من الإنسان ولا سيما اليد.

(٣) اكتسبته.

(٤) جمع عَلَم أي سيد القوم.

(٥) يرشدوك إلى الصواب.

(٦) قمعه كفتح قمعاً صرفه عما يريد وقهره وذلَّله.

(٧) العقد الفريد لابن عبد ربه.

كيفَ كان مُعَاويَة رضي الله عنه يقضي يَومه[١]

للمسعودي[٢]

كان من أخلاق معاوية أنه كان يأذن في اليوم والليلة خمس مرات ، كان إذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه . ثم يدخل فيُؤتى بمصحفه فيقرأ جزأه . ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى ، ثم يُصلّي أربع ركعات ، ثم يخرج إلى مجلسه فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم ويُحدّثونه ، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم إلى العشي . ثم يؤتى بالغداء الأصغر وهو فَضلة[٣] عشائه من جدي[٤] بارد أو فرخ وما يشبهه ثم يتحدث طويلاً . ثم يدخل منزله لما أراد ، ثم يخرج فيقول : يا غلام! أخرج الكرسي فيخرج إلى المسجد فيوضع فيسند ظهره إلى المقصورة[٥] ويجلس على الكرسي ويقوم الأحداث فيتقدم إليه

(١) معاوية بن أبي سفيان من أصحاب رسول الله ﷺ وكُتّاب الوحي ، مؤسس الدولة الأموية ومن نوابغ السياسيين الذين انجبتهم أرض الجزيرة كان عمر رضي الله عنه ينظر إليه ويقول هذا كسرى العرب ، كان جواداً وقوراً يضرب بحلمه المثل ، كان أحد كبار ملوك العالم في عصره لعشرين سنة ، توفي سنة ٦٠هـ.

(٢) هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المؤرِّخ الشهير ، نشأ في بغداد وساح البلاد إلى الهند والصين ومدا غسكر ، توفي سنة ٣٤٥ أو ٣٤٦هـ.

(٣) الفَضلة بفتح الفاء : البقية من الشيء .

(٤) ولد المعز في السنة الأولى .

(٥) أصغر من الدار ولا يدخلها إلا صاحبها ومقصورة المسجد مقام الإمام .

الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة ومن لا أحد له فيقول: أعزوه[١] ويقول: عُدي عليَّ فيقول: ابعثوا معه ويقول: صُنع بي فيقول: انظروا في أمره ، حتى إذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير. ثم يقول: ائذنوا للناس على قدر منازلهم ولا يشغلني أحد عن رد السلام. فيقال: كيف أصبح أمير المؤمنين أطال الله بقاءه؟ فيقول: بنعمة من الله ، فإذا استووا جلوساً قال: يا هؤلاء إنما سُميتم أشرافاً لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس ، ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا ، فيقوم الرجل فيقول: استُشْهِد فلان فيقول: افرضوا لولده[٢] ، ويقول آخر: غاب فلان عن أهله ، فيقول: تعاهدوهم ، أعطوهم ، اقضوا حوائجهم ، اخدموهم.

ثم يؤتى بالغداء ويحضر الكاتب فيقوم عند رأسه ويقدم الرجل فيقول له: اجلس على المائدة ، فيجلس فيمد يده فيأكل لقمتين أو ثلاثاً ، والكاتب يقرأ كتابه فيأمر فيه بأمر فيقال: يا عبد الله أعقب[٣] فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتي على أصحاب الحوائج كلهم ، وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء ثم يرفع الغداء ويقال للناس: أجيزوا[٤] فينصرفون فيدخل منزله فلا يطمع فيه طامع ، حتى ينادى بالظهر فيخرج فيصلي ثم يدخل فيصلي أربع ركعات ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة فإن كان الوقت وقت شتاء أتاهم بزاد الحاج[٥] من الأخبصة[٦]

---

(١) أعزَّه جعله عزيزاً.

(٢) فرض له في الديوان أي رسم له فيه شيئاً معلوماً وأثبت رزقه فيه.

(٣) عَقبَ وأعقب فلان فلاناً ومكانَ فلانٍ خَلَفَه وجاء بعدة.

(٤) أجاز الموضع خلَّفه وقطعه.

(٥) نوع من الأطعمة.

(٦) جمع خبيص وهو الحلوى

اليابسة والخشكنانج[١] والأقراص المعجونة باللبن والسكر من دقيق السميد[٢] والكعك[٣] المنضَّد[٤] والفواكه اليابسة ، وإن كان وقت صيف أتاهم بالفواكه الرطبة ، ويدخل إليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم ويجلس إلى العصر ثم يخرج فيصلي العصر ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع ، حتى إذا كان في آخر أوقات العصر خرج فجلس على سريره ويؤذن للناس على منازلهم فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ما ينادى بالمغرب ولا ينادى له بأصحاب الحوائج. ثم يرفع العشاء فينادى بالمغرب فيخرج فيصليها ، ثم يصلي بعدها أربع ركعات ويقرأ في كل ركعة خمسين آية ، يجهر تارة ويخافت أخرى. ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادي بالعشاء الآخرة ، فيخرج فيصلي ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية فيؤامره الوزراء فيما أراد وأصدر من ليلتهم ويستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وسائر ملوك الأمم وحروبها ومكائدها وسياستها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ثم تأتيه الطرف[٥] الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ثم يدخل فينام ثلث الليل ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكائد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتَّبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ، ثم يخرج فيصلي الصبح ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم[٦].

* * *

(١) معرب لعله خشك نان.

(٢) الدقيق الأبيض.

(٣) خبز يعمل مستديراً من الدقيق والحليب والسكر أو غير ذلك والكلمة من الدخيل.

(٤) المضموم بعضه إلى بعض.

(٥) الهدايا الغريبة.

(٦) مروج الذهب للمسعودي.

استِقامة الإمام أحمد بن حنبل[1] وَكرَمه

.. لابن حبان البستي[2]

(١) هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال ، الإمام أبو عبد الله الشيباني الذهلي ، إمام المسلمين ومن حبّه والدفاع عنه شعار أهل الدين ، ولد في بغداد في ربيع الأول سنة ١٦٤هـ ، ونشأ على الصبر والقناعة ، وحفظ القرآن في صباه ، واتجه إلى الحديث اتجاهاً كلياً ، ورحل إلى بلاد كثيرة ، والتقى في رحلته إلى الحجاز مع الإمام الشافعي ، وأخذ عنه الفقه وأصوله ، ولقيه بعد ذلك ببغداد ، وعلا شأنه في الحديث وعلم الرواية ، حتى بلغ مبلغ الإمامة ، ورتبة الاجتهاد ، فكان يحفظ ألف ألف حديث ، وجلس للتّدريس والفتيا ، وكان إقبال الناس على مجالسه عظيماً ، وتخرّج عليه كبار الأئمة مثل الإمام البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وأبي داود.

وكان آية من آيات الله في الزهد والقناعة والتوكل ، والورع ، والتواضع ، والعزوف عن أموال السلطان ، ومكارم الأخلاق ، امتحن في الله ، وفي الدفاع عن السنة والعقيدة الصحيحة في فتنة الاعتزال أيام المعتصم ، وعذّب ما لم يعذّب إلاّ أفراد قلائل ، فصبر صبر الأبطال ، وثبت ثبات الجبال ، ثم امتحن بالصلات والعطايا ، والإجلال والتكريم أيام المتوكّل ، فاستقام استقامة الربّانيين ، والمتوكلين الزاهدين ، وانتصر للسنة ، وذاد عن الإسلام ، حتى قال علي بن المديني أحد أئمة الحديث في عصره : «إن الله أعزّ هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم الردّة ، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة» وقال قتيبة : «إذا رأيت الرجل يحبّ أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة».

كانت وفاته سنة ٢٤١هـ ، وصلّى عليه جمع كثير ، قال عبد الوهاب الورّاق ما بلغنا أن جمعاً في الجاهلية والإسلام مثله ، ومن مؤلفاته الشهيرة مسنده.

(٢) هو أبو حاتم محمد بن حبان البستي ، هو عربي الأصل ، نشأ في بست ـ مدينة بين سجستان وغزنين وهراة ـ وكان مكثراً من الحديث بالرحلة والشيوخ ، كتَبَ عن ألف شيخ ، =

حكى ابن حبان البستي عن إسحاق بن أحمد القطان البغدادي بتستر ، قال: كان لنا جار ببغداد كنا نسميه طبيب القراء ، كان يتفقد الصالحين ويتعاهدهم ، فقال لي: دخلت يوماً على أحمد بن حنبل ، فإذا هو مغموم مكروب ، فقلت: ما لك يا أبا عبد الله؟ قال: خير! قلت: و مع الخير؟ قال: امتُحنت بتلك المحنة حتى ضُربت ثم عالجوني وبرئت ، إلا أنه بقي في صلبي موضع يوجعني ، هو أشدّ عليّ من ذلك الضرب ، قال: قلت: اكشف لي عن صلبك ، فكشف لي ، فلم أر فيه إلا أثر الضرب فقط ، فقلت: ليس لي بذي معرفة ، ولكن سأستخبر عن هذا ، قال: فخرجت من عنده حتى أتيت صاحب الحبس ، وكان بيني وبينه فضل معرفة ، فقلت له: أدخلُ الحبسَ في حاجة؟ قال: أدخل ، فدخلت وجمعت فتيانهم ، وكان معي دُريهمات فرقتها عليهم وجعلت أحدثهم حتى أنسوا بي ، ثم قلت: من منكم ضرب أكثر؟ ، قال: فأخذوا يتفاخرون حتى اتفقوا على واحد منهم أنه أكثرهم ضرباً ، وأشدهم صبراً ، قال: فقلت له: أسألك عن شيء ، قال: هات ، فقلت: شيخ ضعيف ليس صناعته كصناعتكم ، ضرب على الجوع للقتل سياطاً يسيرة ، إلاّ أنه لم يمت ، وعالجوه وبرأ ، إلا أنّ موضعاً في صلبه يوجعه وجعاً ليس له عليه صبر ، قال: فضحك ، فقلت: مالك؟ ، قال الذي عالجه كان حائكاً وقلت: أيش الخبر؟ ، قال: ترك في صلبه قطعة لحم ميتة لم يقلعها ، قلت: فما

= ولي القضاء بسمر قند ، ثم بنسا ، قتله الخليفة بتهمة اتهم بها وهو في الثمانين من عمره ، وقيل مات حتف أنفه سنة ٣٥٤هـ ، وكان عالماً بالمتون والأسانيد ، وكان وعاء من أوعية العلم في اللغة والفقه ، والحديث والوعظ ، عارفاً بالطب والنجوم والكلام ، طبع من كتبه «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» وهذا الفصل مأخوذ منه ، والقصة كما تدل على استقامة الإمام أحمد بن حنبل وصبره ، وكرم خلقه ، وحبه لرسول الله ﷺ وقرابته ، أنموذج طريف للغة العربية الفصحى ، والتعبير البليغ الذي كان منتشراً في القرن الثالث الهجري في بغداد قبل أن يفسده التكلف والعجمة .

الحيلة؟ قال: : يُبَطُّ[1] صلبه وتؤخذ تلك القطعة ويرمى بها ، وإن تُركت بلغت إلى فؤاده فقتلته . قال: فخرجت من الحبس فدخلت على أحمد بن حنبل فوجدته على حالته ، فقصصت عليه القصة ، قال: ومن يبطه؟ ، قلت أنا ، قال: أو تفعل؟ ، قلت: نعم ، قال: فقام ودخل البيت ثم خرج وبيده مخدّتان ، وعلى كفه فوطة[2] ، فوضع إحداهما لي والأخرى له ، ثم قعد عليها ، وقال: استخر الله ، فكشفت الفوطة عن صلبه وقلت: أرني موضع الوجع ، قال: ضع إصبعك عليه ، فإني أخبرك به ، فوضعت إصبعي وقلت: ههنا موضع الوجع؟ قال: ههنا أحمد الله على العافية ، فقلت ههنا؟ قال: ههنا أحمد الله على العافية، فقلت ههنا؟ قال: ههنا أسأل الله العافية ، قال: فعلمت أنه موضع الوجع. قال: فوضعت المبضع[3] عليه ، فلمّا أحسّ بحرارة المبضع وضع يده على رأسه وجعل يقول: اللهم اغفر للمعتصم ، حتى بططته ، فأخذت القطعة الميتة ورميت بها وشددت العصابه[4] عليه ، وهو لا يزيد على قوله: اللهم اغفر للمعتصم ، قال: ثم هدأ وسكن. ثم قال كأني كنت معلقاً فأحدرت ، قلت ، يا أبا عبد الله ، إن الناس إذا امتُحنوا محنةً دَعَوْا على مَنْ ظلمهم ، ورأيتك تدعو للمعتصم ، قال: إنّي فكرت فيما تقول ، وهو ابن عم رسول الله ﷺ ، فكرهت أن آتي يوم القيامة وبيني وبين أحد من قرابته خصومة ، وهو منّي في حِلٍّ[5] .

* * *

---

(١) بط يبط بطاً ، الجرحَ شقه .

(٢) الفوطة ، ما يأتزر به الخدم ج فوط ، وعند العامة: هي قطعة تنشّف بها الأيدي ، وتسمى أيضاً المنشفة .

(٣) المبضع: ج مباضع ، وهو آلة يشق بها الجلد ، وما شاكله .

(٤) العصابة: ما عصب به من منديل ونحوه ، ج عصائب .

(٥) روضة العقلاء .

أشعَب وَالبخيل

لأبي الفرج الأصبهاني[١]

حدث أشعب[٢] قال: ولي المدينة رجل من ولد عامر بن لُؤي وكان أبخل الناس وأنكدهم[٣]. وأغراه الله بي يطلبني في ليله ونهاره . فإن هربت منه هجم على منزلي بالشُّرَط[٤] ، وإن كنت في موضع بعث إلى مَنْ أكون معه أو عنده يطلبني منه ، فيطالبني بأن أحدِّثه وأضحكه . ثم لا أسكت ولا أنام ، ولا يُطعِمني ولا يعطيني شيئاً. فلقيت منه جهداً عظيماً وبلاءً شديداً. وحضر الحج فقال لي: يا أشعب كن معي. فقلت بأبي أنت وأمي ، أنا عليل ، وليست لي نية في الحج. فقال: عليه وعليه

---

(١) هو أبو الفرج علي بن الحسين الأموي الشيعي العلامة الكاتب صاحب كتاب الأغاني ، كان اخبارياً نسابة شاعراً ، وكتاب الأغاني ذخيرة من ذخائر الأدب العربي ، ولولاه لضاع أدب وافر ولأصبحت نواح للغة العربية جميلة مطوية على غرّها ولحُرمنا تلك اللغة العذبة التي كان يتكلم بها أهل اللغة في منازلهم وعلى موائدهم وفي مواضع انبساطهم ، والكتاب على ما فيه من متعة أدبية ، وثروة لغوية ، تصوير قائم للمجتمع الإسلامي في القرون المشهود لها بالخير ، كأن لم يكن فيه إلا اللهو والمجون ، والتمتع بالحياة ، قد يشكك في حسن نيّة صاحبه وسلامة عقيدته ، توفي سنة ٣٥٦هـ ببغداد.

(٢) هو ابن الزبير واسمه شعيب وكنيته أبو العلاء ، وُلد سنة تسع من الهجرة ونشأ بالمدينة وكان من القراء حسن الصوت وكان مليحاً صاحب نوادر ، وكان شديد الطمع كثير الطلب يضرب به المثل ، وله نوادر وحكايات.

(٣) انكد المشؤوم العسر.

(٤) جمع شرطي (بضم الشين وسكون الراء) طائفة من أعوان الولاة وهم في أيامنا رؤساء الضابطة (البوليس).

وقال: إن الكعبة بيت النار، لئن لم تخرج معي لأودعنك الحبس حتى أقدم. فخرجت معه مكرهاً، فلما نزلنا منزلاً أظهر أنه صائم ونام حتى تشاغلت. ثم أكل ما في سفرته وأمر غلامه أن يطعمني رغيفين بملح. فجئت وعندي أنه صائم ولم أزل أنتظر المغرب أتوقع إفطاره. فلما صُلِّيَت المغرب قلت لغلامه: ما يُنتَظر بالأكل؟ قال: قد أكل منذ زمان. قلت: أو لم يكن صائماً؟ قال: لا. قلت: أفأطوِى[1] أنا؟ قال: قد أعدَّ لك ما تأكله فكُلْ. وأخرج إليَّ الرغيفين والملح، فأكلتهما وبت ميتاً جوعاً، وأصبحت فسرنا حتى نزلنا المنزل فقال لغلامه: ابتعْ لنا لحماً بدرهم. فابتاعه، فقال: كبِّب لي قطعاً. ففعل. فأكله ونصب القدر. فلما نغرت[2] أغرف لي فيها قطعاً ففعل فأكلها ثم قال: اطرح فيها دُقَّة[3] وأطعمني منها. ففعل. ثم قال: الق توابلها[4] وأطعمني منها. ففعل، وأنا جالس أنظر إليه لا يدعوني. فلما استوفى اللحمَ كلَّه قال: يا غلام، أطعم أشعبَ. ورمى إليَّ برغيفين، فجئت إلى القدر وإذا ليس فيها إلا مرق وعظام. فأكلت الرغيفين. وأخرج له جراباً فيه فاكهة يابسة، فأخذ منها حُفنة[5] فأكلها، وبقي في كفه كف لوز بقشره، ولم يكن له فيه حيلة. فرمى به إليَّ وقال: كل هذا يا أشعب. فذهبتُ أكسر واحدة منها فإذا بضرسي قد انكسرت منه قطعة فسقطت بين يديَّ. وتباعدتُ أطلبُ حَجَراً أكسرْ به فوجدتُه فضربت به لوزة فطفرت[6] ـ يعلم الله ـ مقدار رمية حجر. وعدوت في طلبها فبينا أنا في ذلك إذ أقبل بنو مصعب ـ يعني ابن

---

(١) طوى جاع ولم يأكل شيئاً، بابه سمع.

(٢) نغرت فارت، بابه ضرب وسمع وفتح.

(٣) الملح المبزَّر وهو ما خلط بالملح من الأبزار.

(٤) جمع تابل أي ما يطيب به من الغذاء من الأشياء اليابسة كالفلفل والكمُّون وأمثالهما.

(٥) ملء الكفين.

(٦) وثبت بابه ضرب.

ثابت وإخوته ـ يلبُّون بتلك الحلوق الجَهوَرية[١] . فصِحت بهم . الغوثَ

الغوثَ العياذُ بالله وبكم يا آل الزبير ، الحقوني أدركوني . فركضوا إليَّ فلما رأوني قالوا: أشعب ما لك ويلك؟ قلت: خذوني معكم تخلِّصوني من الموت . فحملوني معهم فجعلت أرفرف[٢] بيديَّ كما يفعل الفرخ إذا طلب الزَّق[٣] من أبويه . فقالوا: ما لكَ ويلكَ؟ قال: ليس هذا وقت الحديث ، زُقُّوني[٤] مما معكم قد مت ضرّاً وجوعاً منذ ثلاث قال: فأطعموني حتى تراجعت نفسي ، وحملوني معهم في محمل ثم قالوا: أخبرنا بقصّتك فحدثتُهم وأريتُهم ضِرْسي المكسورة فجعلوا يضحكون ويُصفِّقون وقالوا: ويلك من أين وقعتَ على هذا؟ هذا من أبخل خلق الله وأدنئهم نفساً . فحلفت بالطلاق أن لا أدخل المدينةَ ما دام له بها سلطان ، فلم أدخلها حتى عُزل[٥]

* * *

(١) المرتفعة العالية .
(٢) رفرف الطائر بسط جناحيه وحرّكهما .
(٣) ما يطعم الطائر فرخه بمنقاره .
(٤) زقّ الطائر فرخه أطعمه بمنقاره أي أسعفوني بشيء يسد رمقي .
(٥) الأغاني .

رسَالـة عِتـاب

لأبي بكر الخوارزمي[١]

كتابي وقد خرجت من البلاء خروجَ السيف من الجلاء ، وبروز البدر من الظلماء ، وقد فارقتني المحنة وهي مفارق لا يشتاق إليه ، وودعتني وهي مودع لا يُبكى عليه ، والحمد لله تعالى على محنة يجلّيها ، ونعمة ينيلها[٢] ويوليها[٣].

كنت أتوقع أمس كتاب سيدي بالتسلية ، واليوم بالتهنئة ، فلم يكاتبني في أيام البرحاء[٤] بأنّها غمته ، ولا في أيام الرخاء[٥] بأنها سرَّته ، وقد

(١) (٣٢٣/ ٣٨٣هـ) هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي أصله من طبرستان وَوُلِدَ بخوارزم ونشأ بها ، كان من المتكسّبين بالأدب ، الذين هاجروا وجاهدوا في سبيله ، اتصل بسيف الدولة والصاحب بن عبّاد وعضد الدو لة. كان بحراً في الأدب راوية لأشعار العرب وأخبارها وأيامها نسّابة لغوياً واقفاً على مناهج كلام العرب وخواص تراكيب اللغة ، ولكنه من طائفة الأدباء بالجبر الذين امتلكوا ناصية البيان وتصرَّفوا في ضروب الكلام بكثرة ما حفظوا وبطول ما مارسوا ، بغير قلم سيّال ، وبيان سلسال ، وطبع ريان وذوق رقيق ، ورسائله شاهدة بذلك ، ولذلك أخفق في مساجلة بديع الزمان الهمذاني وهو الأديب بالطبع إخفاقاً عظيماً وكان ذلك سبب موته ، وشعره أحسن من نثره مع أنه لم يشتهر إلا برسائله السائرة الطائرة في الآفاق.

(٢) يعطيها.

(٣) أولاه معروفاً أي صنعه.

(٤) الشدة والأذى.

(٥) بالفتح سعة العيش.

اعتذرت عنه إلى نفسي وجادلت عنه قلبي فقلت: ـ أما إخلاله[١] بالأولى فلأنه شغله الاهتمام بها عن الكلام فيها ، وأما تغافله عن الأخرى فلأنه أحب أن يوفِّر[٢] عليَّ مرتبة السابق إلى الابتداء ، ويقتصر بنفسه على محل الاقتداء لتكون نعم الله تعالى موقوفة من كل جهة عليَّ ، ومحفوفة[٣] من كل رتبة بي.

فإن كنت أحسنت الاعتذار عن سيدي فليعرف لي حق الإحسان ، وليكتب لي بالاستحسان ، وإن كنت أسأت فليخبرني بعذره فإنه أعرف مني بسرِّه ، وليرض مني بأني حاربت عنه قلبي واعتذرت عن ذنبه حتى كأنه ذنبي وقلت: يا نفس! اعذري أخاك وخذي منه ما أعطاك فمع اليوم غد والعود أحمد[٤].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخل بالشيء قصَّر فيه. تركه ولم يأت به.

(٢) يكثِّر.

(٣) حفَّه كنصر وضرب حفًّا بكذا أحاطه به.

(٤) رسائل أبي بكر الخوارزمي.

حَـديـثُ النـاس

لأبي حيان التوحيدي[1]

حدثني شيخ من الصوفية في هذه الأيام قال: كنت بنيسابور سنة سبعين وثلاثمائة ، وقد اشتعلت خراسان بالفتنة وتبلبلت[2] دولة آل سامان بالجور وطول المدة ، فلجأ محمد بن إبراهيم صاحب الجيش إلى قايين وهي حصنه ومعقله ، وورد أبو العباس صاحب جيش آل سامان نيسابور بعدة عظيمة وعدة عميمة وزينة فاخرة وهيئة باهرة وغلا السعر وأخيفت السبل وكثر الإرجاف وساءت الظنون وضجت العامة والتبس الرأي

(١) هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي، وُلد على الغالب في أواخر العقد الثاني من القرن الرابع ونشأ في بغداد، وجاء مفنناً في العلوم في النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة. كان مقتراً عليه في الرزق، وكان يعيش بالوراقة أو النسخ في بغداد مدة طويلة، ولم يزل في ضيق وجفاء من المعاصرين حتى أحرق كتبه في آخر عمره لقلة جدواها بزعمه وضناً بها على من لا يعرف قدرها بعدَ موته.
قال الأستاذ كرد علي «كتب أبي حيان أسئلة وأجوبة وروايات ومساجلات ومحاضرات ومحاضر جلسات، وتقريع وتقريظ، ونقد ولمز ووعظ وإرشاد، وكل صفحة منها تدل على علو كعبه في العلم والفهم، أنزلته منازل أعاظم المنشئين والمؤلفين، صور فيها العلم والأدب في أيامه أحسن صورة. . إنشاؤه طبقة واحدة لم يتعمل في ما يكتب، ولا عني بالتنميق والتجسير، والصقل والتطرية. . كأنه تلقى باليمين ذاك الأسلوب الذي كاد يموت لموت الجاحظ، وأتمه بما حدث بعد أبي عثمان من فنون القول وضروب المعارف». ومن أشهر كتبه كتاب الصداقة والصديق، وكتاب المقابسات، وكتاب الإمتاع والمؤانسة وكتاب البصائر والذخائر، ومثالب الوزيرين، مات بشيراز سنة ٤١٤ هـ.

(٢) فسدت وهاجت.

وانقطع الأمل ونبح كل كلب من كل زاوية وزأر كل أسد من كل أجمة وضبح[١] كل ثعلب من كل تلعة[٢].

قال: وكنا جماعة غرباء نأوي إلى دويرة الصوفية لا نبرحها فتارة نقرأ، وتارة نصلي، وتارة ننام، وتارة نهذي، والجوع يعمل عمله، ونخوض في حديث آل سامان والوارد من جهتهم إلى هذا المكان، ولا قدرة لنا على السياحة لانسداد الطرق وتخطف الناس للناس وشمول الخوف وغلبة الرعب، وكان البلد يتّقد ناراً بالسؤال والتعرف والإرجاف بالصدق والكذب، وما يقال بالهوى والعصبية، فضاقت صدورنا وخبثت سرائرنا واستولى علينا الوسواس. وقلنا ليلة: ما ترون يا صحابنا ما دُفعنا إليه من هذه الأحوال الكريهة، كأنا والله أصحاب نعم وأرباب ضياع، نخاف عليها الغارة والنهب وما علينا من ولاية زيد وعزل عمرو وهلاك بكر ونجاة بشر، نحن قوم رضينا في هذه الدنيا العسيرة وهذه الحياة القصيرة بكسرة يابسة وخرقة بالية وزاوية من المسجد مع العافية من بلايا طلاب الدنيا. فما هذا الذي يعترينا من هذه الأحاديث التي ليس لنا فيها ناقة ولا جمل ولا حظ ولا أمل قوموا بنا غداً حتى نزور أبا زكرياء الزاهد ونظل نهارنا عنده لاهين عما نحن فيه ساكنين معه مقتدين به، فاتفق رأينا على ذلك. فغدونا وصرنا إلى أبي زكرياء الزاهد فلما دخلنا رحّب بنا وفرح بزيارتنا وقال: ما أشوقني إليكم وما ألهفني عليكم! الحمد لله الذي جمعني وإياكم في مقام واحد، حدثوني ما الذي سمعتم وماذا بلغكم من حديث الناس وأمر هؤلاء السلاطين؟ فرِّجوا عني وقولوا لي ما عندكم فلا تكتموني شيئاً فما لي والله مرعى في هذه الأيام إلا ما اتصل بحديثهم واقترن بخبرهم، فلما ورد علينا من هذا الزاهد العابد ما ورد دهشنا واستوحشنا وقلنا في أنفسنا انظروا من أي شيء هربنا،

---

(١) صوّت الثعلب وصاح.

(٢) ما علا من الأرض.

وبأي شيء علقنا وبأي داهية دُهينا قال: فخففنا الحديث وانسللنا فلما خرجنا قلنا: أرأيتم ما بلينا به وما وقعنا عليه؟ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الصافات: ١٠٦]. ميلوا بنا إلى أبي عمرو الزاهد فله فضل وعبادة وعلم وتفرد في صومعته[١] حتى نقيم عنده إلى آخر النهار فقد نبا بنا المكان الأول، وبطل قصدنا فيما عزمنا عليه من العمل فمشينا إلى أبي عمرو الزاهد واستأذنا فأذن لنا ووصلنا إليه فسرَّ بحضورنا، وهشَّ لرؤيتنا وابتهج بقصدنا وأعظم زيارتنا، ثم قال: يا أصحابنا ما عندكم من حديث الناس؟ فقد والله طال عطشي إلى شيء أسمعه ولم يدخل علي اليوم أحد فأستخبره وإن أذني لدى الباب لأسمع قرعة أو أعرف حادثة فهاتوا ما عندكم وما معكم وقصوا علي القصة بفصها[٢] ونصها ودعوا التورية والكناية واذكروا الغث والسمين فإن الحديث هكذا يطيب ولولا العظم ما طاب اللحم ولولا النوى ما حلا التمر ولولا القشر لم يوجد اللب، فعجبنا من هذا الزاهد الثاني أكثر من عجبنا بالزاهد الأول وخاطفناه الحديث وودعناه وخرجنا، وأقبل بعضنا على بعض يقول: أرأيتم أظرف من أمرنا وأغرب من شأننا؟ انظروا من أي شيء كان تعريجنا[٣] ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾[هود: ٧٢] وتلددنا[٤] وتبلدنا[٥]. وقلنا يا أصحابنا: انطلقوا إلى أبي الحسن الضرير وإن كان مضربه[٦] بعيداً فإنا لا نجد سكوننا إلا معه ولا نظفر بضالتنا إلا عنده لزهده وعبادته وتوحده وشغله بنفسه مع زمانته[٧] في بصره وورعه وقلة فكره في الدنيا وأهلها، وطوينا

---

(١) جبل أو مكان مرتفع يسكنه المتعبد قصد الانفراد.

(٢) أصل الأمر وحقيقته.

(٣) عرَّج وقف ولبث.

(٤) تحيرنا.

(٥) تبلَّد أصبح بليداً أو تظاهر بالبلادة.

(٦) بيته.

(٧) الزمانة العاهة وعدم بعض الأعضاء.

الأرض إليه ودخلنا عليه وجلسنا حواليه في مسجده ولما سَمعَ بنا أقبل على كل واحد منا يلمسه بيده ويرحب به ويدعو له ويقرب ، فلما انتهى أقبل علينا وقال: أمن السماء نزلتم عليَّ؟ والله لكأني وجدت بكم مأمولي وأحرزت غاية سؤلي قولوا لي غير محتشمين[١]: ما عندكم من أحاديث الناس؟ وما عزم عليه هذا الوارد؟ وما يقال في أمر ذلك الهارب إلى قايين وما الشائع من الأخبار؟ وما الذي يتهامس به ناس دون ناس؟ وما يقع في هواجسكم[٢] ويستبق إلى نفوسكم؟ فإنكم بُرُد الآفاق وجوالة الأرض ولقَّاطة الكلام. ويتساقط إليكم من الأقطار ما يتعذر على عظماء الملوك وكبراء الناس: فورد علينا من هذا الإنسان ما أنسى الأول والثاني ، ومما زاد في عجبنا أنا كنا نعده في طبقة فوق طبقات جميع الناس فخففنا الحديث معه وودعناه وخنسنا[٣] من عنده وطفقنا نتلاوم على زيارتنا لهؤلاء القوم لما رأينا منهم وظهر لنا من حالهم. . وازدريناهم[٤] وانقلبنا متوجهين إلى دويرتنا التي غدونا منها مستطرقين[٥] كالِّين[٦] فلقينا في الطريق شيخاً من الحكماء يقال له أبو الحسن العامري وله كتاب في التصوف قد شحنه بعلمه وإشارتنا وكان من الجوالين الذين نقبوا في البلاد واطلعوا على أسرار الله في العباد فقال لنا: من أين درجتم[٧] ومن قصدتم؟ فأجلسناه في مسجد وعصبنا[٨] حوله وقصصنا عليه قصتنا من أولها إلى آخرها ولم نحذف منها حرفاً فقال لنا في طيٍّ هذه الحال الطارئة

(١) احتشم، انقبض أو استحيا.
(٢) خواطركم.
(٣) تأخَّرنا.
(٤) احتقرناهم.
(٥) استطرق الشيء اتخذه طريقاً.
(٦) متعبين.
(٧) درج مشى.
(٨) عصب القوم به اجتمعوا وأحاطوا به.

غيب لا تقفون عليه وسر لا تهتدون إليه وإنما غركم ظنكم بالزهاد وقلتم لا ينبغي أن يكون الخبر عنهم كالخبر عن العامة ، لأنهم الخاصة ومن الخاصة خاصة الخاصة لأنهم بالله يلوذون وإياه يعبدون وعليه يتوكلون وإليه يرجعون ومن أجله يتهالكون وبه يتمالكون ، قلنا له: فإن رأيت يا معلم الخير أن تكشف عنا هذا الغطاء وترفع هذا الستر وتعرفنا منه ما وهب الله لك من هذا الغيب لنكون شاكرين وتكون من المشكورين ، فقال: نعم أما العامة ، فإنها تلهج بحديث كبرائها وساستها ، لما ترجو من رخاء العيش وطيب الحياة وسعة المال ودرور[١] المنافع واتصال الجلب ونفاق السوق وتضاعف الربح. فأما هذه الطائفة العارفة بالله العاملة لله فانها مولَعة أيضاً بحديث الأمراء والجبابرة العظماء لتقف على تصاريف قدرة الله فيهم وجريان أحكامه عليهم ونفوذ مشيئته في محابهم ومكارههم في حال النعمة عليهم والانتقام منهم ألا ترونه قال جل ثناؤه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾[٢] وبهذا الاعتبار يستنبطون خوافي حكمته ويطلعون على تتابع نعمته وغرائب نقمته وههنا يعلمون أن كل ملك سوى ملك الله زائل وكل نعيم غير نعيم الجنة حائل[٣] ويصير هذا كله سبباً قوياً لهم في الضرع إلى الله واللياذ بالله والخشوع لله والتوكل على الله وينبعثون به من حران[٤] الإباء إلى انقياد الإجابة ويتنبهون من رقدة الغفلة ويكتحلون باليقظة من سنة السهو والبطالة ويجدون في أخذ العتاد واكتساب الزاد إلى المعاد ويعملون في الخلاص من هذا المكان الحرج بالمكاره المحفوف بالرزايا الذي لم يفلح فيه أحد إلا بعد

---

(١) - سيلانها وكثرتها.

(٢) أبلس انكسر وحزن ويئس من رحمة الله.

(٣) حائل أي متغيّر.

(٤) حرن بالمكان لم يبرح منه.

أن هدمه وثلمه[١] وهرب منه ورحل عنه إلى محل لا داء فيه ولا غائلة ، ساكنة خالد ومقيمه مطمئن والفائز به منعم والواصل إليه مكرم وبين الخاصة والعامة في هذه الحال وفي غيرها فرق يضح لمن رفع الله طرفه إليه وفتح باب السر فيه عليه وقد يتشابه الرجلان في فعل. وأحدهما مذموم والآخر محمود وقد رأينا مصلياً إلى القبلة وقلبه معلّقٌ بإخلاص العبادة وآخر إلى جانبه أيضاً يصلّي إلى القبلة وقلبه في طرِّ[٢] ما في كُمِّ الآخر فلا تنظروا من كل شيء إلى ظاهره إلا بعد أن تصلوا بنظركم إلى باطنه فإن الباطن إذا واطأ الظاهر كان توحداً وإذا خالفه إلى الحق كان وحدة وإذا خالفه إلى الباطل كان ضلالة وهذه المقامات مرتبة لأصحابها وموقوفة على أربابها ليس لغير أهلها فيها نفس ولا لغير مستحقّها منها قبس.

قال الشيخ الصوفي: فوالله ما زال ذلك الحكيم يحشو آذاننا بهذه وما أشبهها ويملأ صدورنا بما عنده حتى سررنا وانصرفنا إلى متعشانا وقد استفدنا على يأس منا فائدة عظيمة لو تمنيناها بالغرم الثقيل والسعي الطويل لكان الربح معنا والزيادة في أيدينا[٣].

❊ ❊ ❊

(١) أحدث فيه خللاً.

(٢) الطر الشق والقطع والمراد السرقة والطراورن الذين يسرقون ما في جيوب الناس.

(٣) الامتاع والمؤانسة.

فـي سَبيـل السَّعَـادة واليِقيـن

للإمام الغزالـي[١] رحمة الله عليه

وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي[٢] عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، و أن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال ، والهرب عن الشواغل والعلائق.

ثم لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس[٣] في العلائق وقد أحدقت[٤] بي من الجوانب ، ولاحظت أعمالي وأحسنها التدريس والتعليم ، فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مُهمة ، و لا نافعة في طريق الآخرة. ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى بل باعثها

---

(١) أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الملقب بحجة الإسلام زين الدين الطوسي. من أئمة المسلمين وأعلام العلم والدين. وُلد سنة ٤٥٠ هـ وقرأ على علماء بلده وعلى إمام الحرمين وتخرَّج في مدة قريبة، ووصل إلى أقصى ما يصل إليه عالم من المجد والسمو وانتهت إليه الرئاسة العلمية في بغداد ثم اعتزل التدريس وخرج في طلب السعادة واليقين حتى نالهما ثم عكف على العبادة والتربية وإفادة المسلمين، من أشهر كتبه إحياء علوم الدين، وأسلوب الغزالي طبعي قوي يتدفق بالحياة، توفي سنة ٥٠٥ هـ.

(٢) التباعد.

(٣) داخل.

(٤) أحاطت.

ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت أني على شفا [١] جُرُف[٢] هار[٣] وأني قد أشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال ، فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمِّم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً وأحل العزم يوماً وأقدِّم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى لا تصفو لي رغبة في طلب الآخرة بكرة إلا ويحمل عليه جند الشهوة حملة فيفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام ومنادي الإيمان ينادي الرحيل الرحيلَ ، فلم يبق من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العمل والعلم رياء وتخييل ، فإن لم تستعدّ الآن للآخرة فمتى تستعد ، وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟ فبعد ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار ثم يعود الشيطان ويقول هذه حالة عارضة وإياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال ، وإن أذعنتَ لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص[٤] والأمر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ربما التفتت إليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة فلم أزل أتردَّد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر ، أولها رجب سنة ثمان وثمانين و أربعمائة، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار إذ أقفل الله على لساني حتى اعتُقِل[٥] عن التدريس فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب مختلفة ، وكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة ولا أستطيعها البتة . ثم أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب بطلت معه قوة الهضم ومراءة[٦] الطعام والشراب ،

---

(١) حرف كل شيء وحدُّه.

(٢) بضمتين ج جِرَفة وبسكون الراء ج أجرُف الجانب الذي أكله الماء من حاشية النهر.

(٣) هار يهور هوراً البناء انهدم فهو هائر ويقال أيضاً هارِ على القلب كما في شاكي السلاح.

(٤) مرادف للتكدير.

(٥) اعتُقِل لسانه أي حُبِس عن الكلام.

(٦) أي الهناء.

فكان لا ينساغ لي شربة ولا تنهضم لي لقمة وتعدَّى إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم عن العلاج وقالوا هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم.

ثم لما أحسست بعجزي وسقط بالكلية اختياري التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أورِّي[1] في نفسي سفر الشام حذراً من أن يطَّلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي في المقام بالشام، فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبداً، واستهدفت[2] لأئمة أهل العراق كافة إذ لم يكن فيهم من يجوِّز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينياً إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين وكان ذلك مبلغهم من العلم.

ثم ارتبك[3] الناس في الاستنباطات وظن من بعد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة وأما من قرب من الولاة فكان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي والانكباب عليَّ وإعراضي عنهم وعن الالتفات إلى قولهم فيقولون هذا أمر سماوي وليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة العلم.

ففارقت بغداد وفرَّقت ما كان معي من المال ولم أدخر إلا قدر الكفاف[4] وقوت الأطفال ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفاً على المسلمين، فلم أر في العالم مالاً يأخذه العالم لعياله أصلح منه. ثم دخلت الشام وأقمت به قريباً من سنتين لا شغل لي إلا العزلة

---

(١) أي أريده وأظهر غيره.

(٢) أي صرت غرضاً يرمي عليَّ بالأقاويل.

(٣) اضطرب.

(٤) ما كفى عن الناس وأغنى.

والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالاً بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصَّلته من علم الصوفية.

فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسي. ثم رحلت منها إلى بيت المقدس أدخل كل يوم الصخرة وأغلق بابها على نفسي. ثم تحركت فيَّ داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله تعالى عليه السلام بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه فسِرت إلى الحجاز.

ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه، وآثرت العزلة به أيضاً حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعاش تغيّر في وجه المراد، وتشوش صفوة الخلوة، وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرِّقة لكني مع ذلك لا أقطع منها فتدفعني عنها العوائق وأعود إليها.

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين، وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيِّروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به[1].

* * *

(١) المنقذ من الضَّلال للغزَّالي.

وفـاة السُلطان صـلاح الدّيـن الأيّـوبي[١]

للقاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد[٢]

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية كانت في باطنه أكثر من ظاهره ، وأصبح في يوم السبت سادس عشر صفر سنة تسع وثمانين متكسِّلاً عليه أثر الحمى ، ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت أنا والقاضي الفاضل[٣] ، ودخل ولده الملك

---

(١) هو أبو المظفر يوسف بن أيُّوب بن شادي الملقَّب بالملك الناصر، الذي نصر الله به الإسلام والمسلمين وبيَّض وجوههم وردَّ غارة الصليبيين واستردَّ بيت المقدس بعدما بقي في أيدي النصارى تسعين سنة وخلَّص مصر من دولة العبيديين الملاحدة إلى غير ذلك من المفاخر والمآثر التي قلما اتفقت لغيره بعد عصر الراشدين، وُلِد سنة ٥٣٧ هـ ومات اليوم السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ هـ، اقرأ ترجمته مفصَّلة في وفيات الأعيان لابن خلكان.

(٢) هو أبو المحاسن يوسف بن رافع، وُلِد بالموصل سنة ٥٣٩هـ وأتقن علوم الحديث والتفسير والأدب، كان من ندماء السلطان صلاح الدين وخواصه سمع السلطان منه الحديث وولّاه قضاء العسكر والحكم بالقدس، ثم اتصل بعد وفاة السلطان بخدمة الملك الظاهر وحلَّ عنده في رتبة الوزارة، وكان السبب في قيام كثير من المدارس بحلب، ألَّف في سيرة السلطان صلاح الدين كتابه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» وهو خير مرجع في أحوال السلطان وسيره وأخلاقه، في عبارة منسجمة نقيَّة، توفي في صفر سنة ٦٣٧ هـ.

(٣) هو أبو علي عبد الرحيم البيساني العسقلاني، كان وزيراً لصلاح الدين ومدبِّر ملكه وصاحب سرِّه، توفي سنة ٥٩٦ هـ.



الأفضل[1] وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكو من قلقة في الليل ، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر ، ثم انصرفنا والقلوب عنده ، فتقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة الملك الأفضل ، ولم يكن القاضي عادته ذلك ، فانصرف ودخلت أنا إلى الإيوان وقد مدَّ الطعام والملك الأفضل قد جلس في موضعه فانصرفت وما كان لي قوة على الجلوس استيحاشاً وبكى جماعة تفاؤلاً بجلوس ولده في موضعه . . ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ ونحن نلازم التردُّد طرفي النهار وندخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً ويعطي الطريق في بعض الأيام التي يجد فيها خفة وكان مرضه في رأسه ، وكان من أمارات انتهاء العمر إذ كان قد ألف مزاجه سفراً وحضراً ورأى الأطباء فصده ففصدوه في الرابع فاشتد مرضه وقلَّت رطوبات بدنه ، وكان يغلب عليه اليبس غلبة عظيمة ، ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف .

ولقد جلسنا في سادس مرضه وأسندنا ظهره إلى مخدة وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شرب دواء لتليين الطبيعة فشربه فوجده شديد الحرارة فشكا من شدة حرارته ، وعرض عليه ماء ثانٍ فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب ولم يقل سوى هذه الكلمات ، سبحان الله ! ألا يمكن أحداً تعديل الماء ، فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء والقاضي الفاضل يقول لي أبصر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها ، و الله لو أن هذا بعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره ، واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه .

ولما كان التاسع حدثت عليه غشية وامتنع من تناول المشروب فاشتد

---

(١) هو الملك الأفضل نور الدين علي، أكبر أولاد السلطان صلاح الدين الأيوبي، استقر في الملك بدمشق وبلادها المنسوبة إليها بعد وفاة أبيه .

الخوف في البلد وخاف الناس ونقلوا الأقمشة[١] من الأسواق وغشي الناس من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته. ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد في كل ليلة إلى أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه ثم نحضر في باب الدار فإن وجدنا طريقاً دخلنا وشاهدناه وانصرفنا وإلا عرفونا أحواله وكنا نجد الناس يترقبون خروجنا إلى أن يلاقونا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا.

ولما كان العاشر من مرضه حقن[٢] دفعتين وحصل من الحقن راحة وحصل بعض خفة وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً، وفرح الناس فرحاً شديداً فأقمنا على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع[٣]، ثم أتينا إلى الدار فوجدنا جمال الدولة إقبالاً فالتمسنا منه تعريف الحال المستجد فدخل وأنفذ إلينا مع الملك المعظم توران شاه[٤] جبره الله تعالى أن العرق قد أخذ في ساقيه فشكرنا الله تعالى على ذلك والتمسنا منه أن يمس بقية قدمه ويخبرنا بحاله في العرق فتفقده ثم خرج إلينا وذكر أن العرق سابغ، وانصرفنا طيبة قلوبنا، ثم أصبحنا في الحادي عشر من مرضه وهو السادس والعشرون من صفر فحضرنا بالباب وسألنا عن الأحوال فأخبرنا بأن العرق أفرط حتى نفذ في الفراش ثم في الحصر وتأثرت به الأرض وأن اليبس قد تزايد تزايداً عظيماً وحارت في القوة الأطباء.

.. ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر وهي الثانية عشرة من مرضه اشتد مرضه وضعفت قوته ووقع من الأمر في أوله وحال بيننا وبينه النساء، واستحضرت أنا والقاضي الفاضل تلك الليلة

---

(١) قماش البيت متاعه.

(٢) حَقَنَ المريض داواه بالحقنة.

(٣) الطائفة من الليل، أو نحو ثلثه وربعه.

(٤) هو الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين بن نجم الدين أيوب بن شادي أخو صلاح الدين الأيوبي توفي سنة ٥٧٦ هـ.

وابن الزكي[١] ولم يكن عادته الحضور في ذلك الوقت وحضر بيننا الملك الأفضل وأمر أن نبيت عنده فلم ير القاضي الفاضل ذلك رأياً ، فإن الناس كانوا ينتظرون نزولنا من القلعة فخاف إن لم ننزل أن يقع الصوت في البلد وربما نهب الناس بعضهم بعضاً ، فرأى المصلحة في نزولنا واستحضار الشيخ أبي جعفر إمام الكلاسة[٢] وهو رجل صالح ليبيت بالقلعة حتى إذا احتضر رحمه الله بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء وذكَّره الشهادة وذكره الله تعالى ففعل ذلك ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه ، وبات في تلك الليلة على حال المنتقلين إلى الله تعالى ، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ويذكره الله تعالى ، وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع لا يكاد يفيق إلا في أحيان. وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى هُوَ الله الَّذِي لاَ إِلهَ إلاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ سمعه وهو يقول رحمة الله عليه ، صحيح ، وهذه يقظة في وقت الحاجة وعناية من الله تعالى به فلله الحمد على ذلك.

وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح في وقت وفاته ووصلتُ وقد مات وانتقل إلى رضوان الله ومحل كرمه وجزيل ثوابه. ولقد حُكِيَ لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ تبسم وتهلَّل وجهه وسلمها إلى ربه. وكان يوماً لم يُصَب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمه إلا الله تعالى. وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم وما سمعت هذا

---

(١) هو أبو المعالي محيي الدين محمد بن أبي الحسن علي كانت له عند السلطان صلاح الدين المنزلة العالية وكان ذا فضائل عديدة من الفقه والأدب وغيرهما تولى القضاء بدمشق، توفي سنة ٦٦٨ هـ.

(٢) الكلاسة حيّ خلف الباب الشمالي لصحن الجامع الأموي في دمشق.

الحديث إلا على ضرب من التجوُّز والترخص إلا في ذلك اليوم فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالنفس.

ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء في الإيوان الشمالي وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعمَّمين، وكان يوماً عظيماً وقد شغل كل إنسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة من أن ينظر إلى غيره وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلمَ فيه فاضل وواعظ. وكان أولاده يخرجون مستغيثين إلى الناس فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ودام الحال على هذا إلى ما بعد صلاة الظهر ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه فما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض[١] حتى في ثمن التبن الذي بلَّت[٢] به الطين، وغسله الدولعي الفقيه، ونهضت إلى الوقوف على غسله فلم تكن لي قوة تحمل ذلك المنظر وأُخرِج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب فُوط[٣] وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حلِّ عرفه، وارتفعت الأصوات عند مشاهدته وعظم من الضجيج والعويل ما شغلهم عن الصلاة، فصلَّى عليه الناس أرسالاً[٤]، وكان أول من أمَّ بالناس القاضي محيي الدين بن الزكي، ثم أعيد إلى الدار التي في البستان وكان متمرِّضاً بها، ودفن في الصُفَّة الغربية منها. وكان نزوله في حفرته قدس الله روحه ونوّر ضريحه قريباً من صلاة العصر ثم نزل في أثناء النهار ولده الملك الظافر وعزَّى الناس فيه وسكَّن قلوب الناس، وكان قد شغلهم البكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد فما وجد قلب إلا حزين

---

(١) لأنه لم يخلف في خزانته غير سبعة وأربعين درهماً وجرم واحد صوري وهذا من دخل الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن، ولم يخلف داراً ولا عقاراً.

(٢) بلَّه بشيء من الماء.

(٣) الفُوطة ما يأتزر به الخدم، جمعه فُوَط.

(٤) الرسل الجماعة، القطيع من كل شيء، جمعه أرسال.

ولا عين إلا باكية إلا من شاء الله. ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع ولم يعد أحد منهم في تلك الليلة إلا نحن ، حضرنا وقرأنا وجددنا حالاً من الحزن.

واشتغل في ذلك اليوم الملك الأفضل بكتابة الكتب إلى عمه وإخوته يخبرهم بهذا الحادث. وفي اليوم الثاني جلس للعزاء جلوساً عاماً وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء وتكلمَ المتكلمون ولم ينشد شاعر ثم انفض المجلس في ظهر ذلك اليوم واستمر الحال في حضور الناس بكرة وعشية وقراءة القرآن والدعاء له رحمة الله عليه واشتغل الملك الأفضل بتدبير أمره ومراسلة إخوته وعمه:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام[1]

* * *

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية للقاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد.

علـوّ الهـمَّـة

لعبد الرحمن بن الجوزي[١]

ما ابتلى الإنسان قط بأعظم من علو همته. فإن من علت همته يختار المعالي، وقد لا يساعد الزمان، وقد تضعف الآلة، فيبقى في عذاب. وإني أعطيت من علو الهمة طرفاً فأنا به في عذاب، ولا أقول ليته لم يكن فإنه إنما يحلو العيش بقدر عدم العقل، والعاقل لا يختار زيادة اللذة بنقصان العقل. ولقد رأيت أقواماً يصفون علو هممهم، فتأملتها فإذا بها في فن واحد ولا يبالون بالنقص فيما هو أهم، قال الرضي:

ولكـلِّ جسـمٍ فـي النُّحـول بليَّـةٌ وبلاءُ جسمي من تَفاوتِ هِمَّتي

فنظرت فإذا غاية أمله الإمارة. وكان أبو مسلم الخراساني في حال شبيبته لا يكاد ينام، فقيل له في ذلك فقال: ذهن صاف، وهمٌّ بعيد، ونفس تتوق[٢] إلى معالي الأمور، مع عيش كعيش الهمج[٣] الرعاع[٤].

---

(١) أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن على الجوزي كان علامة عصره وإمام وقته في الحديث والتاريخ وصناعة الوعظ صنف في فنون عديدة وكانت ولادته بطريق التقريب سنة ثمان وقيل عشر وخمسمئة وتوفي ليلة الجمعة ثاني عشر من رمضان سنة ٥٩٧هـ ببغداد وله كتاب المنتظم في التاريخ، وتلبيس إبليس في نقد عصره، وصفة الصفوة، وسيرة عمر بن الخطاب وغير ذلك من الكتب النافعة.

(٢) تشتاق.

(٣) الرعاع من الناس الحمقى.

(٤) سفلة الناس.

قيل: فما الذي يبرِّد غليلك؟[١] قال: الظفر بالمُلك. قيل: فاطلبه، قال: لا يطلب إلا بالأهوال، قيل: فاركب الأهوال، قال: العقل مانع، قيل: فما تصنع؟ قال: سأجعل من عقلي جهلاً، وأحاول به خطراً لا يُنال إلا بالجهل، وأدبر بالعقل ما لا يحفظ إلا به، فإن الخمول أخو العدم[٢]. فنظرت إلى حال هذا المسكين فإذا به قد ضيّع أهمَّ المهمات وهو جانب الآخرة، وانتصب في طلب الولايات. فكم فتك وقتل حتى نال بعض مراده من لذات الدنيا، ثم لم يتنعم في ذلك أكثر من ثمان سنين، ثم اغتيل[٣] ونسي تدبير العقل فقتل ومضى إلى الآخرة على أقبح حال.

وكان المتنبي يقول:

وفي الناس مَنْ يرضى بميسورِ عَيْشِهِ[٤] ... ومركوبُه رجلاه والثوبُ جِلدُه

ولكنَّ قَلْباً بين جَنْبيَّ ماله ... مدىً يَنْتَهي بي في مُرادٍ أحدُّه

ترى جسمَهُ يُكْسَى شُفوفاً[٥] تربه ... فيختارُ أن يُكْسى دروعاً تهده[٦]

فتأملت هذا الآخر فإذا نهمته[٧] فيما يتعلق بالدنيا فحسب. ونظرت إلى علو همتي فرأيتها عجباً. وذلك أنني أروم[٨] من العلم ما أتيقن أني لا أصل إليه، لأنني أحبُّ نيل كل العلوم على اختلاف فنونها، وأريد استقصاء[٩] كل فرد. هذا أمر يعجز العمر عن بعضه، فإن عرض لي همة في فن قد بلغ منتهاه رأيته ناقصاً في غيره. فلا أعدُّ همته تامة. مثل

---

(١) العطش الشديد.

(٢) العُدم والعُدُم والعَدَم الفقدان وغلب على فقدان المال والفقر.

(٣) أهلك وأخذ من حيث لا يدري.

(٤) ما تيسر وهو من المصادر التي جاءت على مفعول.

(٥) جمع شف بالفتح ويكسر، الثوب الرقيق.

(٦) هد البناء هدّاً وهدوداً هدمه شديداً.

(٧) حاجته.

(٨) أريد.

(٩) بلوغ الغاية.

المحدث فاته الفقه. والفقيه فاته علم الحديث. فلا أرى الرِّضى بنقصان من العلوم إلا حادثاً عن نقص الهمة. ثم إني أروم نهاية العمل بالعلم، فأتوق إلى ورع بِشر[١]، وزهادة معروف[٢]، وهذا مع مطالعة التصانيف وإفادة الخلق ومعاشرتهم بعيدٌ. ثم إني أروم الغنى عن الخلق، واستشرف الإفضال عليهم. والاشتغال بالعلم مانع من الكسب. وقبول المنن مما تأباه الهمة العالية. ثم إني أتوق إلى طلب الأولاد، كما أتوق إلى تحقيق التصانيف، لبقاء الخلفان[٣] نائبين عني بعد التلف. وفي طلب ذلك ما فيه من شغل القلب المحب للتفرد. ثم إني أروم الاستمتاع بالمستحسنات، وفي ذلك امتناع من جهة قلة المال، ثم لو حصل فرق جمع الهمة. وكذلك أطلب لبدني ما يصلحه من المطاعم والمشارب، فإنه متعود للترفه[٤] واللطف، وفي قلة المال مانع، وكل ذلك جمع بين أضداد. فأين أنا وما وصفته من حال من كانت غاية همته الدنيا. وأنا لا أحب أن يخدش حصول شيء من الدنيا وجه ديني بسبب. ولا أن يؤثر في علمي ولا في عملي. فواقلقي من طلب قيام الليل. وتحقيق الورع مع إعادة العلم. وشغل القلب بالتصانيف. وتحصيل ما يلائم البدن من المطاعم. ووا أسفي على ما يفوتني من المناجاة في الخلوة مع ملاقاة الناس وتعليمهم. ويا كدر الورع مع طلب ما لا بد منه للعائلة[٥] غير أني قد استسلمت لتعذيبي، ولعل تهذيبي في تعذيبي، لأن عليان الهمة

---

(١) أبو نصر بشر بن الحارث بن عبد الرحمن المروزي المعروف بالحافي كان من كبار الأولياء توفي سنة ٢٢٦ هـ.

(٢) أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي كان من كبار الأولياء توفي سنة ٢٠٠ هـ.

(٣) جمع خلفة ما يبقى أو يتبع.

(٤) للتنعم.

(٥) عائلة الرجل أهل بيته الذين يعولهم.

تطلب المعالي المقربة إلى الحق عز وجل. وربما كانت الخِيَرة في الطلب دليلاً إلى المقصود. وها أنا أحفظ أنفاسي من أن يضيع منها نفس في غير فائدة ، وإن بلغ همي مراده ، وإلا فنية المؤمن أبلغ من عمله[١] .

* * *

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي.

سيّد التابعين سَعيد بن المسيِّب

لابن خلكان[١]

كان سعيد سيد التابعين ، من الطراز الأول[٢] جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع ، سمع سعد بن أبي وقاص وأبا هريرة رضي الله عنهما .

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لرجل سأله عن مسألة : ائتِ ذاك فسله ، يعني سعيداً ، ثم ارجع إليَّ فأخبرني ، ففعل ذلك وأخبره ، فقال : ألم أخبركم أنه أحد العلماء ، وقال أيضاً في حقه لأصحابه : لو رأى هذا رسول الله ﷺ لسرَّه ، وكان قد لقي جماعة من الصحابة رضي الله عنهم وسمع منهم ، ودخل على أزواج النبي ﷺ ، وأخذ عنهن ، وأكثر روايته المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وكان زوج ابنته ، وسئل

(١) شيخ المؤرخين البارع في تصنيفه ، شمس الدين أحمد الأربلي المعروف بابن خلكان ، ولد سنة ٦٠٨هـ كان إماماً عالماً فقيهاً أديباً شاعراً ، متفرِّداً في علم الأدب والتأليف ، ولِّي قضاء دمشق مرتين ثم عزل وقدم القاهرة ، وأفتى ودرَّس ودام بها نحو سبع سنين ، ثم أعيد إلى قضاء دمشق وسُرَّ الناس بعوده ، أعجب علماء التاريخ والمشرقيات بكتابه «وفيات الأعيان» واشتدَّت عنايتهم به لما يمتاز به من التحرير وغزارة المادة وكثرة الفوائد وحسن العبارة والاقتصاد في الوصف والبعد عن المبالغة ، ومعرفة طبقات الناس وما يجيدونه من فنّ ويفوقون فيه ، وهو نتيجة دراسات طويلة وخبرة واسعة ، توفي سنة ٦٨١هـ .

(٢) الطراز كلمة فارسية عرِّبت وأصل معناها بالفارسية التقدير المستوى والمراد هنا من الشكول الجيدة الحسنة المتفوقة .

الزُّهري ومكحول: مَنْ أفقهُ مَنْ أدركتما؟ فقالا: سعيد بن المسيب، وروي عنه أنه قال: حججت أربعين حجة، وعنه أنه قال: ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة، وما نظرت إلى قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة لمحافظته على الصف الأول، وقيل: إنه صلى الصبح بوضوء العشاء خمسين سنة وكان يقول: ما أعزت العباد نفسها بمثل طاعة الله، ولا أهانت نفسها بمثل معصية الله، ودعي إلى نيّف وثلاثين ألفاً ليأخذها فقال: لا حاجةَ لي فيها، ولا في بني مروان، حتى ألقى الله فيحكم بيني وبينهم.

وقال أبو وداعة: كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدني أياماً، فلما جئته قال: أين كنت؟ قلت: توفيت أهلي فاشتغلت بها، فقال: هلا أخبرتَنا فشهدناها؟ قال: ثم أردت أن أقوم فقال: هلا أحدثت امرأة غيرها؟ فقلت: يرحمك الله ومن يزوّجني وما أملك إلاَّ درهمين أو ثلاثة؟! فقال: إن أنا فعلت تفعل؟ قلت: نعم ثم حمد الله تعالى وصلّى على النبي ﷺ وزوجني على درهمين أو قال على ثلاثة، قال: فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح، فصرت إلى منزلي، وجعلت أتفكر ممن آخذ وأستدين، وصليت المغرب، وكنت صائماً، فقدمت عشاي لأفطر، وكان خبزاً وزيتاً، وإذا بالباب يقرع، فقلت: مَنْ هذا؟ قال: سعيد، ففكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب، فإنه لم ير منذ أربعين سنة إلا ما بين بيته والمسجد، فقمت وخرجت، وإذا بسعيد بن المسيب، فظننت أنه قد بدا له[1]، فقلت: يا أبا محمد، هلاَّ أرسلت إليَّ فآتيك؟ قال: لا، أنت أحقّ أن تُؤتَى، قلت: فما تأمرني؟ قال: رأيتك رجلاً عَزَباً[2] قد تزوَّجت فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك، فإذا هي قائمة خلفه في طوله ثم دفعها في الباب وردَّ الباب،

---

(١) أي: ظهر له رأي غير الذي رآه من قبل يريد أنه يريد أن يرجع.

(٢) بفتحتين من لا أهل له من الرجال والنساء جمعه عُزَّاب وأعزاب.

فسقطت المرأة من الحياء ، فاستوثقت من الباب ، ثم صعدت إلى السطح ، فناديت الجيران ، فجاؤوني ، وقالوا : ما شأنك؟ فقلت : زوَّجني سعيد بن المسيب اليوم ابنته وقد جاء بها على غفلة ، وها هي في الدار ، فنزلوا إليها ، وبلغ أمي فجاءت وقالت : وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها ثلاثة أيام ، فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها ، فإذا هي من أجمل الناس وأحفظهم لكتاب الله تعالى ، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ وأعرفهم بحق الزوج ، قال : فمكث شهراً لا يأتيني ولا آتيه ، ثم أتيته بعد شهر وهو في حلقته ، فسلمت عليه ، فردَّ عليَّ ولم يكلمني حتى انفض من في المسجد ، فلما لم يبق غيري ، قال : ما حال ذلك الإنسان؟ قلت : هو على ما يحب الصديق ويكره العدو ، قال : إن رابك شيء فالعصا ، فانصرفت إلى منزلي ، وكانت بنت سعيد المذكورة خطبها عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاَّه العهد ، فأبى سعيد أن يزوجه ، فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه في يوم بارد ، وصبَّ عليه الماء . قال يحيى بن سعيد : كتب هشام بن إسماعيل والي المدينة إلى عبد الملك بن مروان : إن أهل المدينة قد أطبقوا على البيعة للوليد وسليمان إلا سعيد بن المسيِّب ، فكتب أن اعرضه على السيف ، فإن مضى فاجلده خمسين جلدة وطف به أسواق المدينة ، فلما قدم الكتاب على الوالي دخل سليمان بن يسار[١] وعروة بن الزبير[٢] وسالم بن عبد الله[٣] على سعيد بن المسيب ، وقالوا : جئناك في أمر ،

---

(١) هو أبو أيوب سليمان بن يسار مولى ميمونة زوج النبي ﷺ وأخو عطاء بن يسار وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة كان عالماً ثقة عابداً ورعاً حجة روى عن ابن عباس وأبي هريرة وأم سلمة رضي الله عنهم ، وروى عنه الزهري وجماعة من الأكابر توفي سنة ١٠٧ هـ .

(٢) هو عروة بن الزبير بن العوام أحد الفقهاء السبعة بالمدينة سمع خالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وروى عنه ابن شهاب الزهري وغيره كانت ولادته سنة ٢٢ هـ وتوفي سنة ٩٣ هـ كان عبد الملك يقول : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى عروة بن الزبير .

(٣) هو سالم بن عبد الله بن عمر الخطاب أحد فقهاء المدينة ومن سادات التابعين وعلمائهم =

قد قدم كتاب عبد الملك إن لم تبايع ضُربت عنقك ، ونحن نعرض عليك خصالاً ثلاثاً ، فأعطنا إحداهن ، فإن الوالي قد قبل منك أن يقرأ عليك الكتاب ، فلا تقل لا ولا نعم ، قال: يقول الناس: بايع سعيد بن المسيب ، ما أنا بفاعل ، وكان إذا قال لا لم يستطيعوا أن يقولوا نعم ، قالوا: فتجلس في بيتك ولا تخرج إلى الصلاة أياماً ، فإنه يقبل منك إذا طلبك من مجلسك فلم يجدك ، قال: فأنا أسمع الأذان فوق أذني ، حيّ على الصلاة حيّ على الصلاة ، ما أنا بفاعل ، قالوا: فانتقل من مجلسك إلى غيره فإنه يرسل إلى مجلسك ، فإن لم يجدك أمسك عنك ، قال: أفَرَقاً من مخلوق؟ ما أنا بمتقدم شبراً ولا متأخر ، فخرجوا وخرج إلى صلاة الظهر ، فجلس في مجلسه الذي كان يجلس فيه ، فلما صلّى الوالي بعث إليه ، فأُتي به ، فقال: إن أمير المؤمنين كتب يأمرنا إن لم تبايع ضربنا عنقك ، قال نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين ، فلما رآه لم يجب أخرج إلى السُدَّة[1] فمدت عنقه وسلت السيوف ، فلما رآه قد مضى أمر به فجرد ، فإذا عليه ثياب شعر ، فقال لو علمت ذلك ما اشتهرت بهذا الشأن ، فضربه خمسين سوطاً ، ثم طاف به أسواق المدينة ، فلما ردوه والناس منصرفون من صلاة العصر قال: إن هذه لوجوه ما نظرت إليها منذ أربعين سنة ، ومنعوا الناس أن يجالسوه ، فكان من ورعه إذا جاء إليه أحد يقول له: قم من عندي ، كراهية أن يضرب بسببه.

قال مالك رضي الله عنه: بلغني أن سعيد بن المسيب كان يلزم مكاناً من المسجد لا يصلي من المسجد في غيره ، وأنه ليالي صنع به عبد الملك ما صنع ، قيل له أن يترك الصلاة فيه ، فأبى إلا أن يصلي فيه.

وكان يقول: لا تملؤوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بإنكارٍ من

= وثقاتهم روى عن أبيه وغيره وروى عنه الزهري ونافع وتوفي في آخر ذي الحجة سنة ١٠٦ هـ.

(١) باب الدار وما حولها من الرواق جمعه سُدد.

قلوبكم ، لكي لا تحبط أعمالكم ، وقيل له ـ وقد نزل الماء في عينه ـ ألا تقدح عينك؟ قال: لا حتى على مَنْ أفتحها.

وكانت ولادته لسنتين مضتا من خلافة عمر رضي الله عنه ، وكان في خلافة عثمان رضي الله عنه رجلاً.

وتوفي بالمدينة سنة إحدى ـ وقيل: اثنتين ، وقيل: ثلاث ، وقيل: أربع ، وقيل: خمس ـ وتسعين للهجرة وقيل: إنه توفي سنة خمس ومئة والله أعلم[1].

* * *

(١) وفيات الأعيان . ٢ / ٣٧٥

النُبـوّة المحمَّديـة وآيـاتهَـا

للحافظ ابن تيمية[١]

وسيرة الرسول ﷺ من آياته ، وأخلاقُه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته ، وأمتُه من آياته ، وعلم أمته ودينهم من آياته ، وكرامات صالح أمته من آياته ، وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين ولد إلى أن بعث ، ومن حين بعث إلى أن مات ، وتدبر نسبه وبلده وأصله وفصله فإنه كان من أشرف أهل الأرض نسباً من صميم[٢] سلالة[٣] إبراهيم الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب فلم يأت نبي من بعد إبراهيم إلا من ذريته ، وجعل له ابنين إسماعيل وإسحاق ، وذكر في التوراة هذا وهذا ، وبشر في التوارة بما يكون من ولد إسماعيل ولم يكن في ولد إسماعيل من ظهر فيما بشَّرت به النبوءات غيره ، ودعا إبراهيم لذرية إسماعيل بأن يبعث فيهم رسولاً

(١) هو شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحرّاني ثم الدمشقي، وُلد في عاشر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ وتحول به أبوه من حران سنة ٦٦٧ هـ فسمع من ابن عبد الدائم والقاسم الإربلي والمسلم بن علان وابن أبي عمرو الفخر في آخرين ، وقرأ بنفسه وتفقَّه وتمهر وتميَّز وتقدم وصنَّف ودرس وأفتى وفاق الأقران وصار عجباً في سرعة الاستحضار وقوة الجنان والتوسع في المعقول والمنقول والاطلاع على مذهب السلف والخلف ، توفي ليلة الاثنين والعشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨ هـ معتقلاً .

(٢) الصميم من كل شيء خالصه ومحضه .

(٣) النسل والولد.

منهم ، ثم من قريش صفوة بني إبراهيم ، ثم من بني هاشم صفوة[١] قريش ومن مكة أم القرى ، وبلد البيت الذي بناه إبراهيم ودعا الناس إلى حجِّه ولم يزل محجوجاً من عهد إبراهيم ، مذكوراً في كتب الأنبياء بأحسن وصف .

وكان من أكمل الناس تربية ونشأة ، ولم يزل معروفاً بالصدق والبر والعدل ومكارم الأخلاق وترك الفواحش والظلم وكل صنف مذموم ، مشهوداً له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة وممن آمن به وكفر بعد النبوة ، لا يعرف له شيء يعاب به لا في أقواله ولا في أفعاله ولا في أخلاقه ولا جرت عليه كذبة قط ولا ظلم ولا فاحشة .

وكان خلقه وصورته من أكمل الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله ، وكان أمِّياً من قوم أمِّيِّين لا يعرف لا هو ولا هم ما يعرفه أهل الكتاب التوراة والإنجيل ، ولم يقرأ شيئاً من علوم الناس ولا جالس أهلها ولم يدَّع نبوة إلى أن أكمل الله له أربعين سنة ، فأتى بأمر هو أعجب الأمور وأعظمها وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره ، وأخبرنا بأمر لم يكن في بلده وقومه من يعرف مثله ، ولم يُعَرف قبله ولا بعده لا في مصر من الأمصار ولا في عصر من الأعصار من أتى بمثل ما أتى به ولا من ظهر[٢] . كظهوره ولا من أتى من العجائب والآيات بمثل ما أتى به ولا من دعا إلى شريعة أكمل من شريعته ولا من ظهر دينه على الأديان كلها بالعلم والحجة وباليد والقوة كظهوره ، ثم إنه اتبعه أتباع[٣] الأنبياء وهم ضعفاء الناس ، وكذَّبه أهل الرئاسة وعادوه وسعوا في هلاكه وهلاك من اتبعه بكل طريق كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء وأتباعهم . والذين اتبعوه لم يتبعوه لرغبة ولا لرهبة فإنه لم يكن عنده مال يعطيهم ولا جهات يوليهم

(١) الصفوة بالتثليث من كل شيء خالصه وخياره .

(٢) غلب .

(٣) جمع تَبَع والتبع يطلق على الواحد والجمع .

إياها ، ولا كان له سيف ، بل كان السيف والمال والجاه مع أعدائه وقد آذوا أتباعه بأنواع الأذى ، وهم صابرون محتسبون لا يرتدُّون عن دينهم ، لما خالط قلوبهم من حلاوة الإيمان والمعرفة .

وكانت مكة يحجُّها العرب من عهد إبراهيم ، فتجتمع في الموسم قبائل العرب ، فيخرج إليهم يبلِّغهم الرسالة ويدعوهم إلى الله صابراً على ما يلقاه من تكذيب المكذب وجفاء الجافي وإعراض المعرض إلى أن اجتمع بأهل يثرب وكانوا جيران اليهود ، قد سمعوا أخباره منهم وعرفوه فلما دعاهم علموا أنه النبي المنتظر الذي تخبرهم به اليهود ، وكانوا قد سمعوا من أخباره ما عرفوا به مكانته ، فإنَّ أمره كان قد انتشر وظهر في بضع عشرة سنة ، فآمنوا به وتابعوه على هجرته وهجرة أصحابه إلى بلدهم وعلى الجهاد معه ، فهاجر هو ومن اتبعه إلى المدينة وبها المهاجرون والأنصار ليس فيهم من آمن برغبة دنيوية ولا برهبة إلا قليلاً من الأنصار ، أسلموا في الظاهر ثم حسن إسلام بعضهم ، ثم أُذن له في الجهاد ، ثم أُمر به ، ولم يزل قائماً بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها من الصدق والعدل والوفاء ، لا يحفظ له كذبة واحدة ولا ظلم لأحد ، ولا غدر بأحد بل كان أصدق الناس ، وأعدلهم وأوفاهم بالعهد مع اختلاف الأحوال عليه من حرب وسلم ، وأمن وخوف ، وغنى وفقر ، وقلة وكثرة ، وظهوره على العدو تارة ، وظهور العدو عليه تارة ، وهو على ذلك كله ملازم لأكمل الطرق وأتمها ، حتى ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان ومن أخبار الكهان[١] ، وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق ، وسفك الدماء المحرمة ، وقطيعة الأرحام ، لا يعرفون آخرة ولا معاداً ، فصاروا أعلم أهل الأرض ، وأدينهم وأعدلهم ، وأفضلهم حتى أن النصارى لما رأوهم حين قدموا الشام قالوا ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء .

---

(١) جمع كاهن وهو الذي يدعي معرفة الأسرار أو أحوال الغيب .

وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض وآثار غيرهم ، يعرف العقلاء فرق ما بين أمرين ، وهو ﷺ مع ظهور أمره وطاعة الخلق له وتقديمهم له على الأنفس والأموال مات ﷺ ولم يخلِّف درهماً ولا ديناراً ، ولا شاة ولا بعيراً ، إلا بغلته وسلاحه ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً[١] من شعير ابتاعها لأهله ، وكان بيده عقار[٢] ، ينفق منه على أهله والباقي يصرفه في مصالح المسلمين ، فحكم بأنه لا يورث ، ولا يأخذ ورثته شيئاً من ذلك وهو في كل وقت يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه .

ويخبرهم بخبر ما كان وما يكون ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويشرع الشريعة ، شيئاً بعد شيء حتى أكمل الله دينه الذي بعث به ، وجاءت شريعته أكمل شريعة ، لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أمر بهِ ، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه ولم يأمر بشيء فقيل ليته لم يأمر به ، ولا نهى عن شيء فقيل ليته لم ينه عنه ، وأحل الطيبات لم يحرم شيئاً منها كما حرم في شرع غيره ، وحرَّم الخبائث لم يحل منها شيئاً كما استحله غيره .

وجمع محاسن ما عليه الأمم ، فلا يذكر في التوراة والإنجيل والزبور نوع من الخبر عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء به على أكمل وجه ، وأخبر بأشياء ليست في هذه الكتب فليس في تلك الكتب إيجاب لعدل ، وقضاء بفضل ، وندب إلى الفضائل ، وترغيب في الحسنات إلا وقد جاء به وبما هو أحسن منه .

---

(١) ستون صاعاً ج أوساق .

(٢) بالفتح الضيعة وكل ما له أصل وقرار كالأرض والدار .

وإذا نظر اللبيب[١] في العبادات التي شرعها وعبادات غيره من ا لأمم ظهر فضلها ورجحانها ، وكذلك في الحدود والأحكام وسائر الشرائع وأمته أكمل الأمم في كل فضيلة فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم ، وإن قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم ظهر أنهم أدين من غيرهم ، وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله وصبرهم على المكاره في ذات الله ظهر أنهم أعظم جهاداً وأشجع قلوباً. وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم وسماحة أنفسهم بغيرهم تبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم ، وهذه الفضائل به نالوها ومنه تعلموها ، وهو الذي أمرهم بها لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء هو بتكميله كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة وكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم بعضها من التوراة وبعضها من الزبور وبعضها من النبوّات وبعضها من المسيح وبعضها ممن بعده كالحواريين ومن بعد الحواريين وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى أدخلوا لما غيَّروا دين المسيح في دين المسيح أموراً من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح .

وأما أمة محمد ﷺ فلم يكونوا قبله يقرؤون كتاباً بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداود والتوراة والإنجيل والزبور إلا من جهته فهو الذي أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويُـقِرُّوا بجميع الكتب المنزلة من عند الله ونهاهم أن يفرقوا بين أحد من الرسل فقال تعالى في الكتاب الذي جاء به : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٣٦ ـ ١٣٧] وقال تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ

(١) أي : العاقل ج أَلِبَّاء .

وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] [البقرة: ٢٨٥].

* * *

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

الظـلم مـؤذن بخـراب العمـران

لابن خـلدون[1]

اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم ، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك ، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرَّعايا عن السعي في الاكتساب. فإذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها . وإن كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبته. والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح

(١) (٧٣٢ ـ ٨٠٨ هـ) وُلد هذا العالم الكبير في تونس ونشأ في حجر النعيم والعلم، وشارك في جميع العلوم وأتقنها وتعمَّق فيها وتبحَّر في التاريخ وتقلَّد الكتابة والحجابة والقضاء ووفد سنة ٧٦٤ هـ على الأندلس فاحتفى به الملوك والأمراء وانفرد به صاحب غرناطة دون وزيره فدبَّت إليه عقارب الحسد والحقد، فعاد إلى وطنه ثم أخذ يجول ويطوف في الأرض حتى بلغ مصر سنة ٧٨٤ فقام بالتدريس في الجامع الأزهر وولي القضاء ثم انصرف عنها واعتزل ثم اشتغل واعتزل إلى أن وافاه أجله.
وقع الاتفاق على ابن خلدون إمام فلسفة التاريخ وأبو عذرتها، ومقدمتُه للتاريخ لم يعمل مثلها، ازدانت بها مكتبات العالم، ولا يزال الكتاب غضّاً جديداً في مباحث كثيرة، صادقاً في آراء ونظريات كثيرة. وابن خلدون إمام طريقة في الكتابة لا تزال مثالاً جميلاً للكتابة العلمية الرزينة، أسلوبه طبعي عامر محكم وهو مع ذلك رشيق متسق، وله في تجديد الكتابة ونقلها إلى الطور الحديث فضل كبير.

والمكاسب ذاهبين وجائين. فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتفضت الأحوال وابذعرّ[١] الناس في الآفاق من غير تلك الإيالة[٢] في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها فخفّ ساكن القطر وخلت دياره وخربت أمصاره واختلّ باختلاله حال الدولة والسلطان لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادّتها ضرورة.

وانظر في ذلك ما حكاه المسعودي في أخبار الفرس عن المُوبَذان[٣] صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام وما عرَّض به للملك في إنكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة بضرب المثال في ذلك على لسان البوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له: إن بوماً ذكراً يروم نكاح بوم أنثى وأنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام فقبل شرطها وقال لها: إن دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية وهذا أسهل مرام. فتنبه الملك من غفلته وخلا بالموبذان وسأله عن مراده فقال له: أيها الملك إن المُلك لا يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشريعة إلا بالملك، ولا عزَّ للملك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة، ولا سبيل إلى العمارة إلا بالعدل، والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرَّب وجعل له قيِّماً وهو المَلِك. وأنت أيها الملك عمدت إلى الضِّياع فانتزعتها من أربابها وعُمَّارها وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال وأقطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة، فتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع وسومحوا في الخراج لقربهم من الملك ووقع الحيف[٤] على من

(١) تفرّقوا.
(٢) مقاطعة أو إقليم والكلمة في الدخيل.
(٣) فقيه الفرس وحاكم المجوس كقاضي القضاة للمسلمين فارسية معرَّبة جمعه موابذة.
(٤) الجور والظلم.

بقي من أرباب الخراج وعُمَّار الضياع فانجلوا عن ضياعهم وخلَّوا ديارهم وآووا إلى ما تعذر من الضياع فسكنوها فقلَّت العمارة وخرِبت الضياع وقلَّت الأموال وهلكت الجنود والرعيَّة وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم الملك إلا بها ، فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر في ملكه وانتُزعت الضياع من أيدي الخاصة ورُدَّت إلى أربابها وحُمِلوا على رسومهم السالفة وأخذوا في العمارة وقوي من ضعف منهم فعمرت الأرض وأخصبت البلاد وكثرت الأموال عند جباة الخراج وقَوِيت الجنود وقطعت مواد الأعداء وشحنت الثغور ، وأقبل الملك على مباشرة أموره بنفسه فحَسنت أيامه وانتظم ملكه.

فتفهم من هذه الحكاية أن الظلم مخرِّب للعمران وأن عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاض ، ولا تنظر في ذلك إلى أن الاعتداء قد يوجد في الأمصار العظيمة من الدول التي بها ولم يقع فيها خراب. واعلم أن ذلك إنما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المصر فلما كان المصر كبيراً وعمرانه كثيراً وأحواله متسعة بما لا ينحصر كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم ليسيراً لأن النقص إنما يقع بالتدريج فإذا خفي بكثرة الأحوال واتساع الأعمال في المصر لم يظهر أثره إلا بعد حين وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من أصلها قبل خراب المصر وتجيء الدولة الأخرى فترقعه بجدتها وتجبر النقص الذي كان خفياً فيه فلا يكاد يشعر به إلا أن ذلك في الأقل النادر.

والمراد من هذا أن حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لابد منه لما قدمناه ووباله عائد على الدول. ولا تحسبن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور. بل الظلم أعمُّ من ذلك وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه.

فجباة الأموال بغير حقها ظَلَمة. والمعتدون عليها ظلمة. والمنتهبون لها ظلمة، والمانعون لحقوق الناس ظلمة، وغُصَّاب الأملاك على العموم ظلمة. ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادَّتها لإذهابه الآمال من أهله. واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري وهي الحكمة العامة المراعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، فلما كان الظلم كما رأيت مؤذناً بانقطاع النوع لما أدى إليه من تخريب العمران كانت حكمة الحظر فيه موجودة فكان تحريمه مهمَّاً وأدلته من القرآن والسنَّة كثيرة أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر[1]

* * *

(١) مقدمة ابن خلدون.

المدنيـة العجميّة عنـد بعثَـة الرسُول ﷺ

للشيخ ولي الله الدهلوي(١)

اعلم! أن العجم والروم لما توارثوا الخلافة قروناً كثيرة وخاضوا في لذة الدنيا، ونسوا الدار الآخرة، واستحوذ(٢) عليهم الشيطان، تعمَّقوا في مرافق(٣) المعيشة، وتباهوا بها، وورد عليهم حكماء الآفاق

(١) (١١١٤ ـ ١١٧٦هـ) هو حكيم الإسلام وفيلسوفه المجدد الديني والعلمي الكبير قطب الدين أحمد ولي الله بن عبد الرحيم بن وجيه الدين العمري الدهلوي، قرأ العلم على والده وقرأ فاتحة الفراغ وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره وأخذ يدرس ويفيد ويؤلف إلى أن رحل في سنة ١١٤٣ إلى الحجاز واستفاد من علمائها وأفاد وأسند الحديث عن الشيخ أبي طاهر المدني ثم رجع إلى الهند وعكف على الدرس والإفادة والتأليف والتجديد في العلم والدين إلى أن استأثرت به رحمة الله.
كان رحمه الله آية من آيات الله عبقرياً نابغة من نوابغ الإسلام، قال العلامة السيد صديق حسن خان القنوجي أمير بوفال: ـ لو سبق به الزمان وكان في القرون المتقدمة لعد من كبار الأئمة المجتهدين في الإسلام (إتحاف النبلاء).
كان محدثاً مفسراً فقيهاً أصولياً متكلماً فيلسوفاً سياسياً، كان كاتباً قديراً بالعربية سيَّال القلم مؤلفاً مجيداً، وبعض كتبه لم ينسج على منوالها، خصوصاً الفوز الكبير في أصول التفسير وإزالة الخفاء في خلافة الخلفاء ورسالة الإنصاف في سبب الاختلاف. أما كتابه الشهير حجة الله البالغة فهو كتاب فريد في موضوعه وهو بيان حقائق الدين وتطبيق العقل والنقل وشرح النظام الديني والسياسي، وهذا الفصل مأخوذ منه.

(٢) غلب.

(٣) منافع.

يستنبطون لهم دقائق المعاش ومرافقه ، فما زالوا يعملون بها ، ويزيد بعضهم على بعض ويتباهون بها ، حتى قيل: إنهم كانوا يعيِّرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجاً قيمتها دون مائة ألف درهم ، أو لا يكون له قصر شامخ وآبزن[١] وحمام وبساتين ، ولا يكون له دواب فارهة[٢] وغلمان حسان ، ولا يكون له توسُّع في المطاعم ، وتجمُّل في الملابس وذكر ذلك يطول وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم .

فدخل كل ذلك في أصول معاشهم وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزَّع[٣] وتولَّد من ذلك داء عضال[٤] دخل في جميع أعضاء المدينة ، وآفة عظيمة لم يبق منهم أحد من أسواقهم ورستاقهم[٥] وغنيهم وفقيرهم إلا قد استولت عليه وأخذت بتلابيبه[٦] وأعجزته في نفسه وأهاجت عليه غموماً وهموماً لا أرجاء[٧] لها .

وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة[٨] ولا تحصل تلك الأموال إلا بتضعيف الضرائب[٩] على الفلاحين والتُجار وأشباههم ، والتضييق عليهم فإن امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر يستعمل في النضح والدياس[١٠]

---

(١) كلمة فارسية وهو ما يسميه العامة النافورة .

(٢) النشيطة الحادة القوية .

(٣) تقطع .

(٤) بالضم الشديد وداء عضال أي داء معيّ غالب .

(٥) فارسي معرب وهو سواد البلدة . .

(٦) جمع تلبيب وهو من الإنسان ما في موضع اللبب من ثيابه واللبب موضع المنحر من كل شيء .

(٧) جمع الرجا أو الرَّجا الناحية لا أرجاء لها لا أطراف لها أي لا منتهى لها .

(٨) أي الكثيرة .

(٩) جمع ضريبة وهي التي تعين على أحد من المال .

(١٠) مصدر داس يدوس دوساً ودياسة الزرع درسه .

والحصاد ، ولا تقتنى[١] إلا ليستعان بها في الحاجات. ثم لا تترك ساعة من العناء حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السعادة الأخروية أصلاً ولا يستطيعون ذلك.

وربما كان إقليم واسع ليس فيهم أحد يهمه دينه ، ولم يكن ليحصل أيضاً إلا بقوم يتكسَّبون بتهيئة تلك المطاعم والملابس والأبنية وغيرها ويتركون أصول المكاسب التي عليها بناء نظام العالم وصار عامة من يطوف عليهم يتكلفون محاكاة الصناديد في هذه الأشياء وإلا لم يجدوا عندهم حظوة[٢] ولا كانوا عندهم على بال.

وصار جمهور الناس عيالاً على الخليفة يتكففون[٣] منه تارة على أنهم من الغزاة والمدبرين للمدينة يترسمون برسومهم ولا يكون المقصود دفع الحاجة ولكن القيام بسيرة سلفهم. وتارة على أنهم شعراء جرت عادة الملوك بصلتهم ، وتارة على أنهم زهاد وفقراء يقبح من الخليفة أن لا يتفقد حالهم فيضيق بعضهم بعضاً وتتوقف مكاسبهم على صحبة الملوك والرفق بهم وحسن المحاورة معهم والتملق منهم وكان ذلك هو الفن الذي تتعمق أفكارهم فيه وتضيع أوقاتهم معه.

فلما كثرت هذه الأشغال تشبَّح في نفوس الناس هيئات خسيسة وأعرضوا عن الأخلاق الصالحة ، وإن شئت أن تعرف حقيقة هذا المرض فانظر إلى قوم ليست فيهم الخلافة ولا هم متعمقون في لذائذ الأطعمة والألبسة تجد كل واحد منهم بيده أمره وليس عليه من الضرائب الثقيلة ما يثقل ظهره فهم يستطيعون التفرغ لأمر الدين والملة ثم تصور حالهم لو كان فيهم الخلافة وملأها وسخروا الرعية وتسلطوا عليهم.

---

(١) لا تجمع.

(٢) المكانة والمنزلة عند الناس.

(٣) يمدون كفهم إلى الناس يستعطون..

فلما عظمت هذه المصيبة واشتدَّ هذا المرض سخط عليهم الله والملائكة المقربون وكان رضاه تعالى في معالجة هذا المرض بقطع مادته فبعث نبيّاً أميّاً ﷺ لم يخالط العجم والروم ولم يترسم برسومهم وجعله ميزاناً يعرف به الهدى الصالح المرضي عند الله من غير المرضيِّ وأنطقه بذم عادات الأعاجم وقبح الاستغراق في الحياة الدنيا والاطمئنان بها، ونفث في قلبه أن يحرم عليهم رؤوس ما اعتاده الأعاجم وتباهوا بها كلبس الحرير والقسي[1] والأرجوان[2]، واستعمال أواني الذهب والفضة وحلى الذهب غير المقطع، والثياب المصنوعة فيها الصور وتزويق البيوت[3] وغير ذلك، وقضى بزوال دولتهم بدولته ورئاستهم برئاسته وبأنَّه إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده[4]

* * *

(١) - ثياب مضلّعة فيها الحرير.

(٢) الثياب الحمر.

(٣) زوّق البيت نقشه.

(٤) حجة الله البالغة باب إقامة الارتفاقات وإصلاح الرسوم.

أهـلُ الطبقَـة العُليَـا مِـن الأمّـة

للسيد عبد الرحمن الكواكبي[١]

الفتور بالغ في غالب أهل الطبقة العليا من الأمة ولا سيما في الشيوخ ، مرتبة (الخَور[٢] في الطبيعة) لأننا نجدهم ينتقصون أنفسهم في كل شيء ، ويتقاصرون عن كل عمل ويحجمون عن كل إقدام ، ويتوقعون الخيبة في كل أمل ، ومن أقبح آثار هذا الخور نظرهم الكمال في الأجانب كما ينظر الصبيان الكمال في آبائهم ومعلِّميهم ، فيندفعون لتقليد الأجانب واتباعهم ، فيما يظنونه رقة وظرافة وتمدناً ، وينخدعون لهم فيما يغشونهم به ، كاستحسان ترك التصلب في الدين والافتخار به ، فمنهم

(١) ولد السيد عبد الرحمن الكواكبي عام ١٢٦٥ هـ في بيت من الأشراف في حلب كانت فيه نقابة الأشراف، ونشأ في جو يمتاز بتقاليده العريقة من عزَّة وإباء وشمم، فنشأ متزناً في الحديث دقيقاً في الفكر، نزيه النفس. تعلم اللغة العربية والعلوم الإسلامية شأن أبناء جيله من الأشراف، ولم يكتف بهذه الدراسة بل ارتوى من مناهل العلوم الرياضية والطبيعية وتعلَّم اللغة الفارسية والتركية وانكب على قراءة الكتب التاريخية ودراسة القوانين العثمانية بصفة خاصة وتولى شتى الأعمال والمناصب للحكومة، وأنشأ جريدة حرَّة في حلب اسمها «الشهباء» وتعرَّض لعداء الولاة في حلب، وكان قوي الشعور بفساد حال المسلمين فخصص جزءاً كبيراً من حياته في تعرّف أحوالهم في جميع أقطار الأرض وتشخيص أمراضهم وتلمُّس العلاج لهم، فساح في بلاد المسلمين من الشرق إلى الغرب حتى وافته المنية في مصر يوم ٦ من ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هـ.

(٢) خوِر خوراً فتر وضعف.

من يستحي من الصلاة في غير الخلوات ، وكإهمال التمسك بالعادات القومية ، فمنهم من يستحي من عمامته ، وكالبعد عن الاعتزاز بالعشيرة كأن قومهم من سقط البشر ، وكنبذ التحزب للرأي كأنهم خلقوا قاصرين ، وكالغفلة عن إيثار الأقربين في المنافع ، وكالقعود عن التناصر والتراحم بينهم كي لا يشم من ذلك رائحة التعصب الديني ، وإن كان على الحق إلى نحو ذلك من الخصال الذميمة في أهل الخَور من المسلمين الحميدة في الأجانب ، لأن الأجانب يموهون عليهم بأنهم يحسنون التحلي بها دونهم.

وهؤلاء الواهنة يحق لهم أن تشق عليهم مفارقة حالات ألفوها عمرهم ، كما قد يألف الجسم السقم فلا تلذ له العافية فإنهم منذ نعومة أظفارهم تعلموا الأدب مع الكبير يقبِّلون يده أو ذيله أو رجله ، وألفوا الاحترام فلا يدوسون الكبير ولو داس رقابهم ، وألفوا الثبات ثبات الأوتاد تحت المطارق[١] ، وألفوا الانقياد ولو إلى المهالك ، وألفوا أن تكون وظيفتهم في الحياة دون النبات ، ذاك يتطاول وهم يتقاصرون ، ذاك يطلب السماء وهم يطلبون الأرض ، كأنهم للموت مشتاقون.

وهكذا طول الألفة على هذه الخصال قلب من فكرهم الحقائق وجعل عندهم المخازي مفاخر ، فصاروا يسمون التصاغر أدباً ، والتذلل لطفاً ، والتملق فصاحة ، واللكنة رزانة ، وترك الحقوق سماحة ، وقبول الإهانة تواضعاً ، والرضاء بالظلم طاعة ، كما يسمون دعوى الاستحقاق غروراً ، والخروج عن الشأن الذاتي فضولاً ، ومد النظر إلى الغد أملاً ، والإقدام تهوراً[٢] ، والحمية حماقة ، والشهامة[٣] شراسة[٤] ،

(١) المطرق والمطرقة آلة من حديد ونحوه يضرب به الحديد ونحوه جمعه مطارق.

(٢) تهور الرجل وقع في الأمر بقلة مبالاة.

(٣) الشهامة الحرص على مباشرة أمور عظيمة تستتبع الذكر الجميل.

(٤) شرس الرجل شراسة وشرساً وشريساً كان سيىء الخلق شديد الخلاف.

وحرية القول وقاحة ، وحب الوطن جنوناً .

وليعلم أن الناشئة الذين تعقد الأمة آمالها بأحلامهم عسى يصدق منها شيء وتتعلق الأوطان بحبال همتهم عساهم يأتون فعلاً ، هم أولئك الشباب ومن في حكمهم المحمديون المهذبون الذين يقال فيهم : إن شباب رأي القوم عند شبابهم ، الذين يفتخرون بدينهم فيحرصون على القيام بمبانيه الأساسية نحو الصلاة والصوم ، ويتجنَّبون مناهيه الأصلية نحو الميسر والمسكرات ، الذين لا يقصرون بناء قصور الفخر على عظام نخرها الدهر ، ولا يرضون أن يكونوا حلقة ساقطة بين الأسلاف والأخلاف ، الذين يعلمون أنهم خلقوا أحراراً ، فيأبون الذل والإسار ، الذين يودون أن يموتوا كراماً ، ولا يحيون لئاماً ، الذين يجهدون أن ينالوا حياة رضية ، حياة قوم كل فرد منهم سلطان مستقل في شؤونه لا يحكمه غير الدين ، وشريك أمين لقومه يقاسمهم ويقاسمونه الشقاء والهناء ، وولد بار لوطنه لا يبخل عليه بجزء طفيف من فكره ووقته وماله ، الذين يحبون وطنهم حب من يعلم أنه خلق من تراب ، الذين يعشقون الإنسانية ويعلمون أن البشرية هي العلم ، والبهيمية هي الجهالة ، الذين يعتبرون أن خير الناس أنفعهم للناس ، الذين يعرفون أن القنوط وباء الآمال ، والتردد وباء الأعمال ، الذين يفقهون أن القضاء والقدر هما السعي والعمل ، الذين يوقنون أن كل ما على الأرض من أثر هو من عمل أمثالهم البشر فلا يتخيلون إلا المقدرة ولا يتوقعون من الأقدار إلا خيراً .

وأما الناشئة المتفرنجة[١] فلا خير فيهم لأنفسهم فضلاً عن أن ينفعوا أقوامهم وأوطانهم شيئاً ، وذلك لأنهم لا خلاق لهم تتجاذبهم الأهواء كيف شاءت لا يتبعون مسلكاً ، ولا يسيرون على ناموس[٢] مطَّرد[٣]

---

(١) المتفرنجة المتشبهة بالفرنجة والمتخلِّقة بأخلاقها .

(٢) الشريعة والمبدأ .

(٣) قياس مطرد أي عام لا شذوذ فيه .

لأنهم يحكمون الحكمة فيفتخرون بدينهم ولكن لا يعملون به تهاوناً وكسلاً ، ويرون غيرهم من الأمم يتباهون بأقوامهم ويستحسنون عاداتهم ومميّزاتهم فيميلون لمناظرتهم ولكن لا يقوون على ترك التفرنج كأنهم خلقوا أتباعاً ، ويجدون الناس يعشقون أوطانهم فيندفعون للتشبه بهم في التشبيب[١] والإحساس فقط دون التشبُّث بالأعمال التي يستوجبها الحب الصادق والحاصل أن شؤون الناشئة المتفرنجة أيضاً لا تخرج عن تذبذب تلون ونفاق يجمعها وصف «لا خلاق» والواهنة خير منهم متمسكون بالدين ولو رياء ، وبالطاعة ولو عمياء ، على أنه يوجد في المتفرنجة أفراد غيورون كالراسخين من أحرار الأتراك والملتهبين غيرة تقتضي احترام مزيتهم[٢] .

* * *

(١) شَبَّب الشاعر بفلانة قال فيها النسيب ووصف محاسنها .

(٢) أم القرى للسيد عبد الرحمن الكواكبي .

رسَـالة محمَّد ﷺ

للشيخ محمد عبده[١]

كانت دولتا العالم ـ دولة الفرس في الشرق ودولة الرومان في الغرب ـ في تنازع وتجالد مستمر: دماء بين العالمين مسفوكة، وقوى منهوكة، أموال هالكة، وظلم من الإحن[٢] حالكة[٣]، ومع ذلك فقد كان الزهو[٤]

---

(١) ولد الشيخ محمد عبده عام ١٢٦٦ في أسرة فلاَّحين، وتعلَّم في الجامع الأزهر ـ وهو على النمط القديم ـ فقضى فيه نحو اثني عشر عاماً، ونال شهادة العالمية، والتقى بالسيد جمال الدين الأفغاني فلزمه وتشبَّع بأفكاره وتشرَّب من روحه، واتصل بالتدريس والصحافة والوظائف، وحكم عليه في الثورة العرابية بالنفي ثلاث سنوات أقام خلالها في بيروت، ودعاه أستاذه السيد جمال الدين إلى باريس فلبَّاه واشترك معه في إخراج مجلّة «العروة الوثقى» كان للسيد فيه التوجيه والروح وللشيخ التحرير والصياغة، وأقلقت الانجليز والفرنسيين واضطهدوها فاحتجبت بعد ظهور ثمانية عشر عدداً، وقد بذرت بذوراً في العالم الإسلامي وأثارت الأفكار، وعاد محمد عبده إلى بيروت عالماً ومعلماً، وشرح نهج البلاغة ومقامات بديع الزمان وشغل نفسه بالتدريس. ورجع إلى مصر بعدما عفي عنه، وتقلَّب في وظائف القضاء حتى عين مفتياً وعضواً دائماً في مجلس شورى القوانين، واشتغل بإصلاح الأزهر وإصلاح برامج التعليم وتهيئة الأفكار مقلعاً عن السياسة العملية، متمتّعاً بحماية ممثلي الدولة البريطانية في مصر. وعُني الشيخ محمد عبده بإصلاح أساليب اللغة العربية. وقد دعا إلى تدريس كتب المتقدمين الذين كانوا أصحاب الذوق الأصيل وكان سبباً في نهضة لغوية أدبية في مصر وتحول الكتابة من كتابة مسجوعة سخيفة إلى كتابة مرسلة جميلة، وخلَّف مدرسة فكرية تأخذ بتعاليمه في الأقطار الإسلامية المختلفة، توفي سنة ١٩٠٥ م.

(٢) جمع إحنة وهي الحقد.

(٣) مظلمة.

(٤) الفخر والتيه..

والترف والإسراف والفخفخة[١] والتفنن في الملاذ بالغة حد ما لا يوصف في قصور السلاطين والأمراء والقواد ورؤساء الأديان من كل أمة. وكان شره[٢] هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حد، فزادوا في الضرائب وبالغوا في فرض الإتاوات[٣] حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم، وأتوا على ما في أيديها من ثمرات أعمالها. وانحصر سلطان القوي في اختطاف ما بيد الضعيف، وفكر العاقل في الاحتيال لسلب الغافل، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضروب الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الأمن على الأرواح والأموال.

غمرت مشيئة الرؤساء إرادة من دونهم فعاد هؤلاء كأشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب، ويظنها الناظر إليها من ذوي الألباب، ففقد بذلك الاستقلال الشخصي، وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا إلا لخدمة ساداتهم، وتوفير لذاتهم، كما هو الشأن في العجماوات[٤] مع من يقتنيها[٥]، ضلت السادات في عقائدها وأهوائها، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها، ولكن بقي لها من قوة الفكر أردأ بقاياها، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص[٦] النور الإلهي الذي يخالط الفطر الإنسانية قد يفتق الغلف التي أحاطت بالقلوب، ويمزق الحجب التي أسدلت على العقول، فتهتدي العامة إلى السبيل، ويثور الجم الغفير على العدد القليل، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحباً من الأوهام، ويهيئوا كسفاً من الأباطيل والخرافات، ليقذفوا في عقول العامة، فيغلظ

(١) الفخر بالباطل.
(٢) الحرص الشديد.
(٣) الجبايات والضرائب.
(٤) جمع عجماء وهي البهيمة.
(٥) يكتسبها ويربّيها.
(٦) تلألؤه وإشراقه.

الحجاب ويعظم الرَّيْنُ ، ويختنق بذلك نور الفطرة ، ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم ، وصرح الدين بلسان رؤسائه أنه عدو العقل ، وعدو كل ما يثمره النظر ، إلا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس ، وكان لهم في المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ، ومدد لا ينفد.

هذه حالة الأقوام كانت في معارفهم ، وذلك كان شأنهم في معايشهم ، عبيد أذلاء ، حيارى في جهالة عمياء ، اللهم إلا بعض شوارد[١] من بقايا الحكمة الماضية ، والشرائع السابقة ، أوت إلى بعض الأذهان ، ومعها مقت الحاضر ، ونقص العلم بالغابر.

ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها بما انقلب من الوضع وانعكس من الطبع ، فكان يرى الدنس في مظنة الطهارة ، والشره حيث تنتظر القناعة ، والدعارة[٢] حيث ترجى السلامة والسلام ، مع قصور النظر عن معرفة السبب ، وانصرافه لأول وهلة إلى أن مصدر كل ذلك هو الدين ، فاستولى الاضطراب على المدارك ، وذهب بالناس مذهب الفوضى في العقل والشريعة معاً ، وظهرت مذاهب الإباحيين والدهريين في شعوب متعددة ، وكان ذلك ويلاً عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب.

وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة في النزعات ،خاضعة للشهوات ، فخر كل قبيلة في قتال أختها ، وسفك دماء أبطالها ، وسبي نسائها ، وسلب أموالها ، تسوقها المطامع ، إلى المعامع[٣] ، ويزين لها السيئات ، فساد الاعتقادات ، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حداً صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها ، فلما جاعوا أكلوها ، وبلغوا من تضعضع الأخلاق وهناً قتلوا فيه بناتهم تخلصاً من عار حياتهن أو

---

(١) شواذ.

(٢) الخبث والفسق.

(٣) الحروب والفتن.

تنصلاً[١] من نفقات معيشتهن ، وبلغ الفحش منهم مبلغاً لم يُعد معه للعفاف قيمة ، وبالجملة فكانت ربط[٢] النظام الاجتماعي قد تراخت عقدها في كل أمة ، وانفصمت عراها عند كل طائفة .

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدبهم برجل منهم يوحي إليه رسالته ، ويمنحه عنايته ، ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم ، التي أظلت رؤوس جميع الأمم؟ نعم كان ذلك وله الأمر من قبلُ ومن بعدُ .

في الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول عام الفيل «٢٠ إبريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام» ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي بمكة . ولد يتيماً ، توفي والده قبل أن يولد ، ولم يترك له من المال إلا خمسة جمال وبعض نعاج وجارية ويروى أقل من ذلك .

وفي السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً فاحتضنه جده عبد المطلب . وبعد سنتين من كفالته توفي جده فكفله من بعده عمه أبو طالب وكان شهماً كريماً غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله . وكان ﷺ من بني عمه وصبية قومه كأحدهم على ما به من يُتم فقد فيه الأبوين معاً ، وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ، ولم يقم على تربيته مهذب ، ولم يعن بتثقيفه مؤدب ، بين أتراب من نبت الجاهلية ، وعشراء من حلفاء الوثنية ، وأولياء من عبدة الأوهام ، وأقرباء من حفدة الصنام ، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدناً وعقلاً ، وفضيلة وأدباً ، حتى عرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه بالأمين ، أدب إلهي لم تجر العادة بأن تُزَيَّنَ به نفوس الأيتام من الفقراء ، خصوصاً مع فقر القوّام ، فاكتهل ﷺ كاملاً والقوم ناقصون ، رفيعاً والقوم منحطون ، موحِّداً وهم وثنيون ، سِلماً

(١) خروجاً وتخلُّصاً .

(٢) الربط بضمتين جمع رباط وهو ما يربط به .

وهم شاغبون ، صحيح الاعتقاد وهم واهمون ، مطبوعاً على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون.

من السنن المعروفة أن يتيماً فقيراً أمّياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه ولا سيما إن كان من ذوي قرابته ، وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ولا أستاذ ينبهه ، ولا عضد إذا عزم يؤيده ، فلو جرى الأمر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم ، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع إلى مخالفتهم ، إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده ، ولكن الأمر لم يجر على سنته ، بل بغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة ، وما جاء في الكتاب من قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧] لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد ، أو على غير السبيل القويم ، قبل الخلق العظيم ، حاش لله ، إن ذلك هو الإفك المبين ، وإنما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطلب السبيل إلى ما هدوا إليه من إنقاذ الهالكين ، وإرشاد الضالين. وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته ، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته.

وجد شيئاً من المال يسد حاجته «وقد كان له في الاستزادة منه ما يرفه معيشته» بما عمل لخديجة رضي الله عنها في تجارتها ، وبما اختارته بعد ذلك زوجاً لها ، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناءٌ له ، وعون على بلوغه ما كان عليه أعاظم قومه ، لكنه لم ترقه الدنيا. ولم تغره زخارفها ، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله في الوصول إلى ما ترغبه الأنفس من نعيمها ، بل كلما تقدمت به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة ،

ونما فيه حب الانفراد والانقطاع إلى الفكر والمراقبة ، والتحنث[١] بمناجاة الله تعالى ، والتوسل إليه في طلب المخرج من همه الأعظم في تخليص قومه ونجاة العالم من الشر الذي تولاه - إلى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه إليه الإلهام الإلهي ، وتجلّى عليه النور القدسي ، وهبط عليه الوحي من المقام العلي . في تفصيل ليس هذا موضعه .

ولم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سلب من ملكه . وكانت نفوس قومه في انصراف تام عن طلب مناصب السلطان ، وفي قناعة بما وجدوه من شرف النسبة إلى المكان ، دل عليهما ما فعله جده عبد المطلب عند زحف أبرهة الحبشي على ديارهم ، جاء الحبشي لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام ، وبيتهم الحرام ، ومنتجع[٢] حجيجهم ومستوى العلية من آلهتهم ، ومنتهى حجة القرشيين في مفاخرتهم لبني قومهم . وتقدم بعض جنده فاستاق عدداً من الإبل فيها لعبد المطلبما ئتابعير ، وخرج عبد المطلب في بعض قريش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته ، فقال هي أن ترد إليّ مائتي بعير أصبتها لي ، فلامه الملك على المطلب الحقير ، وقت الخطب الخطير ، فأجابه : أنا رب الإبل وأما البيت فله رب يحميه .

هذا غاية ما ينتهي إليه الاستسلام - وعبد المطلب في مكانتهمن الرئاسة على قريش - فأين من تلك المكانة محمد ﷺ في حاله من الفقر ، ومقامه في الوسط من طبقات أهله ، حتى ينتجع ملكاً أو يطلب سلطاناً؟ لا مال لا جاه ، لا جند لا أعوان ، لا سليقة[٣] في الشعر ، لا براعة في الكتاب ، لا شهرة في الخطاب ، لا شيء كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة أو يرقى به إلى مقام ما بين الخاصة .

ما هذا الذي رفع نفسه فوق النفوس؟ ما الذي أعلى رأسه على

---

(١) التعبُد .

(٢) الموضع يقصده الناس في طلب الكلأ .

(٣) الطبيعة .

الرؤوس؟ ما الذي سما بهمته على الهمم ، حتى انتدب[١] لإرشاد الأمم وكفالته لهم كشف الغمم . بل وإحياء الرِّمم[٢]؟

ما كان ذلك إلا ما ألقى الله في رُوعه[٣] من حاجة العالم إلى مقوم لما زاغ عن عقائدهم ، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم ، ما كان ذلك إلا وجدانه ريح العناية الإلهية تنصره في عمله ، وتمده في الانتهاء إلى أمله ، قبل بلوغ أجله . ما هو إلا الوحي الإلهي يسعى نوره بين يديه يضيء له السبيل ، ويكفيه مؤنة الدليل ، ما هو إلا الوحي السماوي ، قام لديه مقام القائد والجندي . أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة إلى التوحيد ، والاعتقاد بالعلي المجيد ، والكل ما بين وثنية مفرقة ، ودهرية وزندقة؟

نادى في الوثنيين بترك أوثانهم ونبذ معبوداتهم ـ وفي المشبهين المنغمسين في الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم ـ وفي الثانوية بإفراد إله واحد بالتصرف في الأكوان ورد كل شيء في الوجود إليه ـ أهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم إلى ما وراء حجاب الطبيعة فيتنوروا سر الوجود الذي قامت به . صاح بذوي الزعامة ليهبطوا إلى مصاف العامة ، في الاستكانة إلى سلطان معبود واحد ، هو فاطر السموات والأرض ، والقابض على أرواحهم في هياكل أجسادهم .

تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى ، فبين لهم بالدليل ، وكشف لهم بنور الوحي ، أن نسبة أكبرهم إلى الله كنسبة أصغر المعتقدين بهم ، وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية ، إلى أدنى سلم من العبودية ، والاشتراك مع كل ذي نفس إنسانية ، في الاستعانة برب واحد يستوي جميع الخلق في النسبة

(١) قام ونهض .
(٢) العظام البالية .
(٣) الذهن والعقل .

إليه ، لا يتفاوتون إلا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة.

وخز[1] بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ، ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له ، ويحلوا أغلالهم التي أخذت بأيديهم عن العمل ، واقتطعتهم دون الأمل ـ مال على قراء الكتب السماوية ، والقائمين على ما أودعته من الشرائع الإلهية ، فبكَّت[2] الواقفين عند حروفها بغباوتهم ، وشدد النكير على المحرفين لها ، الصارفين لألفاظها إلى غير ما قصد من وحيها ، اتباعاً لشهواتهم ، ودعاهم إلى فهمها ، والتحقق بسر علمها ، حتى يكونوا على نور من ربهم.

ولفت كل إنسان إلى ما أودع فيه من المواهب الإلهية ، ودعا الناس أجمعين ذكوراً وإناثاً عامة وسادات إلى عرفان أنفسهم ، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل ، وميزه بالفكر ، وشرفه بهما وبحرية الإرادة فيما يرشده إليه عقله وفكره ، وأن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة ، والفضيلة الكاملة. وأقدرهم بذلك على أن يصلوا إلى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد ، إلا من خصهم الله بوحيه ، وقد وكل إليهم معرفتهم بالدليل ، كما كان الشأن في معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع. والحاجة إلى أولئك المصطفين إنما هي في معرفة الصفات التي أذن الله أن تعلم منه ، وليست في الاعتقاد بوجوده ـ وقرر أن لا سلطان لأحد من البشر على آخر منه إلا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل. ثم الإنسان بعد ذلك يذهب بإرادته إلى ما سخرت له بمقتضى الفطرة.

دعا الإنسان إلى معرفة أنه جسم وروح ، وأنه بذلك من عالمين

---

(١) طعن.

(٢) بكَّت عنَّف وقرّع ومنه تبكيت الضمير.

متخالفين ، وإن كانا ممتزجين ، وأنه مطالب بخدمتهما جميعاً وإيفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الإلهية من الحق.

دعا الناس كافة إلى الاستعداد في هذه الحياة لما سيلاقونه في الحياة الأخرى ، وبين لهم أن خير زاد يتزوده العامل هو الإخلاص لله في العبادة ، والإخلاص للعباد في العدل والنصحية والإرشاد.

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ، ولا حول له ولا قوة ، كل هذا كان منه والناس أحباء ما ألفوا وإن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة ، أعداء ما جهلوا وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة ، كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم ، وعبيد شهواتهم ، لا يفقهون دعوته ، ولا يعقلون رسالته ، عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة ، وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر في دعوى فقير أمي مثله ، لا يرون فيه ما يرفعه إلى نصيحتهم والتطاول إلى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف.

لكنه في فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ، ويناضلهم بالدليل ، ويأخذهم بالنصيحة ، ويزعجهم بالزجر ، وينبههم للعبر ، ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة ، كأنما هو سلطان قاهر في حكمه ، عادل في أمره ونهيه ، أو أب حكيم في تربية أبنائه ، شديد الحرص على مصالحهم ، رؤوف بهم في شدته ، رحيم في سلطته.

ما هذه القوة في ذلك الضعف؟ ما هذا السلطان في مظنة العجز؟ ما هذا العلم في تلك الأمية؟ ما هذا الرشاد في غمرات الجاهلية؟ إن هو إلا خطاب الله القادر على كل شيء الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً ، ذلك أمر الله الصادع ، يقرع الآذان ، ويشق الحجب ، ويمزق الغلف ، وينفذ إلى القلوب ، على لسان من اختاره لينطق به ، واختصه بذلك وهو أضعف قومه ، ليقيم من هذا الاختصاص برهاناً عليه بعيداً عن الظنة ، بريئاً من التهمة ، لإتيانه على غير المعتاد بين خلقه.

أي برهان على النبوة أعظم من هذا؟ أمي قام يدعو الكاتبين إلى فهم ما يكتبون وما يقرؤون ، بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون ، في ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء ، ناشىء بين الواهمين لتقويم عوج الحكماء ، غريب في أقرب الشعوب إلى سذاجة الطبيعة ، وأبعدها عن فهم نظام الخليقة ، والنظر في سننه البديعة ، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ، ويخط للسعادة طرقاً لن يهلك سالكها ، ولن يخلص تاركها .

ما هذا الخطاب المفحم؟ ما ذلك الدليل الملجم؟ أأقول ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم؟ لا ، لا أقول ذلك ، ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه : إن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه ، نبي صدق الأنبياء ولكن لم يأت في الإقناع برسالته بما يلهي الأبصار ، أو يحير الحواس ، أو يدهش المشاعر . ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له . واختص العقل بالخطاب ، وحاكم إليه الخطأ والصواب وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة ، وآية الحق الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1] [فصلت : ٤٢] .

* * *

(١) رسالة التوحيد .

الكوخ وَالقصر

للسيد مصطفى لطفي المنفلوطي[(١)]

أنا إن كنت حاسداً أحداً على نعمة فإني أحسد صاحب الكوخ على كوخه ، قبل أن أحسد صاحب القصر على قصره ، ولولا أن للأوهام سلطاناً على النفوس لما تضاءل الفقراء بين أيدي الأغنياء ، ولا وَرِمَ أنف الأغنياء أن يتخذهم الفقراء أرباباً من دون الله .

أنا لا أغبط الغنيّ إلاَّ في موطن واحد من مواطنه ، إن رأيته يشبع الجائع ، ويواسي الفقير ، ويعود بالفضل من ماله على اليتيم الذي سلبه الدهر أباه ، والأرملة التي فجعها القدر في عائلها[(٢)] ، ويمسح بيده دمعة البائس والمحزون ، ثم أرثي له بعد ذلك في جميع مواطنه الأخرى .

أرثي له إن رأيته يتربّص وقوع الضائقة بالفقير ليَدخل عليه مدخل الشيطان من قلب الإنسان فيمتص الثمالة[(٣)] الباقية له من ماله ليسدَّ في

---

(١) وُلد السيد مصطفى لطفي في منفلوط من أعمال مديرية أسيوط في مصر ، حفظ القرآن الكريم وتعلّم في الأزهر وواظب على دروس الشيخ محمد عبده ، وعكف على كتب البلغاء ودواوين الشعراء يقرأ ويحفظ ويستظهر وهو أديب مطبوع يرسل النثر حلواً مسلسلاً محبوكاً ، كان دقيق الحس ، رقيق العاطفة ، رشيق القلم سهل البيان ، حلو العبارة ، مشرق الديباجة ، كان يكتب في صحيفة المؤيد بعنوان «نظرات» يقرؤها الأدباء والشبان برغبة وجمعت في كتاب أسماه «النظرات» وله كتاب «العبرات» ومختارات المنفلوطي وروايات أشهرها «ماجدولين» توفي سنة ١٩٢٤ م .

(٢) عال الرجل عياله كفاهم معاشهم .

(٣) ما يبقى في أسفل الإناء أو الحوض من ماء وغيره .

وجهه باب الأمل ، وأرثي له إن رأيته يعتقد أنّ المال هو منتهى الكمال الإنساني ، فلا يطمع في فضيلة ، ولا يحاسب نفسه على رذيلة ، وأرثي له وأبكي على عقله إن مشى الخيلاء ، وطاول بعنقه السماء ، وسلم بإيماء الطرف ، وإشارة الكف ، ومشى في طريقه يخزر[١] بعينيه خزراً ليرى هل سجد الناس لمشيته ، أو صعقوا من هيبته ، وأرحمه الرحمة كلها أن عاش شحيحاً جعداً مقتِّراً على نفسه وعياله ، بغيضاً إلى قومه وأهله ، ينقمون عليه حياته ، ويستبطئون ساعة حتفه .

أما الفقير فهو أسعد الناس عيشاً ، وأروحهم بالاً إلا إذا كان جاهلاً مخدوعاً يظن أنّ الغنيّ أسعد منه حظّاً ، وأرغد عيشاً ، وأثلج صدراً ، فيحسده على النعمة التي أسبغها الله عليه ، ويجلس في كسر[٢] بيته جلسةَ الكئيبِ المحزون ، يصعِّد الزفرة فالزفرة ، ويرسل العَبرة فالعَبرة ، ولولا جهله وبلاهة عقله لعلم أن رُبَّ صاحب قصر يتمنّى كوخَ الفقير وعيشَه ، ويرى أن ذلك السراج الضعيف الذي لا يكاد ينير نفسه أسطع ذبالا ، وأكثر لألاء ، من تلك الشموع الباهرات التي تأتلق[٣] بين يديه ، وأن تلك الحشيّة[٤] من الشَّعر أو الوَبر أنعم ملمساً ، وألين مضجعاً ، من وسائد الحرير ونضائد[٥] الديباج .

ولقد بلغ الضعف وصغر النفس بكثير من الناس أنهم يحفلون بالأغنياء لأنهم أغنياء ، وإن كانوا لا ينالون منهم ما يبُلُّ غُلَّة ، أو يسيغ غصَّة ، وليت شعري إن كان لابدَّ لهم من إجلال المال وإعظامه حيث وُجد فلِمَ

---

(١) خزر يخزُر خزراً من باب نصر ، نظر بمؤخّر عينه وتداهى ، وخزر من باب سمع ضاقت عينه فهو أخزر .

(٢) الكسر والكسر الجانب من البيت .

(٣) ائتلق البرق ولمع .

(٤) الفراش المحشوّ .

(٥) النضيدة الوسادة .

لا يقبّلون أيدي الصيارفة ولا ينهضون إجلالاً للكلاب المطوقة بالذهب ، وهم يعلمون أن لا فرق بين هؤلاء وهؤلاء .

لو عاملَ الفقراءُ بخلاءَ الأغنياءِ بما يجب أن يعامَلوا به لوجدوا أنفسهم في وحشة أنفسهم ، ولشعروا أن بدرات الذهب التي يكنزونها إنما هي أساود ملتفة على أقدامهم ، وأغلال آخذة بأعناقهم ، ولعلموا أن الشرف في كمال الأدب ، لا في رنين الذهب ، وفي جلائل الأعمال لا في أحمال المال .

فليعظِّم الناسُ الكرماءَ ، وليحتقروا الأغنياءَ ، وليعلموا أنَّ الشرف شيء وراء الغنى والفقر ، وأنَّ السعادة أمر وراء الكوخ والقصر[1] .

* * *

(١) النظرات للمنفلوطي .

سيدي أحمد الشريف السّنوسي

للأمير شكيب أرسلان[١]

عندما قدمت إلى الآستانة في أواخر سنة ١٩٢٣، وهي أول مرة دخلتها بعد الحرب قررت لأجل الاستجمام[٢] من عناء الأشغال وترويح[٣] النفس بعد طول النضال[٤]، أن أسكن ببلد صغير تتهيَّأ لي فيه العزلة وتسهل الرياضة، ويكون دانياً من وطني سورية لملاحظة شغلي

(١) هو أمير البيان وكاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان، من بيت الأمراء الدروز العرب في الشام، يتصل نسبه بالملك المنذر بن النعمان الشهير بأبي قابوس، ولد عام ١٨٦٩ في الشويفات، واشتغل بالأدب والإنشاء والسياسة من أوائل عمره، وأفاد من صحبة السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، ونشأ على حبّ هذه المدرسة وحبِّ العقيدة الإسلامية، وانتخب مبعوثاً في مجلس «المبعوثان» التركي، وحضر الحرب في طرابلس، ثم انتقل إلى جنيف حيث قضى معظم عمره في الدفاع عن قضايا المسلمين والعرب، وحرّم عليه قلمه أن يطأ بقدمه أكثر البلاد الإسلامية، وانتقل في آخر حياته إلى وطنه وتوفي في ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٤٦ في بيروت، ودفن في الشويفات وكان قد أوصى أن يُغَسَّلَ ويُكفن ويُصلّى عليه على طريقة أهل السُّنَّة. رحمه الله تعالى.

يمتاز الأمير بين كُتَّاب هذا العصر بالرسوخ في اللغة العربية، والتضلُّع في أمثال العرب والأساليب القديمة، يعطف على السجع أحياناً، وله في الكلام المرسل إحسان وإبداع، ألَّف عشراتٍ من المؤلفات وكتب ألوفاً من الصفحات أحسنها وأشهرها حواشيه على حاضر العالم الإسلامي، وترجمة السيد السنوسي ملتقطة منها.

(٢) الاستراحة يقال: «إني لأستجم قلبي بشيء من اللهو» أي إني لأجعل قلبي يتفكَّه بشيء من اللهو.

(٣) الإراحة.

(٤) الحرب والعمل وأصله الرمي بالسهام وكان الأمير مشغولاً في حرب طرابلس.

الخاص، وتعهد أملاكي فيها، فاخترت مرسين[١]، وألقيت مرساة[٢] غربتي فيها.

وكان السيد السنوسي بلغه قدومي إلى دار السعادة، فكتب لي يرغب إليَّ في سرعة المجيء ويرحّب بي. فلما جئت إلى مرسين، ذهبت تواً[٣] لزيارته فأبى إلاَّ أن أنزل عنده، ريثما أكون استأجرت منزلاً في البلدة، وقد رأيت في هذا السيد السند بالعيان ما كنت أتخيله عنه بالسماع، وحُقَّ لي والله أن أنشد:

كانت محادثـةُ الركبانِ تُـخْبرنا عن جعفر بن فلاحٍ أطيبَ الخَبَرِ
حتى التقَيْنا فلا واللهِ ما سَمِعَتْ أذني بأحسنَ مما قد رأى بَصَري

رأيت في السيد حبراً جليلاً، وسيداً غطريفاً[٤]، وأستاذاً كبيراً، من أنبل[٥] مَنْ وَقَعَ نظري عليهم مدةَ حياتي، جلالةَ قدرٍ، وسراوةَ[٦] حالٍ ورجاحةَ عقلٍ، وسجاحة[٧] خُلُقٍ، وكرمَ مهزةٍ وسرعةَ فهمٍ، وسدادَ رأيٍ، وقوةَ حافظةٍ، مع الوقار الذي لا تغض من جانبه الوداعة، والورع الشديد في غير رئاءٍ ولا سُمعةٍ.

سمعت أنه لا يرقدُ في الليل أكثرَ من ثلاث ساعاتٍ، ويقضي سائرَ ليله في العبادة والتلاوة، والتهجُّد، ورأيتُه مراراً تنفج[٨] بين يديه السُّفَرُ

(١) بلد واقع على شاطىء البحر الأبيض من سواحل تركيا وهو آخرها مما يلي سورية وبعده إسكندرونة.
(٢) أَنْجَرُ السفينة ج مراسٍ وإلقاء المرساة كناية عن الإقامة يقال ألقى مراسيه أي أقام.
(٣) يقال جاء تواً أي قاصداً لا يعرجه شيء.
(٤) بالكسر السريّ، السيد، الحسن ج غطارفة وغطاريف.
(٥) ذو نجابة وفضيل.
(٦) المروءة والسخاء.
(٧) دماثة الخلق ولينه وسهولته.
(٨) تبسط.

الفاخرة اللائقة بالملوك فيأكل الضيوف والحاشية[١] ويجتزيء[٢] هو بطعام واحد لا يصيب منه إلا قليلاً ، وهكذا هي عادته.

وله مجلس كل يوم بين صلاتَيْ الظهر والعصر لتناول الشاي الأخضر الذي يؤثره المغاربةُ. فيأمر بحضور من هناك من الأضياف ورجال المعيَّة ، ويتناول كلٌّ منهم ثلاثةَ أقداحِ شايٍ ممزوجاً بالعنبر. فأما هو فيتحامى[٣] شرب الشاي لعدم ملاءمته لصحته ، وقد يتناول قدحاً من النعناع.

ومن عادته أنه يوقد في مجالسه غالباً الطيب ، وينبسط السيد إلى الحديث ، وأكثر أحاديثه في قصص رجال الله وأحوالهم ورقائقهم وسير سلفه السيد محمد بن علي بن السنوسي ، والسيد المهدي ، وغيرهما من الأولياء والصالحين. وإذا تكلم في العلوم قال قولاً سديداً ، سواء في علم الظاهر والباطن.

وقد لحظت منه صبراً قلَّ أن يوجدَ في غيره من الرجال ، وعزماً شديداً تلوح سيماؤه[٤] على وجهه ، فبينا هو في تقواه من الأبدال إذا هو في شجاعته من الأبطال. وقد بلغني أنه كان في حرب طرابلس يشهد كثيراً من الوقائع بنفسه ، ويمتطي[٥] جواده[٦] بضع عشرة ساعة على التوالي بدون كلال[٧] ، وكثيراً ما كان يغامر[٨] بنفسه ولا يقتدي بالأمراء وقوّاد

(١) أهل الرجل وخاصته ج حواشٍ.

(٢) يكتفي.

(٣) يحترز ويتجنب.

(٤) العلامة والهيئة.

(٥) يركب.

(٦) الفرس السريع ج جياد وأجياد وأجاويد.

(٧) التعب والإعياء.

(٨) يقاتل ولم يبالِ الموت.

الجيوش الذين يتأخرون عن ميدان الحرب مسافة كافية ، أن لا تصل إليهم يدُ العدو فيما لو وقعت هزيمة . وفي إحدى المرار أوشك أن يقع في أيدي الطليان[١] ، وشاع أنهم أخذوه أسيراً ، وقد سألته عن تلك الواقعة فحكى لي خبرها بتفاصيله ، وهو أنه كان ببرقة فبلغ الطليان بواسطة الجواسيس أن السيد في قلة من المجاهدين ، وغير بعيد عن جيش الطليان ، فسرحوا[٢] إليه قوة عدة آلاف ومعها كهرباة خاصة لركوبه ، إذ كان اعتقادهم أنه لا يفلت[٣] من أيديهم تلك المرة ، فبلغه خبر زحفهم[٤] وكان يمكنه أن يخيم[٥] عن اللقاء أو أن يتحرف[٦] بنفسه إلى جهة يكون فيها بمنجاة من الخطر ، أو يترك الحرب للعرب تصادمهم فلم يفعل ، وقال لي: «خفت أنني إن طلبت النجاة بنفسي أصاب المجاهدين الوهل[٧] ، فدارت عليهم الدائرة[٨] ، فثبتُّ للطليان وهم بضعة آلاف بثلثمائةمقاتل لا غير ، واستمات[٩] العرب وصدموا العدو ، فلما رأى وفرة[١٠] من وقع من القتلى والجرحى ارتدوا على أعقابهم ، وخلصنا نحن إلى جهة وافتنا فيها جموع المجاهدين» .

قال لي: وفي هذه الوقعة جرح الضابط نجيب الحوراني ، الذي كان

---

(١) أهل إيطاليا .
(٢) أرسلوا ووجّهوا .
(٣) لا يتخلص .
(٤) مشيهم يقال «زحف العسكر إلى العدو» إذا مشوا إليهم في ثقل لكثرتهم بابه فتح .
(٥) أن يعدل وينصرف .
(٦) ينحرف ويميل .
(٧) الفزع .
(٨) النازلة والمصيبة ج دوائر يقال «دارت عليهم الدوائر» أي نزلت بهم النوائب والدواهي .
(٩) أي ثبتوا وطلبوا الموت .
(١٠) الكثرة .

من أشجع أبطال الحرب الطرابلسية ، كان قائداً ولكنه كان يغامس[١] بنفسه في كل واقعة ، فجرح مرتين واستشهد في الثالثة رحمه الله ، ولم يحزن السيد على أحد حزنه عليه لباهر شجاعته وشديد إخلاصه ، وكان السيد يكتب لي من الجبل الأخضر وافر الثناء عليه ، وهو اليوم دائم الترحم عليه ، والشهيد المذكور هو نجيب بك بن الشيخ سعد العلي ، من مشايخ بلاد عجلون ، ترك في بلاد الغرب ذكراً خالداً .

والسيد أحمد الشريف سريع الخاطر ، سيال القلم ، لا يملُّ الكتابة أصلاً ، وله عدة كتب منها كتاب كبير أطلعني عليه في تاريخ السادة السنوسية ، وأخبار الأعيان من مريديهم والمتصلبين بهم ، ينوي طبعه ونشره فيكون أحسن كتاب لمعرفة أخبار السنوسيين .

وإنما يفهم الإنسان من مطالعة أخبار سيدي محمد السنوسي ، وولده سيدي المهدي ، ومحادثة سيدي أحمد الشريف ، أن طريقتهم طريقة عملية ، تعمل بالكتاب والسنة ، ولا تكتفي بالأذكار والأوراد ، دون القيام بعزائم الإسلام ، كما كان عليه الصدر الأول ولذلك وفقوا للجهاد ووقفوا في وجه دولة عظيمة كدولة إيطالية ، منذ ثلاث عشرة سنة ، لولاهم كانت سيدة لطرابلس وبرقة منذ أول شهر من غاراتها عليهما ، ويذكر الناس أن الطليان قدّروا لتدويخ[٢] طرابلس وبرقه كلهما مدة خمسة عشر يوماً من أول نزولهم ، وأن قواداً من الانكليز المُحَنَّكين[٣] في حروب المستعمرات[٤] والبوادي قالوا إنّ الطليان أفرطوا في التفاؤل بظنهم الاستيلاء على بر طرابلس في ١٥ يوماً ، والحقيقة أنه قد تأخذ هذه المسألة معهم ثلاثة أشهر . فلينظر الإنسان كيف أن المدة التي قدرها

---

(١) يغامر بها ويلقيها في الخطر .
(٢) أي القهر والاستيلاء .
(٣) المجرَّبين الذين جعلتهم التجارب حكماء .
(٤) جمع مستعمرة وهي ما تمتلكه دولة من الدول في بلاد غيرها .

أركان الحرب في إيطالية ١٥ يوماً ، وقدَّرها أركان الحرب في إنكلترة ثلاثة أشهر ، تطاولت ثلاث عشرة سنة كاملة ، والحرب اليوم هي كما كانت في بدايتها ، وكل هذا بفضل السادة السنوسية ، ولا سيما هذا السيد العظيم سيدي أحمد الشريف.

وكان الأوربيون في عهد السلطان عبد الحميد يَشْكون إلى السلطان حركة السنوسي ، ويتوجَّسون[١] خيفة من تشكيلاته وحركاته ويرون فيه أعظم خصم للدعوة الأوربية في إفريقية ، وطالما ضغطت[٢] دول أوربا على السلطان لأجل أن يستدعي السيد المهديَّ إلى الآستانة[٣] ويأمره بالإقامة بها ، ولا يأذن له بالعودة إلى وطنه ، ليخلو للأوربيين الجوُّ في تقسيم أواسط إفريقية ، وخضد[٤] الشوكة الإسلامية في تلك الديار فكان السلطان يماطل[٥] هاتيك الدول ، ويعتذر لهم بصنوف الأعذار ، بل كان يلاطف السنوسي كثيراً بالهدايا والكتابات ، إلى أن اشتد الضغط على السلطان في قضية السنوسي ، فأرسل رجلاً اسمه عصمت بك إلى بنغازي[٦] ، ومنها إلى جغبوب[٧] بمأمورية[٨] سرية ، فبلغ المهدي ما هو عليه السلطان من الارتباك[٩] من جهة ضغط الدول عليه ، في أمر الدعاية السنوسية ، فأجابه السيد مهدي بحسب ما قرأت في التاريخ الذي تقدم ذكره ، بكلام لا يتضمن نفياً ولا إيجاباً ، وإنما تلا له آيات كريمة في

(١) يحسون.
(٢) ضيَّقت ، بابه فتح.
(٣) دار الخلافة العثمانية أي القسطنطينية.
(٤) أي الكسر وخضد شوكته قهره وأذلّه.
(٥) أي يسوف بوعد الوفاء مرة بعد أخرى.
(٦) قاعدة برقة.
(٧) موضع.
(٨) أي بمهمة.
(٩) التردد.

معنى الاتكال على الله. ولكن السيد المهدي لم يعتّم[١] بعدها أن فارق الجغبوب إلى واحة[٢] الكفرة وبنى فيها زاوية التاج ، وعمر الكفرة عمارة جعلتها جنة في وسط الصحراء ، والأغلب أن سبب تحوله من واحة الجغبوب القريبة من مصر وبرقة إلى واحة الكفرة التي هي في أواسط الصحراء الكبرى ثم توغله[٣] من الكفرة إلى ناحية قرو التي اختاره الله فيها ، وهي على أبواب السودان هما من ارتياحه إلى العزلة ، وميله إلى التنائي عن مراكز السلطة الرسمية ، والخروج عن مناطق تأثير الدول الاستعمارية بحيث انتبذ مراكز محاطة بالفيافي[٤] والقفار[٥] ، مأهولة[٦] بأقوام لا يزالون على الفطرة ، فأصبح حرّاً في بث دعوته لا تصل إليه يد بضغط ، ولا تعلو فوق كلمته كلمة وعكف على تهذيب تلك الأقوام ، ونشّأهم في طاعة الله بعد أن كانوا يتسكّعون[٧] في مهامه[٨] الجهل فبدّلت به الأرض غير الأرض ، وانقلبت به أخلاق هاتيك الأمم انقلاباً حيّر العقول ، ولم يقف في الدعاية الروحية على واحات الصحراء وأطراف السوادين ، بل بثّ دعاته في أواسط إفريقية فكان منهم مثل الشيخ محمد بن عبد الله السني ، والشيخ حمودة المقعاوي ، والسيد طاهر الدغماري ، ورجالات آخرون جالوا السوادين مبشرين وهادين ، فكان

---

(١) لم يمكث ولم يلبث.

(٢) أرض خصيبة في صحار رملية ج واحات.

(٣) توغل في البلاد ذهب وأبعد.

(٤) جمع فيفاء المفازة لا ماء فيها.

(٥) جمع قفر الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا كلأ ولا ناس ويجمع أيضاً على قفور.

(٦) معمورة.

(٧) تسكع في سيره أو أمره لم يهتد لوجهته.

(٨) جمع مهمه أي المفازة البعيدة.

السيد المهدي هو المزاحم الأكبر لجمعيات المبشرين الأوربية ، والمنبثَّة في قارة إفريقية كلها ، وعلى يده وبسبب دعايته الحثيثة[١] اهتدى للإسلام ملايين من الزنوج ، فلهذا جمعيات المبشرين بأسرها تشكو حزنها ، وبثها من نجاح الإسلام في أواسط إفريقية ، مثل بلاد النيجر ، والكونغو والكامرون، وديار بحيرة تشاد، وتوجه أكثر شكواها إلى الطريقة السنوسية، كما طالعنا ذلك في مؤلفات أوربية عديدة.

هذا من جهة القوة الروحية وأما من جهة القوة المادية ، فقد كان السيد المهدي يهدي هدى[٢] الصحابة والتابعين ، لا يقتنع بالعبادة دون العمل ، ويعلم أن أحكام القرآن محتاجة إلى السلطان ، فكان يحث إخوانه ومريديه دائماً على الفروسيّة والرماية ، ويبث فيهم روح الأَنَفَة والنشاط ، ويحملهم على الطّراد[٣] والجلاد[٤] ويعظِّم في أعينهم فضيلة الجهاد ، وقد أثمر غراس[٥] وعظه في مواقع كثيرة لا سيما في الحرب الطرابلسية التي أثبت بها السنوسية أن لديهم قوة مادية تضارع[٦] قوة الدول الكبرى وتضارع أعظمها جبروتاً وكبراً ، وليست الحرب الطرابلسية وحدها هي التي كانت مظهر بطش السنوسيين بل سبقت لهم حروب مع الفرنسيس في مملكة كانم ومملكة واداي من السودان استمرت من سنة ١٣١٩ إلى سنة ١٣٣٢ هجرية.

وحدثني السيد أحمد الشريف أن عمه المهدي كان عنده خمسون بندقية خاصة به ، وكان يتعاهدها بالمسح والتنظيف بيده لا يرضى أن

(١) السريعة.
(٢) السيرة.
(٣) أي حمل بعضهم على بعض.
(٤) المضاربة بالسيوف.
(٥) ثبات الشجر في الأرض.
(٦) تشابه.

يمسحها له أحد من أتباعه المعدودين بالمئات قصداً وعمداً ليقتدي به الناس ويحتفلوا[١] بأمر الجهاد ، وعُدته[٢] وعَتاده[٣] ، وكان نهار الجمعة يوماً خاصاً بالتمرينات الحربية ، من طراد ورماية ، وما أشبه ذلك ، فكان يجلس السيد في مرقب عالٍ ، والفرسان تنقسم صفين ، ويبدأ الطراد ، فلا ينتهي إلا في آخر النهار ، وأحياناً يضعون هدفاً ، ويأخذون بالرماية حتى كنت ترى طلبة العلم والمريدين أكثرهم فرساناً ورماة ، لكثرة ما كان يأخذهم بهذا المران ، وكان يجيز الذين يسبقون في الطراد ويقرطسون[٤] في الرمي بجوائز ذات قيمة ترغيباً لهم في فضائل الحرب كما أنه كان يوم الخميس من كل أسبوع مخصَّصاً عندهم للشغل بالأيدي فيتركون في ذلك اليوم الدروس كلها ، ويشتغلون بأنواع المهن[٥] من بناء ، ونجارة وحدادة ، ونساجة ، وصحافة وغير ذلك.

لا تجد منهم ذلك اليوم إلا عاملاً بيده ، والسيد المهدي نفسه يعمل بيده لا يفتر حتى ينبه فيهم روح النشاط للعمل ، وكان السيد المهدي وأبوه من قبله يهتمان جد الاهتمام بالزراعة والغرس تستدل على ذلك من الزوايا التي شادوها[٦] ، والجنان التي نسَّقوها بجوارها ، فلا تجد زاوية إلا لها بستان أو بساتين ، وكانوا يستجلبون أصناف الأشجار الغريبة إلى بلادهم من أقاصي البلدان ، وقد أدخلوا في الكفرة وجغبوب زراعات وأغراساً لم يكن لأحد هناك عهد بها ، وكان بعض الطلبة يلتمسون من السيد محمد السنوسي أن يعلمهم الكيمياء فيقول لهم: «الكيمياء تحت

---

(١) احتفل بالأمر أحسن القيام به.

(٢) بالضم ماأعددته لحوادث الدهر من مال وسلاح ج عُدد.

(٣) بالفتح ما أعد لأمر ماوكل ما هيىء من سلاح ودواب وآلة حرب ج أعتُد وعُتُد وأعتِدَة.

(٤) قرطس أصاب القرطاس أي الغرض.

(٥) جمع مهنة أي العمل.

(٦) شاد البناء رفعه بابه ضرب.

سكة[١] المحراث[٢]» وأحياناً يقول لهم: «الكيمياء هي كد اليمين[٣] وعرق الجبين» وكان يشوق الطلبة والمريدين إلى القيام على الحرف والصناعات، ويقول لهم جملاً تطيب خواطرهم، وتزيد رغبتهم في حرفهم[٤]، حتى لا يزدروا بها أو يظنُّوا أن طبقتهم هي أدنى من طبقة العلماء، فكان يقول لهم: «يكفيكم من الدين حسن النيّة والقيام بالفرائض الشرعيّة، وليس غيركم بأفضل منكم» وأحياناً يدمج[٥] نفسه بين أهل الحرف، ويقول لهم وهو يشتغل معهم: «يظن أهل الأوريقات والسبيحات أنهم يسبقوننا عند الله لا والله ما يسبقوننا». يريد بأهل الأوريقات العلماء وبأهل السبيحات العابدين والقانتين فكأنه يريد أن يقول للمحترفين والصنَّاع لا تظنُّوا أنكم دون العلماء والزهَّاد مقاماً، بمجرد كونكم صنَّاعاً وعملة، وكونهم هم علماء وقراء، هذا ليزيدهم رغبة وشوقاً، ويعلِّم الناس حرمة الصناعة التي لا مدنيّة إلا بها.

هذه الفرقة عملية لا تعتمد على مجرد التلاوة والذكر دون العمل والسير، فهي تجمع بين العمل الشرعي بحذافيره[٦]، والتجرُّد الصوفي إلى أقصى درجاته، وتنظم بين الظاهر والباطن، نظماً لم يوفَّق إليه غيرها[٧]، ويظهر أن مؤسِّسي هذه الطريقة السيد محمد بن علي بن

---

(١) حديدة الفدان التي تشق الأرض ج سِكك.

(٢) آلة الحرث ج محاريث.

(٣) كناية عن العمل بمشقة وعناء وكذلك عرق الجبين.

(٤) جمع حرفة الصناعة ووجهة الكسب.

(٥) يُدخل.

(٦) بأسره وأجمعه.

(٧) لقد سبقهم بهذا النظم في الهند بنحو قرن السيد الإمام أحمد بن عرفان البريلوي إمام الطريقة وإمام المجاهدين ورئيس حكومة شرعية على تخوم الهند ووزيره ويمينه مولانا إسماعيل الشهيد الدهلوي رحمهما الله تعالى، راجع للتفصيل كتاب «إذا هبت ريح الإيمان» طبع ببيروت.

السنوسي ، وولديه السيد المهدي ، والسيد الشريف ، وكبار أعوانهم مثل سيدي أحمد الريفي ، وسيدي عمران بن بركة ، وسيدي أحمد التواتي ، وسيدي عبد الرحيم بن أحمد ، وسيدي عبد الله السني ، وسيدي أبي القاسم العيساوي ، وغيرهم كانوا على أخلاق عظيمة ومدارك سامية ، تدل عليها أقوالهم وأفعالهم.

حدثني سيدي أحمد الشريف أن عمه الأستاذ المهدي كان يقول له : «لا تحقرن أحداً ، لا مسلماً ولا نصرانياً ولا يهودياً ولا كافراً ، لعله يكون في نفسه عند الله أفضل منك ، إذ أنت لا تدري ماذا تكون خاتمته» .

وبمثل هذه الآداب كانوا يأخذون أولادهم ومريديهم ، فكان من هؤلاء أقطاب وأبطال ، يتجمل التاريخ بذكرهم ، وواسطة[١] عِقدهم اليوم هو السيد أحمد الشريف الذي نحن في ترجمته.

وقد ذرّف[٢] السيِّد المشار إليه على الخمسين ولكن هيئته لا تدل على وصوله إلى هذه السن ، لندورة الشيب في شعره ، وهو رائع المنظر ، بهيُّ الطلعة ، عبل[٣] الجسم ، قوي البنية ، لا يمكن أن يراه أحد بدون أن يجله ويحترمه[٤].

* * *

(١) واسطة العقد الجوهرة التي تكون في وسط القلادة وهي أجودها والمراد بواسطة عقدهم أفضلهم.

(٢) أربى وزاد.

(٣) الضخم.

(٤) توفي سيدي أحمد الشريف السنوسي في المدينة المنورة في منتصف ذي القعدة سنة ١٣٥١ هـ.

الـدِّيـن الصِّنَـاعـي

للدكتور أحمد أمين[١]

هل تعرف الفرق بين الحرير الطبيعي والحرير الصناعي؟ وهل تعرف الفرق بين الأسد وصورة الأسد؟ وهل تعرف الفرق بين الدنيا في الخارج والدنيا على الخريطة[٢]؟ وهل تعرف الفرق بين عملك في اليقظة وعملك في المنام؟ وهل تعرف الفرق بين إنسان يسعى في الحياة ، وبين إنسان من جبس[٣] وضع في متجر لتعرض عليه الملابس؟ وهل تعرف الفرق بين النـائحة الثكلـى[٤] والنائحـة المستأجـرَة ، وبين التكحـل فـي العينيـن

---

(١) وُلد أحمد أمين عام ١٨٨٦ م في مدينة القاهرة ودخل الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي فتخرج بها قاضياً وتعلم الانكليزية واشتهر ببحوثه الأدبية ومقالاته العلمية، وفي عام ١٩٣٦ عُيِّن مدرِّساً في كلية الآداب بالجامعة المصرية وانتخب بعد قليل عميداً للكلية، ومنح عام ١٩٤٨ لقب الدكتوراه مع جائزة فؤاد الأول، وانتخب مديراً للإدارة الثقافية بالجامعة العربية، وظلّ مشرفاً على لجنة التأليف والترجمة والنشر نحو ثلاثين سنة وأشرف على طبع كتب كثيرة، وساهم في تأليف عدة كتب، توفي عام ١٩٥٤ م. من أشهر مؤلفاته وأعظمها انتشاراً سلسلة كتب «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» وله «فيض الخاطر» مجموع مقالات في سبعة مجلدات، والأستاذ أحمد أمين من كبار المنشئين والمؤلفين في هذا العصر، يغلب على إنشائه الطبع والرُّواء وعدم التكلف، وله في البحوث العلمية أسلوب متين رشيقٌ، وله آراء فيها شذوذ وخلاف للعلماء.

(٢) ما ترسم عليه هيئة الأرض أو إقليم منها.

(٣) الجص الذي يُبنى به.

(٤) التي فقدت ولدها.

والكَحَلِ[(١)]؟ وهل تعرف الفرق بين السيف يمسكه الجندي المحارب وبين السيف الخشبي يمسكه الخطيب يوم الجمعة؟ وهل تعرف الفرق بين الناس في الحياة والناس على الشاشة[(٢)] البيضاء؟ وهل تعرف الفرق بين الصوت والصدى[(٣)]؟ إن عرفت ذلك فهو بعينه الفرق بين الدين الحق والدين الصناعي.

يكدُّ الباحثون أذهانهم، ويجهد المؤرخون أنفسهم في تقليب صحفهم ووثائقهم عن تعرف السبب في أن المسلمين أول أمرهم أتوا بالعجائب، فغزوا وفتحوا وسادوا، والمسلمين في آخر أمرهم أتوا بالعجائب أيضاً فضعفوا وذلوا واستكانوا، والقرآن هو القرآن، وتعاليم الإسلام هي تعاليم الإسلام، ولا إله إلا الله هي لا إله إلا الله، وكل شيء هو كل شيء، ويذهبون في تعليل ذلك مذاهب شتى، ويسلكون مسالك متعددة. ولا أرى لذلك إلا سبباً واحداً وهو الفرق بين الدين الحق والدين الصناعي.

الدين الصناعي حركات وسكنات وألفاظ، ولا شيء وراء ذلك، والدين الحق دين روح وقلب وحرارة.

الصلاة في الدين الصناعي ألعاب رياضية، والحج حركة آلية ورحلة بدنية، والمظاهر الدينية أعمال مسرحية أو أشكال بهلوانية.

و«لا إله إلا الله» في الدين الصناعي قول جميل لا مدلول له. أما في الدين الحق فهي كل شيء، هي ثورة على عبادة المال، وثورة على عبادة السلطان، وثورة على عبادة الجاه، وثورة على عبادة الشهوات، وثورة على كل معبود غير الله.

---

(١) مصدر كحل من باب سمع يقال كحل الرجل أي كان أكحل العينين خلقة.

(٢) يريد الستار الذي يمثل القصة.

(٣) ما يرده الجبل أو غيره إلى المصوِّت مثل صوته ج أصداء.

«لا إله إلا الله» في الدين الصناعي تتفق مع إحناء الرأس والخضوع لشهوة البدن ، وتتفق مع الذلة والمسكنة . و«لا إله إلا الله» في الدين الحق لا تتفق إلا مع الحق. «لا إله إلا الله» في الدين الصناعي تذهب مع الريح وفي الدين الحق تزلزل الجبال.

الدين الصناعي صناعة كصناعة التجارة والحياكة ، يمهر فيها الماهر بالحذق والمران ، أما الدين الحق فروح وقلب وعقيدة. ليس عملاً ولكن يبعث على كل عمل جليل وكل عمل نبيل[١] .

الدين الحق «اكسير» يحل في الميت فيحيا ، وفي الضعيف فيقوى. هو حجر الفلاسفة تضعه على النحاس والفضة والرصاص فتكون ذهباً. هو العقيدة التي تأتي بالمعجزات فيقف العلم والتاريخ والفلسفة أمامها حائرة : بم تعلّل ، وكيف تشرح؟

هو الترياق الذي تتعاطى منه قليلاً فيذهب بكل سموم الحياة. هو العنصر الكيمياوي الذي تمزج به الشعائر الدينية فتطير بك إلى الله ، وتمزج به الأعمال الدنيوية فتذلل العقبات مهما صعبت ، وتصل بك إلى الغرض مهما لاقت.

هو الذي وجده كل من نجح ، وهو الذي فقده كل من خاب. هو الكهرباء[٢] الذي يتصل فيدوِّر العجل ، ويسير العمل ، وينقطع فلا حركة ولا عمل. هو الذي يحل في الأوتار فتوقع[٣] ، وكانت قبل حبالاً ، وفي الصوت فيغني وكان قبل هواء.

الدين الحق يحمل صاحبه على أن يحيا له ويحارب له. والدين الصناعي يحمل صاحبه على أن يحيا به ، ويتاجر به ويحتال به.

---

(١) الجليل والعظيم.

(٢) قوة تتولد في بعض الأجسام بواسطة الحك أو الحرارة أو الانفعالات الكيماوية.

(٣) أي تبنى ألحان الغناء على موقعها وميزانها.

الدين الحق صاحبه فوق كل سلطة وفوق كل سياسة. والدين الصناعي يحمل صاحبه على أن يلوي الدين ليخدم السلطات ويخدم السياسة.

الدين الحق قلب وقوة، والدين الصناعي نحو وصرف وإعراب وكلام وتأويل. الدين الحق امتزاج بالروح والدم وغضب للحق ونفور من الظلم وموت في تحقيق العدل. والدين الصناعي عمامة كبيرة وقباء يلمع وفرجية[١] واسعة الأكمام.

«الشهادة» في الدين الحق هي ما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]. والشهادة في الدين الصناعي إعراب جملة وتخريج متن وتفسير شرح وتوجيه حاشية وتصحيح قول مؤلف والاعتراض عليه.

الدين الحق تحسين علاقة الإنسان بالله، وتحسين علاقة الإنسان بالإنسان لتحسن علاقتهم جميعاً بالله. والدين الصناعي تحسين علاقة صاحبه بالإنسان لاستدرار رزق أو كسب جاه أو تحصيل مغنم أو دفع مغرم.

لقد صدق من قال: «إن هذا الدين لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله» وهل كان أوله إلا دين روح وهل كان آخره إلا دين صناعة؟

جناية أهل كل دين أن يبتعدوا ـ كلما تقدم بهم الزمان ـ عن روحه ويحتفظوا بشكله، وأن يقلبوا الأوضاع، ويعكسوا التقدير، فلا يكون للروح قيمة، ويكون للشكل كل القيمة.

شأن «الإيمان» شأن العشق، يحول البرودة حرارة، والخمول نباهة، والرذيلة فضيلة، والأثرة إيثاراً.

---

(١) نوع من الأقبية.

والإيمان الحق كالعصا السحرية ، لا تمس شيئاً إلا ألهبته ، ولا جامداً إلا أذابته ، ولا موتاً إلا أحيته .

من لي بمن يأخذ الدين الصناعي بكل ما فيه ، ويبيعني ذرة من الدين الحق في أسمى معانيه؟

ولي كَبِـدٌ مَـقْروحَـةٌ مَنْ يَبيعُني بها كَبِـداً لَـيْـسَـتْ بـذاتِ قُروحِ[1]

* * *

(١) الثقافة .

سالم مَولى أبي حذيفة رضي الله عنه

للدكتور طه حسين[١]

أقبل سلاَّم بن حبير القُرَظي من الشام، كعهده في كل عام، بتجارة عظيمة فيها فنون من العروض[٢] وضروب من المتاع، بعضه مما تخرج الشام، وبعضه مما يصنع أهل الجزيرة، وبعضه مما تحمله الروم إلى دمشق وبُصْرى[٣] وتبيعه من قوافل العرب واليهود ليحملوه إلى الأرض البعيدة التي لا تصل إليها يد قيصر ولا يبلغها سلطانه في نجد والحجاز وفي تهامة[٤] واليمن. ولم يَكَدْ سلاَّم بن جبير يستقر في بني قُريظة ويريح

(١) وُلِدَ في مصر ١٨٨٩ وفقد بصره في صِغره وجلس في الكُتَّاب وحفظ القرآن الكريم ودخل الأزهر ولم يكمل دراسته فيه وتوفَّر على دراسة الأدب العربي وسافر إلى باريس ونال الدكتوراه من جامعتها، وعُيِّن مدرِّساً في كلية الآداب بالجامعة المصرية وانتخب عميداً لها، ثم انقطع إلى الإنشاء والتأليف، وخالف الجمهور والمعروف في بعض الآراء وتطرَّف، وقد أثار كتابه «الشعر الجاهلي» ضجَّة في مصر وسخط أكثر أهل العلم والدين وانتخب وزير المعارف في سنة ١٩٤٩ م.
الدكتور طه حسين راسخ في العربية، عكف على مطالعة المصادر الأدبية القديمة، وتذوق أسلوب كتب السيرة والتاريخ وقلَّده، له أسلوب خاص يعرف به يتسم بنقاء الكلمات وتبسيط الموضوع وتكرار المادة، ويحسن كتابة شيء كثير لا يعتقده ولا يتحمَّس له وتلك صناعة لا يحسنها كل واحد، له «على هامش السيرة» و«الوعد الحق» عدا كتبه الأدبية والتاريخية الكثيرة.

(٢) العرض والمتاع وكل شيء سوى الدرهم والدينار.

(٣) بلد الشام.

(٤) بلد جنوبي الحجاز.

نفسه من سفر شاق طويل ، حتى عرض متاعه ذاك المختلف للناس ، فأقبل عليه أهل يثرب من الأوس والخزرج ، وأقبل عليه مَنْ حول يثرب من يهود ينظرون ويشترون. ولم تمض أيام حتى كان سلاَّم بن جبير قد باع تجارته وأفاد منها مالاً كثيراً. ولولا هذا الصبي الذي عرضه سلاَّم على العرب فرغبوا عنه ، وعلى اليهود فزهدوا فيه ، لرضيت نفس سلام كل الرضا ، ولأنفق الأشهر المقبلة مطمئناً مغتبطاً مجوِّلاً في أحياء يثرب مرسلاً رقيقه وأحلافه فيما حول يثرب من أحياء العرب واليهود وفي أعماق البادية ، يجلبون له من المتاع الذي يحمله إلى الشام متى أقبل فصل الرحلة إلى الشام. ولكن هذا الصبي كان غُصَّة[1] في حلقه وحسرة في قلبه ، قد اشتراه في بُصْرَى من بعض الكلبيين بثمن بخس زهيد ، وقدَّر في نفسه أنه سيبيعه من بعض أهل يثرب فيربح في ثمنه ذاك الذي أداه مثليه أو أمثاله. ولكن أهل يثرب من العرب واليهود لم يعهدوا سَلاماً جالباً للرقيق أو مُتجراً[2] فيه. فلما رأوه يعرض عليهم هذا الصبي ويلح في عرضه ويرغب في شرائه ، أنكروا منه ذلك وظنوا به الظنون. وقال قائلهم: إنما اشترى سلاَّم هذا الغلام لنفسه ، فلا نأمن أن يكون قد رأى فيه من العيب أو الآفة ما زهَّده فيه ، فهو يبيعنا ما ليس له فيه أرب[3]. وكان الصبي بادي السقم ظاهر الضر ، كأنه قد لقي من الذين اتَّجروا فيه شَرّاً وَنُكراً[4]. ولم يكن يُحسن العربية ، بل لم يكن يستطيع أن يُفصح عن ذات نفسه. ولم يكن يُحسن الرومية بل لم يكن ينطق منها حرفاً ، وإنما كان إذا كلمه سيده أو غير سيده من الناس التوى[5] لسانه بألفاظ فارسية

---

(١) ما غصَّ به الإنسان واعترض في حلقه.

(٢) تجر وتاجر وأتجر ، تعاطى التجارة.

(٣) حاجة.

(٤) منكراً.

(٥) انعطف.

لا يفهمها عنه أحد. وكان سلاَّم يزعم للناس أن هذا الصبي ذكي الفؤاد صَنَاع[١] اليد موفور النشاط إذا صلحت حاله ووجد من الطعام ما يقيم أوده[٢]. وكان يزعم لهم أنه سليل أسرة فارسية شريفة أقبلت من إصْطَخْر حتى استقرت في الأبُلَّة ، فملكت أرضاً واسعة وزارعت فيها النبط ، وملكت تجارة عريضة كانت تُصَرِّفها في أطراف العراق. فإذا سئل من أنباء هذه الأسرة عن أكثر من ذلك لم يُحرِ جواباً[٣] ، وإنما يقول: زعم لي من باعني هذا الصبي أن العرب اختطفوه حين أغاروا مع الروم على الأبلة ، فباعوه من بني كلب ، وتعرَّض به بنو كلب في بصْرَى يريدون أن يبيعوه لبعض تجار العرب أو اليهود. وقد رأيته فرقَّ له قلبي ومالت إليه نفسي ، وقدَّرت أن سيكون له شأن أي شأن ، فاشتريته فيما اشتريت من المتاع والعروض.

هنالك كان الناس يقولون له: فلم لا تُمسكه عليك إذن؟ فيقول: إن ما أنفقت من المال فيه أحب إليَّ وآثر عندي منه. وماذا أصنع بصبي لا أحسن القيام عليه ولا يُحسن هو أن يقوم على نفسه ، وليس لي أهلٌ أَكِلُهُ إليهم؟ والصبي مع ذلك ذكيُّ القلب ، صَناع اليد ، موفور النشاط ، إن صلحت حاله وأصاب من الطعام ما يقيم أوده. انظروا إلى عينيه كيف تدوران ولا تكادان تستقران على شيء. إنه سريع الحسّ يخطفَ ما يرى دون أن يثبته[٤] وانظروا إليهما كيف تتوقدان كأنهما جَذْوتان[٥]. ولكن الناس كانوا يسمعون ويضحكون وينصرفون ويتركون سَلاَّماً وفي قلبه حسرة على ما أنفق من مال وعلى ما كان يرجو من ربح. وتمرُّ ثُبَيْتَةَ بنت يَعار الأوسية

(١) صناع اليد ماهر حاذق..
(٢) الاعوجاج.
(٣) لم يرد جواباً.
(٤) دون ان يتثبته.
(٥) جمرتان.

بسلاَّم ذات ضحى وهو يعرض صبيه هذا في أسواق يثرب ، فلا تكاد تنظر إلى الصبي حتى ترحمه ، ثم لا تكاد تُطيل النظر إليه حتى تقع في قلبها الرغبة في شرائه. قالت ثبيتة: ما اسم صبيك هذا يا ابن حبير؟ قال سلاَّم: زعم مَنْ باعه لي من بني كلب أن اسمه سالم. قالت: سالم ابن مَن؟ قال سلام: لا أدري! ولكني اشتريته من كلبي يسمى مَعْقِلاً ، وزعم لي أن أسرته أسرة شريفة أقبلت . . . قالت ثبيتة: أقبلت من إصطخر فنزلت الأبلة وزارعت النبط وصرَّفت تجارتها في أطراف العراق ، قد حفظنا ذلك عن ظهر قلب؛ فإني له مشترية ، فبكم تبيعه مني؟ قال سلاَّم وقد ابتسم قلبه ورضيت نفسه ، ولكنه استبقى في وجهه الجد والحزم: فإني لا أريد إلا ما أديت من ثمن وما أنفقت عليه منذ اشتريته. وتتصل المساومة بينها وبينه ، وتعود إلى دارها بالصبي وقد ربح اليهودي فأحسن الربح ، وربحت هي بشراء هذا الصبي ربحاً لا يقوَّم بالدراهم ولا بالدنانير.

ذلك أنها لم تشتره متجرة ولا مبتغية كسباً ، وإنما آثرت بشرائه الخير والبرْ والمعروف ، لم تُرد إلى شيء آخر. وكانت تقول لنفسها في نفسها وهي عائدة بالصبي إلى دارها: بُعداً لهذه الحياة التي لا يرحم الإنسان فيها الإنسان ، ولا يرأف القوي فيها بالضعيف ، ولا ترِقّ فيها القلوب للأمّ حين تفقد صبيها ، وللصبي حين ينشأ لا يعرف لنفسه أمّاً ولا أباً ولا فصيلة[1] يأوي إليها. وكانت تقول لنفسها في نفسها وهي عائدة بالصبي إلى دارها: لو أن لي صبياً مثله فعدا عليه العادون وَمضوْا به في غير مذهب من الأرض كيف كنت ألقى ذلك! وكيف كنت أحتمله أو أصبر عليه! وهل كنت أسلو عن صبي آخر الدهر! هيهات! لو كان لي صبي مثله وعدا عليه العادون وذهبوا به في غير مذهب من الأرض لذكرته مصبحة وممسية ، ولذكرته يَقظى ونائمة ، ولتبعته نفسي وذهبت في تصوُّر حاله المذاهب ، ولما اطمأننت للعيش ولا نَعِمت بالحياة ولا استمتعت

---

(١) عشيرة الرجل ورهطه الأدنون إليه.

بطيبات هذه الدنيا. وكانت ترى أم الصبي وقد انتزع منها ابنها وهي تشهد انتزاعه، أو اختُطف ابنها وهي لا ترى اختطافه، وكانت ترى توَلُّه[١] تلك الأم وتفجعها وحسرتها التي لا تخمد، ولوعتها[٢] التي لا تنطفىء ودموعها التي لا تغيض[٣]. وكانت تقول لنفسها في نفسها وهي عائدة بالصبي إلى دارها: هذا غلام قد اختطف من ملك كسرى، لم يستطع جند كسرى أن يحموه ولا أن يَرُدُّوا عنه العاديات[٤]، فكيف بنا نحن في يثرب، هذه المدينة الخائفة التي يحيط بها اليهود والأعراب من جميع أقطارها، والتي يَسُلّ بعض أهلها السيف على بعض، والتي لا يأمن أهلها أن تدور عليهم دائرة، أو تنوبهم نائبة، أو يُلمّ بهم خطبٌ من الخطوب! فلما بلغت الدار واستقرت فيها، وعنيتْ بالصبي حتى أمن بعد خوف وأنس بعد وحشة وطعم بعد جوع، قالت لنفسها في نفسها: هيهات أن أتخذ الأزواج أو أن يكون لي من الولد من يصيبه مثل ما أصاب هذا الصبي، ومن أذوق فيه من الحزن والثكل[٥] مثل ما ذاقت في هذا الصبي أمُّه تلك الفارسية ونساء أمثالها كثير. ولو استجابت الحياة لثبيتة لأنفقت أيامها معنية بهذا الصبي الفارسي، ولاتخذته لنفسها ولداً أو شيئاً يشبه الولد. ولكن الناس يقدِّرون ويدبرون، والأيام تجري على غير ما قدروا ودبَّروا.

فقد عنيت ثُبيتة بسالم حتى ربا جسمه ونما عقله وأصبح غلاماً ذكيَّ القلب، سريعَ الحسّ، حديدَ اللسان، كما قدَّر اليهودي، أو أكثر مما قدَّر. وكانت ثُبيتة له مُحبة وبه مُغتبطة وعنه راضية. وقد خطبها الرجال من

---

(١) وَلَه وتولّه حزن حزناً شديداً حتى كاد يذهب عقله.

(٢) اللوعة حرقة الحزن أو الهوى والوجد.

(٣) غاض الماء غار أو نضب.

(٤) الخطوب.

(٥) ثكلت الأم ابنها فقدته.

الأوس والخزرج ومن أشراف البادية حول يثرب ، فامتنعت عليهم ، واعتلَّت[1] على أهلها في ذلك حتى أعيتهم[2]. ولكن وفد قريش يمرون بيثرب مُنْصَرفهم من الشام ذات عام ، فيمكثون فيها أياماً. ويسمع أبو حذيفة هُشَيْم بن عتبة بن ربيعة بحديث ثبيتة هذه وقصة غلامها ذاك ، فيعجبه ما يسمع ، ثم يحب أن يتزيد من أخبارها فَيُلمُّ بقومها ويقول لهم ويسمع منهم ، فتقع ثبيتة من نفسه موقعاً حسناً ، مع أنه لم يرها ولم يسمع لها ، وإنما سمع عنها فرضي. وإذا هو يخطب هذه الفتاة الأبية ، فتمتنع عليه أول الأمر ، حتى إذا علمت بمكانه من قريش وبأنه من أشرافها وذوي المنزلة الرفيعة فيها ، وبأنه من أصحاب البيت وأهل الحرم الذي رُدَّ عنه أصحاب الفيل ، والذي لا يعدو عليه إلا الفجرةُ الآثمون ، شكَّت يوماً ويوماً ، ثم أصبحت مستجيبة لخِطبة هذا المكّي. ويعود أبو حذيفة بأهله وبسالم إلى مكة في وفد قريش؛ فلا يكاد يستقر حتى ينكر من أمرها بعض الشيء ، لقد أصبح فغدا على أندية قريش ، ثم أمسى فراح إلى أندية قريش ، ولكنه يعرف من أمر هذه الأندية كثيراً ، وينكر من أمرها كثيراً تريد نفسه أن تطمئن وأن تأمن وأن ترضى ، كما تعودت من قبل ، ولكنها لا تجد إلى الطمأنينة ولا إلى الأمن ولا إلى الرضا سبيلاً. يحس أبو حذيفة كأن شيئاً ينقص هذه الأندية ، وكأن حدثاً قد حَدَث في مكة لا يدري أيسيرٌ هو أم خطيرٌ ، ولكن شيئاً قد حدث فغيَّر من أمر قومه تغييراً يحسه ولا يحققه. ثم يلتمس بعض صديقه في أندية قريش فلا يجدهم. يسأل: أين عثمان بن عفان الأموي؟ وأين طلحة بن عبيد الله التيمي؟ وأين فلان وفلان من ذوي مودته؟ فلا يجيبه قومه بالتصريح ، وإنما يُؤْثر بعضهم الصمت ، ويذهب بعضهم مذهب التورية ، ويلوي بعضهم ألسنتهم بأحاديث لا تُفصح ولا تُبين. ويرى أبو حذيفة ويسمع ، فيبعد

---

(١) اعتلَّ بالأمر تعلَّل واعتذر.

(٢) أعجزتهم.

الأمد بينه وبين الطمأنينة والأمن والرضا. ثم يصبح ذات يوم وقد انجلت له بصيرته، ووضح له وجهُ الحزم من أمره، أن صديقه أولئك بمكة لم يفارقوها ولم يبرحوا أرض الحرم، فما له يسأل عنهم ولا يُلِمُّ[١] بهم! ولا يكاد هذا الخاطر يخطر له حتى يقصد قَصْد فلان أو فلان من أولئك الصديق.

وقد ألمَّ بعثمان بن عَفَّانَ وكان له خليلاً على ما كان بينهما من تفاوت في السن. كان عثمان قد تخطَّى[٢] الأربعين أو كاد، وكان أبو حذيفة لم يبلغ الثلاثين بعدُ، ولكن الود كان بينهما قديماً متيناً، زادته الصحبة في الأسفار قوة وأيْداً[٣]. فلما بلغ أبو حذيفة دار عثمان ودخل عليه تلقَّاه صديقه بما تعوَّد أن يتلقاه به من البِشر[٤] والبشاشة ومن الرفق واللين. ولكن أبا حذيفة آنس من صديقه على ذلك كله شيئاً من تحفظ واحتشام[٥]. قال أبو حذيفة: لقد التمستك أبا عمرو في أندية قريش منذ عاد الوفد إلى مكة فلم أجدك، فما عسى أن يكون قد حبسك عن قومك؟ قال عثمان: لم أنشط لهذه الأندية ولا لما يدور فيها من حديث. قال أبو حذيفة: فهل أنكرت من قومك شيئاً؟ وهنا سكت عثمان ولم يُجب. فأعاد عليه أبو حذيفة مقالته، فأمعن[٦] عثمان في الصمت. قال أبو حذيفة: إن لك أبا عمرو لشأناً ولا واللاَّت والعُزَّى. ولكن عثمان لم يكَدْ يسمع قَسمَه هذا حتى لوى[٧] وجهه. وينظر أبو حذيفة فإذا وجه صاحبه قد

---

(١) ألمَّ بالقوم وعلى القوم أتاهم فنزل بهم.
(٢) تجاوز.
(٣) متانة.
(٤) بشاشة الوجه
(٥) الانقباض والاستحياء.
(٦) أمعن في الأمر وأبعد وبالغ.
(٧) صرف.

ارْبَدَّ[١] وظهر فيه غضَبٌ لم يألفه منه قط. قال أبو حذيفة: وَيْحَك أبا عمرو! إنك لتعرف ما بينك وبيني من الود، وإنك لي لخليل وفيّ أمين، فأظْهِرْني على ذات نفسك. قال عثمان في صوت وادع لين: فإن شئت أن تستبقي ما بيتنا من الود فلا تذكر اللات والعزَّى وهذه الآلهة التي لا تغني عنكم شيئاً. هنالك وجم[٢] أبو حذيفة وجمة قصيرة، ثم قال: وَيحك أبا عمرو! فإنك إذن قد صبوت[٣]؟ قال عثمان في صوت أشد دعة وأعظم ليناً: لم أصْبُ أبا حذيفة، وإنما اهتديت. إنك فتى حازم رشيد لم تتقدم بك السنُّ بعد، ولكنك قد رأيت الدنيا وطوَّفت في أقطار الأرض ويلوت أخبار الناس وجرَّبت الأحداث والخطوب، أفترى من الرشد أن يؤمن مثلك ومثلي لأنصاب[٤] من خشب وصخر صوَّرها الناس بأيديهم، ويستطيع من شاء منهم أن يجعلها جُذاذاً[٥]؟ قال أبو حذيفة: ما أراك أبا عمرو إلا رشيداً، ولكني لم أفكر في هذه الأشياء قط، وإنما وجدت قومنا يعبدون هذه الأنصاب فصنعت صنيعهم. قال عثمان: وإذا أسفر الهدى وحصحص[٦] الحق؟ قال أبو حذيفة: فقد وجب علينا أن نهتدي ونتَّبع الحق، متى تستصحبني إلى محمد؟ قال عثمان: الآن إن شئت. وأمسى أبو حذيفة مسلماً، ودخل بإسلامه على ثُبيتة، فلم تكد تسمع له حتى آمنت بمحمد وما جاء به، وسمع الغلام سالم حديثهما فمالت إليه نفسه، وإذا هو يؤمن كما آمنا. ولم يتقدَّم الليل حتى زادت بيوت الإسلام في مكة بيتاً.

---

(١) تغيَّر لونه واغبر.

(٢) عبس وجهه وأطرق لشدة الحزن.

(٣) صبا يصبو مال إلى الصبوة أي جهلة الصبيان..

(٤) ما عبد من دون الله من الأصنام والتماثيل.

(٥) جذّه قطعة وكسره والجُذاذ المكسَّر.

(٦) بان ووضَح.

وتمضي أيام قليلة وإذا ثبيتة تعلم أن محمداً يدعو إلى إعتاق الرقيق ، ويعد الذين يَفُكُّون الرقاب مغفرة من الله ورحمة ورضواناً: فتدعو إليها غلامها ذاك الفارسي وتقول له: اذهب سالم فإني قد سيَّبتك[١] لله عزَّ وجَلَّ ، فوالِ من شئت. قال سالم لأبي حذيفة: فهل لك في أن تكون لي وليّاً؟ قال أبو حذيفة: هيهات! لن أتخذك مولى ، وإنما أنت ابن لي منذ اليوم.

استوثق[٢] رسول الله ﷺ لدعوته ولأصحابه ولنفسه من حَيَّيْ يثرب: الأوس والخزرج ، وعاهدهم أن يُؤووه وينصروه ويحموا ظهره ويُقاتلوا من دونه من بَغَى عليه أو أراده بسوء حتى يُبلغ رسالات ربه. وبايعه على هذا العهد نُقباء هذين الحيين الأوس والخزرج. ثم أذِن الله بعد ذلك لرسوله وللمسلمين في الهجرة إلى مستقرهم الجديد. وكان الإسلام قد سبقهم إلى يثرب ، بشَّر به مَنْ أرسله رسول الله ليبشر به. فكانت الهجرة إلى دار استقر فيها الإسلام قبل أن يستقر فيها المهاجرون. وقد أذن رسول الله لأصحابه في الهجرة إلى المدينة ، فجعلوا يذهبون إليها أرسالاً ، وهو ﷺ مقيم بمكة ينتظر أن يأذن الله له في الخروج. واجتمعت جماعة المسلمين المهاجرين إلى إخوانهم من الأنصار في قُبَاء ، وجعلوا ينتظرون أن يقدم عليهم رسول الله. وكانوا في أثناء ذلك يقيمون الصلاة كما كانوا يقيمونها بمكة. وينظر المسلمون فإذا أقرؤهم للقرآن وأحفظهم عن النبي سالمُ بن أبي حذيفة ، فَيُقَدِّمونَهُ ليؤمهم في الصلاة ، وفيهم أعلامٌ من المهاجرين ، منهم عمر بن الخطاب الذي كان إسلامه فتحاً ، وهجرته نصراً ، وخلافته رحمة ، كما قال فيما بعد عبد الله بن مسعود. وينظر المشركون والمنافقون من الأوس والخزرج فيرون هذه الجماعة من

(١) أطلقتك.

(٢) استوثق منه أخذ الوثيقة. .

المهاجرين والأنصار يقدِّمون سالماً ليؤمهم في الصلاة. فيُكبرون[١] من أمر سالم هذا بادىء الرأي، ثم لا يلبثون أن يَذكروه ويعرفوه. يقول بعضهم لبعض: ألا ترون إلى هذا الرجل الذي يصلي بهذه الناجمة[٢] من أصحاب محمد مَنْ هَاجَرَ منهم إلى المدينة ومَنْ كان من أهلها! إنه سالم. أَلاَ تذكرون سالماً؟ فيجهد القوم أنفسهم ليذكروه، ولكن بعضهم يعيد عليهم قصة ذلك اليهودي الذي كان يعرض على العرب واليهود صبياً حَدَثاً[٣] لا يُحسن العربية ولا يفهمها. وما هي إلا أن يسمعوا بدء هذه القصة حتى يستحضروا سائرها، وحتى يروا ذلك الصبي الذي مسه الضّرُّ وظهر عليه البؤس وزهد فيه العرب واليهود جميعاً، واشترته ثُبيتة بنت يَعار، لا رغبة فيه بل عطفاً عليه. ثم يقول بعضهم لبعض: لو عاش سَلام بن جبير لرأى من صبيه ذاك عجباً. ثم يقول بعضهم لبعض: ألاَ ترون إلى هذه الناجمة من أصحاب محمد يؤمُّهم فارسي قد كان بالأمس عبداً؟ ثم يردُّ بعضهم على بعض رَجْع[٤] هذا الحديث فيقول: إن لهؤلاء الناس لشأناً. إنهم يُسوِّدون العبيد، وَيُلغُون ما بين الأحرار والرقيق من الفروق، وإنا لنرحم قريشاً مما ألمَّ بها، وإنَّا لنعذِر قريشاً مما فعلتْ بمحمد وأصحابه. ولو استطعنا لفتناهم كما فتنتهم قريش، ولنفيناهم عن أرضنا كما نفتهم قريش. ولكن هل إلى هذا من سبيل؟ فيقول قائلهم: هيهات! لقد آمن لهم أولو البأس والقوة من قومنا. ولكن فريقاً من هؤلاء المتحدِّثين يسمعون ثم يُنكرون ثم يُؤثرون الصمت، فلم يخلو بعضهم إلى بعض فيستأنفون بينهم حديثاً جديداً يَعْجَبون فيه من أمر هذا الذي كان عبداً بالأمس، ثم هو يَؤمُّ الأحرار في صلاتهم اليوم. ثم يتتبعون

(١) أكبر الأمر رآه كبيراً وعظم عنده.

(٢) الجماعة الناشئة الجديدة.

(٣) شاباً.

(٤) رجع الحديث أو الرسالة جوابه.

المهاجرين فيرون فيهم نفراً غير قليل من الرقيق الذين أعتقوا ، أعتقهم إسلامهم. ثم يتتبعون سيرة الأحرار الأشراف من المسلمين مع هؤلاء الذين رُدَّت عليهم الحرية بعد أن نشؤوا في الرق ، فيرونها تقوم على الإخاء والعدل والنَّصَفة[١] والمساواة. ثم يتحدَّثون في ذلك إلى المسلمين من قومهم ، فيقول لهم هؤلاء: إن الإسلام لا يفرق بين الحر والرقيق ، ولا بين الناس إلا بالتقوى وبما يقدِّمونه بين أيديهم من البر والخير وعمل الصالحات. هنالك تطمح قلوبهم إلى هذه المساواة التي لم يسمعوا بها من قبل ، وإلى هذا العدل الذي لم يألفوه ، وإذا هم يميلون إلى الإسلام ، ثم يسرعون إليه ، ثم يحرصون على أن يَؤمَّهم سالم بن أبي حذيفة ، ذلك الذي كان عبداً بالأمس فأصبح يؤمُّ الأشراف من قريش ومن الأوس والخزرج حين يقومون بصلاتهم بين يدي الله[٢]

* * *

(١) الإنصاف والعدل.

(٢) الوعد الحق.

الفِـردَوس الإسـلامي فـي قـارّة آسيَـا

للأستاذ علي الطنطاوي[1]

نحن الآن في الهند ، في القارة التي حكمناها ألف سنة ، في الدنيا التي كانت لنا وحدنا ، وكنا نحن سادتها ، في (الفردوس الإسلامي المفقود) حقاً ، ولئن كانت لنا في إسبانيا أندلس فيها عشرون مليوناً ، فلقد كان لنا ههنا أندلس أكبر ، فيها اليوم أربعمائة مليون ـ خُمُس سكان الأرض ، ولئن تركنا في الأندلس من بقايا شهدائنا ، ودماء أبطالنا ، ولئن خلَّفنا فيها مسجد قرطبة والحمراء ، فإن لنا في كل شبر من هذه القارة دماً

---

(١) هو علي بن مصطفى الطنطاوي ، وُلد عام ١٣٢٧ هـ في دمشق ، وكان أبوه أمين الفتوى ، وقرأ على علماء دمشق كالشيخ أبي الخير الميداني والشيخ صالح التونسي وغيرهم ودخل مدرسة نظامية ، ونال شهادة الحقوق من الجامعة السورية ، ومكث أقل من سنة في دار العلوم المصرية ، واشتغل بالصحافة فترة وبتعليم اللغة العربية في العراق ولبنان ومصر ، ودخل في القضاء عام ١٩٤٠ م ولم ينقطع عن التدريس والكتابة ، كان مستشاراً بمحكمة التمييز بدمشق ، ثم انتقل إلى الحجاز بعد الطوارىء في سوريا ، وتعيّن أستاذاً في إحدى الكليات في مكة ، ثم انصرف إلى الإذاعة والتليفزيون يحدّث ويجيب ويفيد في علم غزير وأدب جم .
الأستاذ علي الطنطاوي من كبار الكتاب الذين أنجبتهم الأمة العربية في هذا العصر ، تجمع كتابته بين الرشاقة والجزالة ومحاسن القديم والجديد ، ومقالته هذه التي يستعرض فيها تاريخ الهند الإسلامي وقد كتبها على أثر زيارته للهند ، تدل على اقتداره على اللغة وبلاغته في التعبير ، له من الكتب «أبو بكر الصديق» و«عمر بن الخطاب» و«رجال في التاريخ» و«قصص من التاريخ» وكتب كثيرة .

زكياً أرقناه، وحضارة خيّرة وشيت[١] جنباتها[٢]، وطرزت[٣] حواشيها، بالعلم والعدل والمكرمات والبطولات، وإن لنا فيها معاهد ومدارس، كم أنارت عقولاً، وفتحت للحق قلوباً، ولا تزال تفتح القلوب وتنير العقول، وإن لنا فيها آثاراً تفوق بجمالها وجلالها الحمراء، وحسبكم (تاج محل) أجمل بناء علا ظهر الأرض.

لقد مرت بالهند أربعة عهود إسلامية، عهد الفتح العربي، ثم عهد الفتح الأفغاني، ثم عهد المماليك، ثم عهد المغل.

كان أول من حمل إلى الهند لواء الإسلام، محمد بن القاسم الثقفي[٤]، القائد الشاب الذي هجر منازل قومه في الطائف، ومشى إلى العراق في ركاب ابن عمه الحجاج، الذي ظلم كثيراً وقسا كثيراً، وكانت له هَنات[٥] غير هينات، ولكنه هو الذي أبقى لنا العراقين وفتح لنا المشرق كله والسند فبعث المهلب العظيم حتى أطفأ نار الحرب الأهلية التي ضرمها الخوارج، وأرسل قتيبة العظيم حتى فتح سمرقند وبخارى وتركستان، وأوفد ابن عمه محمداً العظيم حتى فتح السند. ولولا

---

(١) وشى الثوب يشي وشياً وشية حسَّنه بالألوان ونمنمه ونقشه.

(٢) جوانبها ونواحيها.

(٣) طرّز الثوب بكذا أعلمه.

(٤) هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي، كان من بني أعمام الحجاج وختنه، عقد له الحجاج على ثغر السند فوصل إلى الملتان يفتح ويدوخ وفتح السند ومات الحجاج ومات الوليد بن عبد الملك وولى سليمان وولى يزيد بن عبد الملك السكسكي السند فحمل محمد بن القاسم مقيداً وبكى أهل الهند على محمد وصورروه بالكيرج وعذّبه صالح والي العراق في رجال من آل أبي عقيل حتى قتلهم وكان الحجاج قتل آدم أخا صالح، وقد كان فتح السند على يد محمد بن القاسم وهو ابن سبع عشرة سنة، وكان قتله في نحو سنة ست وتسعين. .

(٥) خصلات شرٌ وزلات.

الإيمان الذي يصنع العجائب ، ولولا الهمم الكبار التي تزيح[١] الجبال ، ولولا البطولة التي وضعها محمد ﷺ في قلوب العرب ، لما استطاع هذا الجيش أن يقطع خُمس محيط الكرة الأرضية ، وهو ماشٍ على الأقدام ، أو معتلٍ ظهور الإبل والدواب ، ما عرف قطاراً ولا سيارة ، ولا رأى على متن الجو طيارة ، ولما وضع ابن القاسم الحجر الأول في هذا الصرح الهائل ، وأدخل الشعاعة الأولى من هذه الشمس التي أشرقت في مكة إلى هذه القارة ، وفتح السند ولم تبلغ سنه سن تلاميذ البكالوريا[٢] !

* * *

وعاد إليها لواء الإسلام مرة ثانية في القرن الرابع ، عاد بالفتح على يد السلطان العظيم محمود الغزنوي ، الذي خرج من غزنة وكانت قصبة[٣] بلاد الأفغان ، وهي إلى الجنوب من كابل ، فاخترق ممر خيبر ، المضيق المهول الذي يشق تلك الجبال الشاهقة شقاً ، والذي تجزع أن تسلكه من وعورته ووحشته أسد الفلا[٤] ، وجن الليالي السود ، ثم دخل الهند وخاض عشرات من المعامع[٥] الحمر ، التي يرقص فيها الموت ، ويشتعل الدم ، واجتمع عليه أمراء الهند وأقيالها[٦] جميعاً ، فطحن أبطالهم ومزق جيوشهم ، ومضى حتى جاب البنجاب ، واستجابت له هاتيك البلاد ، فأقام فيها حكم الله ، وأذاق أهلها عدالة الإسلام .

وجاء من هذا الطريق بعد أكثر من قرن ، السلطان شهاب الدين الغوري ، فوصل من هذا الفتح ما كان منقطعاً ، وأكمل منه ما كان

(١) أزاحه أبعده .

(٢) الشهادة الثانوية .

(٣) أعظم مدن البلاد .

(٤) جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة .

(٥) الحروب .

(٦) جمع قَيل وهو الرئيس .

ناقصاً ، وملك شمالي الهند ، وبلغت جيوشه دهلي ، فأوقدت فيها منار الدعوة الإسلامية ، فضوأت بعد الظلمة ، وأبصرت بعد العمى ، ودوّى في أرجائها الصوت الذي خرج من بطن مكة ، صوت المؤذن ينادي في قلب الهند ذات الأرباب والآلهة والأصنام ، أن خابت آلهتكم ، وهوت أصنامكم ، إنما هو إله واحد ، لا إله إلا الله محمد رسول الله.

قامت في الهند حكومة إسلامية قرارتها دهلي.

وبينما كان قطب الدين أيبك قائد السلطان الغوري يفتح المدن بسيفه كان الشيخ معين الدين الجشتي[1] يفتح القلوب بدعوته فدخل الناس في الإسلام أفواجاً، وكان هذا الفتح أبقى وأخلد ، وكان منه اليوم ثمانون مليوناً من المسلمين في باكستان ، وأربعون مليوناً غيرهم في هندستان ، وسيبقى الإسلام في تلك الديار إلى آخر الزمان.

وولي الملك بعد السلطان الغوري قائده قطب الدين ، الذي فتح دهلي وبدأ به عهد المماليك ، وكان منهم ملوك عظام حقاً ، منهم قطب الدين هذا باني منارة قطب (قطب مينار) الذي يقف اليوم أمام عظمتها كل سائح يرد دهلي ، وشمس الدين الألتمش وغياث الدين بلبن.

ثم جاء الخلج وكان منهم الملك العظيم علاء الدين الخلجي الذي عدل في الناس ، وضبط البلاد ، وبسط الأمن ، وأوغل[2] في الهند.

وجاء من بعدهم آل تغلق ، وكان منهم الملك الصالح المصلح

(١) هو الشيخ الإمام الزاهد الكبير الحسن بن الحسن السجزي شيخ الإسلام معين الدين الأجميري، كان مولده سنة ٥٣٧ ببلدة سجستان، قرأ العلم وسافر ودخل هارْوَنْ قرية من أعمال نيسابور وأدرك بها الشيخ عثمان الهاروني فلازمه وأخذ عنه الطريقة وصحبه عشرين سنة ثم قدم دهلي ثم سار إلى أجمير وسكن بها، وإليه تنسب الطريقة الجشتية ويرجع الفضل في دخول العدد الكبير من المشركين في الإسلام واستقرار الإسلام في هذه البلاد، توفي إلى رحمة الله تعالى سنة ٦٣٢ هـ، ودفن في أجمير..

(٢) أوغل وتوغّل في البلاد ذهب وأبعد.

فيروز ، ثم جاء اللودهيون ، وكان في أحمد آباد ملوك ذكَّروا النَّاس بالخلفاء الراشدين كمظفر الحليم الكجراتي .

وكان للعلماء في دولة المماليك دولة أكبر منها ، وكان لهم سلطان أكبر من سلطان الملوك ، ولقد روى أخونا أبو الحسن علي الحسني الندوي [١] ، أن السلطان شمس الدين الألتمش الذي دانت[٢] له البلاد كلها (وكان في القرن السابع الهجري) وخضع له ملوك الهند جميعاً ، كان يستأذن على الشيخ بختيار الكعكي[٣] فيدخل زاويته ويسلم عليه تسليم المملوك على الملك ولا يزال يكبس[٤] رجليه ويخدمه ويذرف[٥] الدموع على قدميه حتى يدعو له الشيخ ويأمره بالانصراف .

وإن علاء الدين الخلجي أكبر ملوك الهند في زمانه استأذن الشيخ نظام الدين البدايوني ، الدهلوي في أن يزوره فلم يأذن له الشيخ .

ولما مرض الشيخ الدولة آبادي المفسر[٦] وأشرف على الموت عاده السلطان إبراهيم الشرقي ، ودعا عند رأسه أن يكون هو (أي السلطان) فداءه من الموت .

وكانت زاوية نظام الدين البدايوني[٧] ، أحفل بالقصّاد ، وأزخر

(١) في رسالته «الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها» .

(٢) ذلّت وأطاعت .

(٣) هو شيخ الإسلام قطب الدين بختيار الأوشي المعروف بالكعكي كان من كبار أولياء الله ، بايع الشيخ معين الدين الجشتي المذكور وفاز بالخلافة وله عشرون سنة ، وقدم دهلي وتوطن بها ، وقام بدعوة الخلق إلى الله وانتفع به خلائق ، ومن خلفائه الشيخ فريد الدين كنج شكر الأجودهني (م٦٦٤ هـ) توفي رحمه الله سنة ٦٣٣ هـ .

(٤) كبس يكبس كبساً باب ضرب على الشيء شدّ عليه وضغط يعني يغمز رجليه .

(٥) ذرّف تذريفاً الدمع صبّه .

(٦) هو ملك العلماء الشيخ أحمد بن عمر شهاب الدين الدولة آبادي ، صاحب الإرشاد في النحو والبحر المواج في التفسير ، ولد في دهلي وتوفي في جونبور سنة ٨٤٩ هـ .

(٧) هو الشيخ الإمام نظام الدين محمد بن أحمد البدايوني ، أحد الأولياء المشهورين بأرض =

بالناس من قصر الملك ، وكان سلطانه الروحي أعظم من سلطان الملك المادي .

كان ذلك يا سادة ، لما تجرد هؤلاء العلماء من أثواب المطامع والرغبات ، وزهدوا بما في أيدي الملوك ، فسعى إلى أبوابهم الملوك ، ونزعوا حب الدنيا من قلوبهم ، فألقت بنفسها على أقدامهم الدنيا .

وفي عهد السلطان إبراهيم اللودهي سنة ٩٣٣هـ جاء بابر حفيد تيمورلنك من كابل وكسر جيوش اللودهي وكانت مائة ألف ، باثني عشر ألفاً من فرسان المغل المسلمين ، وأسس دولة المغل التي كانت أكبر الدول الإسلامية في الهند وكان من ملوكها ، الملك الصالح أورنك زيب .

ولما مات بابر ، وولي ابنه همايون ، وثب عليه رجل عصامي[1] لم يكن من بيت الملك ولكن كانت له همم الملوك ، فانتزع البلاد منه وأقام دولة كانت نادرة في الدول ، ونظم الإدارة والمالية والجيش تنظيماً لم يسبق إلى مثله ، هو السلطان شيرشاه السوري ولما مات عاد الملك إلى ابن همايون وهو الإمبراطور أكبر وكان من أعاظم الملوك ، حكم الهند كلها إلا قليلاً ، وطال حكمه فكفر في آخر أيامه بالله وأكره الناس على الكفر ، وابتدع لهم ديناً جديداً ، وأزال معالم الإسلام ، وأبطل شعائره ، وكان معه الجيش ، وكان معه الأمراء ، وكانت البلاد كلها في يده ، فمن يقوم في وجهه ، ومن ينصر الإسلام ، ومن يدافع عن الدين؟

= الهند ، انتهت إليه الرئاسة في دعاء الخلق إلى الله والتسليك في طريق العبادة والانقطاع عن الدنيا مع التضلع من العلوم الظاهرة ، ولد سنة ٦٣٦ هـ ببدايون ، وسافر إلى دهلي وقرأ على أساتذتها وسافر إلى أجودهن وأخذ عن الشيخ الكبير فريد الدين مسعود (كنج شكر) الأجودهني وصحبه مدة وأجازه الشيخ وانقطع إلى الله سبحانه بقلبه وقالبه واشتغل بالدعوة إلى الله والتربية ، حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى سنة ٧٢٥ هـ .

(١) كبير النفس عالي الهمة .

لقد قام بذلك شيخ ضعيف الجسم ، قليل المال والجاه والأعوان ولكنه قوي الإيمان بالله ، كبير النفس والقلب ، قد استصغر الدنيا فهو لا يحفل بكل ما فيها من مال ومناصب ولذائذ ، واستهان بالحياة فهو لا يبالي على أي جنب كان في الله مصرعه ، هو الشيخ أحمد السرهندي(١) . ولم يكن يطمع بإصلاح الإمبراطور ، ولا يجد فيه أملاً ، فجعل يتصل بالقواد الصغار ، وبالحاشية ، ويعد لانقلاب شامل ، لا لانقلاب عسكري ثوري ، بل لانقلاب روحي فكري ، وكان يرسل الرسائل تلتهب بالحماسة الدينية والعاطفة والإيمان . ولما مات أكبر وولي ابنه جهانكير(٢) استطاع الشيخ محمد معصوم السرهندي ابن الشيخ السرهندي أن يشرف على تربية طفل صغير ، هو أحد حفدة جهانكير .

ولم يكن هذا الطفل أكبر إخوته ، ولا كان ولي العهد ، ولم يكن يؤمل له أن يلي الملك ، ولكن الشيخ وضع في تربيته جهده ، وبذل له رعايته كلها ، فنشأ نشأة طالب في مدرسة دينية داخلية ، بين المشايخ والمدرسين ، فقرأ القرآن وجوَّده ، والفقه الحنفي وبرع فيه ، والخط وأتقنه ، وألمَّ بعلوم عصره ، وربي مع ذلك على الفروسية ، ودرب على القتال . ولما مات جهانكير وولي شاه جهان ، وَلَّى كلاً من أبنائه قطراً من أقطار الهند ، وكان نصيب هذا الطفل وهو (أورنك زيب(٣)) ولاية الدكن .

---

(١) هو الإمام الرباني الشيخ أحمد بن عبد الأحد الفاروقي السرهندي مجدد الألف الثاني، وُلد في سرهند (الهند) ورسخ في العلوم وبايع الشيخ عبد الباقي النقشبندي (م١٠١٤ هـ) ونال منه الإجازة والخلافة في الإرشاد، وقام بالدعوة إلى الدين الصحيح ومحاربة البدع والإلحاد، وإحياء السُّنن، نفع الله به وبأولاده وخلفائه خلقاً لا يحصون وعادت به الهند إلى الإسلام، توفي سنة ١٠٣٤ هـ.

(٢) يعني فاتح الدنيا ومتملِّكها.

(٣) يعني زينة العرش.

وكان لشاهجهان زوجة لا نظير لحسنها في الحسن ، ولا مثيل لحبه إياها في الحب هي (ممتاز محل) ، فماتت ، فرثاها ولكن لا بقصيدة من الشعر ، وخلّدها ولكن لا بصورة ولا تمثال ، لقد رثاها فخلّدها بقطعة فنية من الرخام ما قال شاعر قصيدة أشعر منها ، ولا لحن موسيقي أغنية أعذب منها ، ولا صور مصور لوحة أروع منها ، فهي شعر ، وهي أغنية ، وهي صورة ، وهي أعظم تحفة في فن العمران.

هي تاج محل ، هذا البناء العجيب الذي أدهش بجماله الدنيا ، وما زال يدهشها ، والذي لان فيه الرخام لهذه الأيدي العبقرية فجعلت منه أجمل بناء شيد على ظهر هذه الأرض بلا خلاف ، ونقشته هذا النقش الذي لم يعرف قط نقش في مثل دقّته وفنه وسحره.

هذا القبر الذي يأتي اليوم السياح ، من أقصى أميركا إلى (اكره) قرب دهلي ليشاهدوه ، ويسمعوا قصته وهي أعظم قصص الحب على الإطلاق. لقد صدّع[١] موت هذه الزوجة الحبيبة الإمبراطور العظيم ، فزهد في دنياه لأنها كانت هي دنياه وحقر ملك الهند لأنها كانت أعظم عنده من ملك الهند ، ولم يعد له أرب[٢] بعدها إلا أن يملص[٣] من حاضره ، ويوغل[٤] بذكرياته في مسارب[٥] الماضي ، ليعيش بخياله معها ، يستروح[٦] رياها[٧] ، ويستجلي جمالها ، ويسمع خفي نجواها ، ويحس حرارة أنفاسها ، ثم استحال حبه إياها حباً لهذا القبر الذي شاده

---

(١) كسر قلبه وأحزنه.

(٢) حاجة.

(٣) أملص أفلت وتخلّص.

(٤) يمعن ويبعد.

(٥) منافذه ومذاهبه.

(٦) استروح الشيء تشمّمه.

(٧) الريح الطيبة

لها ، فجن به جنوناً ، وصار يحس في برودته حرارتها ، وفي جموده خطراتها ، وفي صمته حديثها ، وانصرف عن الملك وأهمله فوثب ابنه الأكبر فولي الملك إلا اسمه ، وتصرف بالأمر وحده ، ونازعه إخوته ، وجاء كل من إمارته : شجاع من البنغال ، ومراد بخش[١] من (الكجرات) وأورنك زيب هذا من الدكن ، واستطاع أن يغلبهم جميعاً ، وينفرد بالأمر ووضع أباه في قصر من قصور الملك ، جعل له فيه ما يشتهيه من الفرش والطعام واللباس والحاشية والجواري ، وجعل له حيال سريره مرآة أقيمت على صناعة عجيبة لا تزال تدهش السياح يرى منها (تاج محل) ، على البعد وهو مضطجع في سريره كأنه أمامه ، وكان ذلك كل ما بقي له من لذائذ دنياه!

وكان جلوسه على سرير الملك سنة ١٠٦٨ هـ (قبل ثلثمائة سنة) وكأني بكم تظنون أن هذا الملك الذي ربي بين كتب الفقه وأوراد النقشبندية ، سيدخل خلوته ، ويعمل من قصره مدرسة أو تكية[٢] ، يصلي ويقرأ في كتب الفقه ، ويسيب أمور الدنيا ويهملها زاهداً فيها ، كلا يا سادة ، وما هذه خلائق الإسلام ، ولا هذي طريقته ، إن العمل لإسعاد الناس ، وإقامة العدل ، ورفع الظلم ، وجهاد الكافرين المفسدين في الأرض ، كل ذلك صلاة كالصلاة في المحراب ، بل هو خير من صلاة النفل ، وصوم التطوع ، وعدل ساعة أفضل من عبادة أربعين سنة.

لذلك ترونه لبس لأمة[٣] الحرب من أول يوم (وكان يومئذ في الأربعين) ونهض بنفسه ، يقضي على الخارجين ، ويقمع المتمردين ، ويفتح البلاد ، ويقرر العدالة والأمن في الأرض ، وما زال ينتقل من معركة يخوضها إلى معركة ، ومن بلد يصلحه إلى بلد ، حتى امتد سلطانه

---

(١) معناه معطي السؤل والمراد.

(٢) الزاوية.

(٣) الدرع جمعها لأم ولؤم.

من سفوح همالية ، إلى سيف البحر من جنوب الهند ، وكاد يملك الهند كلها ، حتى قضى شهيداً في سبيل الله في أقصى الجنوب بعيداً عن عاصمته بأكثر من ألف وخمسمائة كيل .

من خاض هذه المعارك ، استنفدت وقته كله ، ولم تدع له بقية لإصلاح في الداخل ، أو نظر في أمور الناس ولكن أورنك زيب ، حقق مع ذلك من الإصلاح الداخلي ما لم يحقق مثله إلا قليل . . من الملوك .

كان ينظر في شؤون الرعية من أدنى بلاده إلى أقصاها ، بمثل عين العقاب ، كما كان يبطش بالمفسدين بمثل كف الأسد ، فأسكن كل نأمة[١] فساد ، وأقر كل بادرة اضطراب ، ثم أخذ بالإصلاح فأزال ما كان باقياً من الزندقة التي جاء بها (أكبر) أبو جده ، وكانت الضرائب الظالمة ترهق الناس ولا ينال أمراء المجوس لفح من نارها فأبطل منها ثمانين نوعاً ، وسن للضرائب سنة عادلة ، وأوجبها على الجميع فكان هو أول من أخذها من هؤلاء الأمراء ، ولولا هيبته وشدته في الحق لأبوها عليه ، وأصلح الطرق القديمة ، وشق طرقاً جديدة ، ويكفي لتدركوا طول هذه الطرق أن تعرفوا أن طريقاً واحداً مما كان فتحه شيرشاه السوري ، كان يمشي فيه المسافر ثلاثة أشهر ، وكانت تحف به الأشجار من الجانبين على طوله وتتعاقب فيه المساجد والخانات[٢] !

وبنى المساجد في أقطار الهند ، وأقام لها الأئمة والمدرسين ، وأسس دوراً للعجزة ، ومارستانات[٣] للمجانين ، ومستشفيات للمرضى .

وأقام العدل في الناس جميعاً ، فلا يكبر أحد عن أن ينفذ فيه حكم

(١) النغمة والصوت يقال أسكت الله نامته أي أماته .
(٢) جمع خان وهو محلّ نزول المسافرين ، والكلمة دخيلة .
(٣) جمع مارستان وهو دار المرضى ، والكلمة من الدخيل أصله بيمارستان .

القضاء ، وكان أول من جعل للقضاء قانوناً ، فكان يحكم في القضايا الكبرى بنفسه لا حكماً كيفياً بل حكماً بالمذهب الحنفي معللاً له مدللاً عليه ، ونصب القضاة للناس في كل بلدة وقرية ، وكان للإمبراطور امتيازات فألغاها كلها ، وجعل نفسه تابعاً للمحاكم العادية ، وإن مَنْ له عليه حق أن يقاضيه به أمام القاضي مع السوقة والسواد من الناس .

كان الرجل عالماً ، فقيهاً بارعاً في الفقه الحنفي ، فأدنى العلماء ولازمهم ، وجعلهم خاصته ومستشاريه وبنى لهم المدارس ، وجعل الرواتب .

ووفق إلى أمرين ، لم يسبقه إليهما أحد من ملوك المسلمين .

الأول : أنه كان لم يكن يعطي عالماً عطية أو راتباً إلا طالبه بالعمل ، بتأليف أو تدريس ، لئلا يأخذ المال ويتكاسل ، فيكون قد جمع بين السيئتين ، أخذ المال بلا حق ، وكتمان العلم ـ فما قول مدرسي الإفتاء والأوقاف؟

والثاني : أنه أول من عمل على تدوين الأحكام الشرعية ، في كتاب واحد ، يتخذ قانوناً ، فوضعت له وبأمره وبإشرافه ونظره الفتاوى التي نسبت إليه فسميت الفتاوى العالمكيرية ، واشتهرت بالفتاوى الهندية ، ويعرفها كل من يقرأ هذا المقال من العلماء لأنها من أشهر كتب الفقه الإسلامي ، وأجودها ترتيباً وتصنيفاً .

وكان ـ بعد ذلك كله ـ يؤلف ، ألَّف كتاباً في الحديث وشرحه وترجمه إلى الفارسية ، ويكتب الرسائل البليغة ، التي تعد في لسانهم من روائع البيان ، ويكتب بخطه المصاحف ويبيعها ليعيش بثمنها لما زهد في أموال المسلمين وترك الأخذ منها ، وأنه حفظ القرآن بعد أن ولي الملك ، وأنه كان شاعراً موسيقياً ، ولكنه ترك ذلك ، وكرهه ، وأبطل ما كان للشعراء والموسيقيين من هبات وعطايا ولم يكن يراهم لازمين لأمة لا تزال تبني في الأرض صرح مجدها .

وكان يصلي الفرائض في أول وقتها مع الجماعة لا يترك ذلك بحال ، والجمعة في المسجد الكبير ولو كان غائباً عن المصر لأمر من الأمور ، يأتيه يوم الخميس ليصلي الجمعة ، ثم يذهب حيث شاء ، وكان يصوم رمضان مهما اشتد الحر ، وما أدراكم ما حر الهند؟ ويحيي الليالي بالتراويح ، ويعتكف في العشر الأواخر من رمضان في المسجد ، ويصوم الإثنين والخميس والجمعة ، في كل أسبوع من أسابيع السنة ، ويداوم على الطهارة بالوضوء ويحافظ على الأذكار ، ويمد أهل الحرمين بالصِلات المتكررة الدائمة .

وكان مع ذلك آية في الحزم والعزم ، والبراعة في فنون الحرب ، وفي التنظيم الإداري . فكيف استطاع أن يجمع هذا كله؟

كيف قدر أن يتعبد هذه العبادة؟ ويقضي بين الناس؟ ويؤلف في العلم؟ ويكتب المصاحف؟ ويحفظ القرآن؟ ويدير هذه القارة الهائلة؟ ويخوض هذه المعارك الكثيرة؟

لقد كان يقسِّم بين ذلك أوقاته ، ويعيش حياة مرتبة ، فوقت لنفسه ووقت لأهله ، ووقت لربه ، وللإدارة والقتال والقضاء أوقاتها .

حكم الهند كلها خمسين سنة كوامل ، وكان أعظم ملوك الدنيا في عصره وكانت بيده مفاتيح الكنوز ، وكان يعيش عيش الزهد والفقر ، ما مد يده ولا عينه إلى حرام ، ولا أدخله بطنه ، ولا كشف له إزاره ، كان يمر عليه رمضان كله لا يأكل إلا أرغفة معدودة من خبز الشعير ، من كسب يمينه من كتابة المصحف لا من أموال الدولة .

رحمة الله على روحه الطاهرة[1]

* * *

---

(١) مجلة «المسلمون» العدد الخامس من المجلد الرابع .

مُقدّمة الجُزء الثَّاني

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

أما بعد! فقد ظهر كتاب «مختارات من أدب العرب» عام ١٣٥٩هـ في جزء واحد ، وكانت الفكرة التي تسيطر على الكتاب عند تأليفه هي أن نختار أجمل النصوص وأكثرها حيوية في أدبنا العربي الإسلامي ، بصرف النظر عن مستواها اللغوي ، فكانت المختارات من درجات مختلفة في المادة اللغوية والمستوى الأدبي ، كان الطالب يتأرجح بين السهولة والصعوبة ، وربما كان في ذلك ترويح لنفسه ، إلا أننا رأينا في الزمن الأخير ، وأشار به علينا بعض رجال التعليم ، أن نقسم هذه المختارات في قسمين باعتبار درجاتها اللغوية ومستواها الأدبي ، ليسهل تطبيق هذا الكتاب والانتفاع به في مناهج التعليم العربية ، وليوافق مستوى الطلبة من طبقتين مختلفتين ، وقد اضطرنا بعض الأحيان ملاحظة الناحية التاريخية والحرص على استعراض الأدب العربي في تقدمه وتطوره وفي مراحله التاريخية المختلفة ، إلى عرض نماذج للنثر الفني ، لا يرتضيها الذوق العربي السليم ، ويرى فيها الناقد انحرافاً عن السليقة العربية الأولي وخضوعاً للآداب العجمية ، وعوامل اجتماعية ، ولكنه واقع تاريخي وثروة لغوية أدبية وأسلوب من أساليب الكتابة ، لم يسع المؤلف الإعراض عنها فأدخلها في الكتاب تقريراً للحقيقة ووفاء للتاريخ .

وهكذا جاء الكتاب في جزأين ، الجزء الأول والثاني ، بعد ما كان جزءاً واحداً وانتهزنا فرصة إعادة الطبع ، فأضفنا إلى الكتاب بعض نصوص أخرى لرجال لا يعدون من الأدباء المحترفين المنقطعين إلى

الأدب والكتابة ، على أنها لا تقل في جمالها الأدبي وحسن التعبير وصدق التصوير عن النصوص الأدبية التي يقع عليها الاتفاق ، بل تفوق كثيراً منها .

وقد ساعدني في إعداد الطبعة الثانية الأستاذ محمد الرابع الحسني أستاذ الأدب في دارالعلوم وكان له فضل في اختيار بعض القطع الجديدة .

وكان الاستعجال في الطبعة الأولى قد حال دون الشرح الوافي والحل الكافي للمفردات الغريبة وإيضاح المقصود ، وكان زمن المؤلف يضيق عن إتمام هذه الناحية لأشغاله الكثيرة المتنوعة ، فقيض الله لهذا الغرض الأستاذ أبا الفضل عبد الحفيظ البلياوي (رحمه الله) مدرس الأدب العربي في دار العلوم ، وعنده الخبرة التامة بمدارك الطلبة وما يحتاجون إليه من الشرح وحل الكلمات الغريبة وما يشكل عليهم ، فتناول الكتاب واعتنى بحل الغريب وإيضاح الغامض وكشف القناع عن مقاصد الكتاب ، وبذل في ذلك وقتاً طويلاً وتحمل عناء كبيراً ، وانتسخ الكتاب بقلمه ، ومثله للطبع ، فللأستاذ الفاضل شكر المؤلف وتقدير المعلمين وثناء الطلبة ، وفوق كل ذلك ثواب المحسنين وأجر العاملين .

وقد حَلَّينا جيدَ هذا الكتاب ـ كما فعلنا في الجزء الأول ـ بقطع مقتبسة من القرآن الحكيم ، وهذا الذي شرف قدر الأدب العربي ـ إذ نزل بلغته ـ وجعله أدباً عالمياً وأدباً خالداً ، ليعلم الطلبة أنه من نوع آخر . وأنه ليس من مدارك البشر ، إن هو إلا وحي يوحى ، وأتبعنا ذلك مختارات من الحديث النبوي الشريف ، ليعلموا أنه في الطبقة الأولى من البلاغة البشرية والحكمة النبوية .

ولله الحمد في الأولى والآخرة .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

لكهنؤ الهند لعشر خلون من ربيع الأول ١٣٩١ هـ

٦ مايو ١٩٧١ م

الآيــات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ(١) وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ(٢) وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ(٣) وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٤ ۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا

(١) أي الجبال الثوابت الرواسخ.

(٢) التي جاورت بعضها بعضاً.

(٣) إذا خرج نخلتان أو أكثر من أصل واحد فكل واحدة منها صنو.

خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ
ٱلۡمَثُلَٰتُۗ(١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٦﴾
وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴿٧﴾
ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ(٢) ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ
بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ
وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ(٣) بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ
يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ
وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ
ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي
ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ(٤) ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا
كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ
مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۩(٥) ﴿١٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ

---

(١) جمع مثلة وهي نقمة تنزل بالإنسان فيجعل مثالاً يرتدع به غيره.
(٢) أي تفسده فتجعله كالماء الذي تبتلعه الأرض.
(٣) أي الذاهب في سربه أي طريق كان.
(٤) أي الأخذ بالعقوبة.
(٥) جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب.

يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ
فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ
أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا (١) رَابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ
زَبَدٌ مِثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ (٢) وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ
النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۚ
وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ
أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ
الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ
الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾

(صدق الله العظيم) سورة الرعد : ١-٢٢

(١) ما يعلو الماء ونحوه من الرغوة

(٢) هو ما يرمي به الوادي أو القدر من الغثاء إلى جوانبه

الثَّبات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود[1] فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا (٩) إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر[2] وتظنون بالله الظنونا (١٠) هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا (١١) وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا (١٢) وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة[3] وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا (١٣) ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا (١٤) ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا (١٥) قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا

---

(١) نزلت هذه الآيات في غزوة الأحزاب وتسمّى غزوة الخندق، ووقعت سنة خمس للهجرة على القول المشهور، وعلى المعلم أن يلخص هذه الغزوة، ويصور الجو الذي وقعت فيه ليتيسّر للتلاميذ فهم هذه الآيات وتذوّقها.

(٢) جمع حنجرة وهي الحلقوم، وبلغت القلوب الحناجر كناية عن شدة الخوف.

(٣) غير حصينة تخشى عليها.

قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ
لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ(١) مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ
هَلُمَّ(٢) إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً(٣) عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ
يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم(٤)
بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى
ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ
لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾
وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا
زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن
قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ
وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا
عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ
ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا
لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ (صدق الله العظيم) [سورة
الأحزاب: ٩ـ٢٧]

* * *

(١) المثبطين.

(٢) اسم فعل بمعنى الدعاء إلى الشيء كتعال فتكون لازمة، وقد تستعمل متعدية نحو هلم شهداءكم أي أحضروهم.

(٣) جمع شحيح، والشح هو البخل مع الحرص.

(٤) طعنوا وآذوا بالكلام.

صفة رسول الله ﷺ

«كان رسول الله ﷺ متواصل[١] الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة ، طويل السكت لا يتكلم في غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه[٢] ، ويتكلم بجوامع الكلم[٣] ، كلامه فصل[٤] لا فضول ولا تقصير ؛ ليس بالجافي[٥] ولا المهين[٦] ، يعظم النعمة وإن دقت[٧] ، لا يذم منها شيئاً ، غير أنه لم يكن يذم ذواقاً[٨] ولا يمدحه ، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها[٩] ، فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه

(١) أي لا ينفك حزن عن حزن يعقبه.
(٢) جمع شدق بالكسر طرف الفم أي أنه يستعمل جميع فمه للتكلم ولا يقتصر على تحريك شفتيه كفعل المتكبرين.
(٣) أي بكلمات قليلة الحروف جامعة لمعانٍ كثيرة، وقيل المراد بالجوامع القواعد الكلية المحتوية على الفروع المتكثرة.
(٤) الفاصل بين الحق والباطل.
(٥) الغليظ الطبع السيء الخلق العديم البر.
(٦) يروى بضم الميم وفتحها فالضم على الفاعل من أهان أي لا يهين من يصحبه والفتح على المفعول من المهانة أي الحقارة والابتذال فالمعنى لم يكن غليظ الخلق ولا ضعيفه بل كان معتدلاً من أنواع المهابة والوقار والجلالة.
(٧) صغرت وقلت.
(٨) المأكول والمشروب فعال بمعنى المفعول من الذوق.
(٩) أي ولا يغضبه أيضاً ما كان له علاقة بالدنيا.

اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح[(١)] ، وإذا فرح غض طرفه ، جُل[(٢)] ضحكه التبسم ، يفتر[(٣)] عن مثل حب الغمام[(٤)] ، وكان فخماً[(٥)] مفخماً[(٦)] يتلألأ[(٧)] وجهه تلألؤ القمر ليلةَ البدر ، مسيح[(٨)] القدمين ينبو[(٩)] عنهما الماء ، إذا زال زال[(١٠)] قلعاً يخطو تكفيا[(١١)] ويمشي هونا ذريع[(١٢)] المشية . إذا مشى كأنما ينحط من صبب[(١٣)] ، وإذا التفت التفت جميعاً[(١٤)] ، خافض الطرف نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة[(١٥)] ، يسوق[(١٦)] أصحابه ، يبدأ من لقي بالسلام»[(١٧)] .

---

(١) جد في الإعراض وبالغ فيه .

(٢) معظمه وأكثره .

(٣) من افتر ضحك ضحكاً حسناً حتى بدت أسنانه من غير قهقهة .

(٤) أي البرد بفتحتين .

(٥) بفتح الفاء وسكون الخاء أي عظيماً في نفسه .

(٦) أي المعظم في الصدور والعيون .

(٧) أي يستنير .

(٨) أملسهما .

(٩) يتباعد ويتجافى .

(١٠) أي رفع رجله عن الأرض رفعاً بائناً بقوة لا كمن يمشي اختيالاً ويقارب خطاه تبختراً .

(١١) جملة مؤكدة لما قبلها وهو بكسر الفاء المشددة بعدها ياء أي يمشي مائلاً إلى سنن المشي لا إلى طرفيه يقال يتكفأ فلان أي يتمايل إلى قدام .

(١٢) أي سريعها .

(١٣) أي محل منحدر .

(١٤) أي لا يسارق النظر .

(١٥) وهي مفاعلة من اللحظ وهو النظر باللحاظ يقال لحظه ولحظ إليه أي نظر إليه بمؤخر العين والمراد أن جل نظره في غير أوان الخطاب الملاحظة فلا يناقض قوله إذا التفت التفت جميعاً وتحمل الملاحظة على حال العبادة .

(١٦) أي يقدمهم أمامه ويمشي خلفهم تواضعاً .

(١٧) عن الحسن بن علي ، عن خاله هند بن أبي هالة .

«لم يكن فاحشاً[١] متفحشاً[٢] ولا صخاباً[٣] في الأسواق ، ولا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح[٤] . ما ضرب بيده شيئاً قط إلاَّ أن يجاهد في سبيل الله ولا ضرب خادماً ولا امرأة ، ما رأيته منتصراً[٥] من مظلمة ظُلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله تعالى شيء ، فإذا انتهك من محارم الله تعالى كان من أشدهم غضباً ، وما خُيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، (وإذا دخل بيته) كان بشراً من البشر يفلي[٦] ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه .

كان يخزن لسانه إلا فيما يعنيه ويؤلّفهم ولا ينفرهم. ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي على أحد منهم بشره[٧] ولا خلقه. ويتفقد[٨] أصحابه ويسأل عما في الناس ، ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهيه[٩] معتدل الأمر غير مختلف ، ولا يغفل مخافة أن يغفلوا ويملوا ، لكل حال عنده عتاد[١٠] ، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه ، الذين يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة[١١]

---

(١) أي ذو فحش من القول والفعل وإن كان استعماله في القول أكثر منه في الفعل والصفة.
(٢) أي ولا المتكلف به أي لم يكن الفحش له خلقياً ولا كسبياً.
(٣) أي صيَّاحاً.
(٤) صفح عنه : أعرض عنه وتركه، بابه فتح.
(٥) منتقماً.
(٦) فلا يفلي فلياً رأسه أو ثوبه: نقاهما من القمل.
(٧) بالكسر طلاقة الوجه وبشاشته.
(٨) أي يتعرف ويطلب من غاب منهم.
(٩) بتشديد الهاء وتخفيفها من التوهية والإيهاء: يضعفه.
(١٠) بالفتح هو العدة والتأهب مما يصلح لكل ما يقع ج أعتدُ وعُتُد وأعتِدة.
(١١) المداراة وهي إصلاح أحوال الناس بالمال والنفس.

ومؤازرة[١]؛ لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك ، يعطي كل جلسائه بنصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، من جالسه أو فاوضه[٢] في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف ، ومن سأله حاجته لم يرده إلا بها أو بميسور من القول ، قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق سواء ، مجلسه مجلس علم وحياء وصبر وأمانة لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن[٣] فيه الحرم ولا تنثى[٤] فلتاته[٥]؛ متعادلين[٦] يتفاضلون فيه بالتقوى ، متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب[٧]»

«كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب[٨] ليس بفظّ[٩] ولا غليظ ولا صخاب ولا فحّاش ولا عياب ولا مشاح[١٠] ، يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيس منه ولا يجيب[١١] فيه؛ قد ترك نفسه من ثلاث: المراء[١٢]

---

(١) المعاونة.

(٢) أي عامله في حاجة أو خالطه.

(٣) بضم التاء وسكون الهمزة من الابن وهو العيب والتهمة أي لا تقذف ولا تعاب.

(٤) بضم التاء وسكون النون وفتح المثلثة أي لا تشاع ولا تذاع.

(٥) أي زلاته ومعائبه على تقدير وجود وقوعها جمع فلتة وهي ما يبدر من الرجل من سقطة.

(٦) متساوين.

(٧) عن الحسن بن علي عن الحسين بن على عن علي بن أبي طالب.

(٨) أي سريع العطف كثير اللطف جميل الصفح، وقيل قليل الخلاف، وقيل كناية عن السكون والوقار والخشوع والخضوع.

(٩) الغليظ السيىء الخلق الخشن الكلام ج أفظاظ، وفي القرآن: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾. [آل عمران: ١٥٩]

(١٠) اسم فاعل من باب المفاعلة من الشح وهو البخل وقيل أشده.

(١١) أي لا يجيب أحداً فيما لا يشتهي بل يسكت عنه عفواً وتكرماً.

(١٢) الجدال.

والإكبار وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث كان لا يذمّ أحداً ولا يعيبه ولا يطلب عورته. ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه. وإذا تكلم أطرق[١] جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير فإذا سكت تكلموا لا يتنازعون عنده الحديث. ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم عنده حديث أولهم[٢] يضحك مما يضحكون ويتعجب ممّا يتعجبون ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته حتى إن كان أصحابه يستجليونهم ويقول إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فارفدوه[٣] ولا يقبل الثناء إلا من مكافىء[٤] ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز[٥] فيقطعه بنهي أو قيام.

أجود الناس صدراً وأصدق الناس لهجة [٦] وألينهم عريكة [٧] وأكرمهم عشيرة من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبَّه ويقول ناعته لم أرَ قبله ولا بعده مثله ﷺ»[٨]

* * *

(١) أمالوا رأسهم وأقبلوا ببصرهم إلى صدورهم.
(٢) أي حديث أفضلهم أو كأول تكلمهم أي لا عن ملال وسآمة.
(٣) الإرفاد الإعطاء والإعانة.
(٤) أي مقارب في مدحه غير مجاوز به عن حد مثله ولا مقصر به عما رفعه الله إليه من علو مقامه.
(٥) أي يتجاوز عن الحد أو الحق.
(٦) اللسان.
(٧) الطبيعة ج عرائك.
(٨) عن الحسن بن علي عن الحسين بن علي عن علي رضي الله عنهم ملتقطاً من جزء الشمائل للترمذي.

صفـة سَيّدنا عُمَر بنْ الخطّـاب رضي الله عنه

رجل لا يحب الباطل وليس من الباطل في شيء ، إن الله جعل الحق على لسانه وقلبه ، وهو الفاروق فرّق الله به بين الحق والباطل ، أفضل (الناس) مقدرة وأملكهم لنفسه ، أشدهم في حال الشدة وأسلسهم في حال اللين ، وأعلمهم برأي ذوي الرأي. لا يتشاغل بما لا يعنيه ، ولا يحزن لما ينزل به ، ولا يستحيي من التعلّم ، ولا يتحير عند البديهة ، قوي على الأمور لا يخور[١] لشيء منها حده بعدوان ولا تقصير ، يرصد[٢] لما هو آت عتاده من الحذر والطاعة ، رشيد الأمر تنطق السكينة على لسانه وقلبه ، من رآه علم أنه خلق غناء للإسلام ، كان ـ والله ـ أجودنا نسيج[٣] وحدِهِ قد أعد للأمور أقرانها. كان إسلامه فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة ، وكان حصناً حصيناً للإسلام ما زلنا أعزة منذ أسلم ، استخلف فأقام واستقام حتى ضرب الدين بجرانه[٤] ، إنما كان مثل الإسلام أيامه مثل أمر مقبل لم يزل في إقبال ، فلما قُتل أدبر فلم يزل في إدبار وإن موته ثلم الإسلام ثلمة[٥] لا ترتق[٦] إلى يوم القيامة.

كان جواداً بالحق بخيلاً بالباطل ، يرضى من الرضى ويسخط من

---

(١) لا يفتر ولا يضعف.

(٢) رصد كنصر رَصْداً ورصَدَاً، رقبه.

(٣) أي منفرد لا نظير له.

(٤) أي ثبت واستقر من قولهم ضرب البعير بجرانه وألقى جرانه إذا برك.

(٥) الخلل، محل الكسر من المكسور.

(٦) رتق كنصر وضرب رتقا الثوب ضد فتقه.

السخط ، لم يكن مدّاحاً ولا مغياباً[١] ، طيب الطرف عفيف الطرف[٢] ، وقافاً عند كتاب الله ، وكان كالطير الحذري الذي كأنّ له بكل طريق شركا[٣] ، قليل الضحك لا يمازح أحداً ، مقبلاً على شأنه ، إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وهو النّاسك حقاً يمشي في الأسواق ويطوف في الطرقات ، ويقضي بين الناس في قبائلهم ، ويعلمهم في أماكنهم ، رأيته خرج إلى السوق وبيده الدرة[٤] وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم[٥] ، وقدم الجابية[٦] على جمل أورق[٧] تلوح صلعته[٨] للشمس ليس عليه قلنسوة ولا عمامة رجلاه بين شعبتي رحله بلا ركاب ، وطاؤه كساء أنبجاني[٩] ذو صوف هو ركابه إذا ركب وفراشه إذا نزل ، حقيبته[١٠] نمرة[١١] أو شملة[١٢] محشوة[١٣] ليفاً[١٤] هي حقيبته إذا ركب ووسادته إذا نزل، عليه قميص من كرابيس[١٥] قد رسم وتخرق جنبه[١٦] .

---

(١) مبالغة من الغيبة.

(٢) بفتحتين أي الذيل.

(٣) حبائل الصيد ج شُرُك وأشراك.

(٤) السوط ج دِرَر.

(٥) جمع أديم وهو الجلد المدبوغ.

(٦) موضع بالشام سافر إليه سيدنا عمر خليفةً.

(٧) الذي لونه لون الرماد.

(٨) مقدم رأسه وقد سقط شعره.

(٩) نسبة إلى أنبجان موضع يعمل فيه الكساء.

(١٠) ما يحمله الراكب خلفه والخريطة التي يضع فيها وراءه الزاد ونحوه.

(١١) بردة من صوف فيها خطوط بيض وسود ج نمَار.

(١٢) كساء واسع يشتمل به ج شَمَلات.

(١٣) مملوءة.

(١٤) قشر النخل وما شاكله.

(١٥) جمع كرباس وهو الثوب الخشن، والكلمة من الدخيل.

(١٦) ملتقط من سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي.

صِفـة سَيّدنا عَليّ بن أبي طالب رضي الله عنه

عن أبي صالح قال: قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، لضرار بن ضمرة: صف لي عليًا ، فقال: أو تعفيني؟ قال: بل صِفْهُ! قال: أو تعفيني؟ قال: لا أعفيك. قال: أما إذاً فإنه ـ والله ـ كان بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلاً ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ومن نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها[١] ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان ـ والله ـ غزير[٢] الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جَشُبَ[٣] ، كان ـ والله ـ كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ويبتدئنا إذا أتيناه ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن ـ والله ـ مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة ولا نبتدئه . فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم؛ يعظم أهل الدين ويحب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله! لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى[٤] الليل سجوفه[٥] ، وغارت[٦]

---

(١) بهجتها وغضارتها.
(٢) الكثير بابه كرم.
(٣) جشب كنصر وعلم جَشْباً وككرم جشابة الطعام أي غلظ.
(٤) أسدل.
(٥) جمع سجف بالكسر والفتح: الستر.
(٦) سقطت وانخسفت.

نجومه ، وقد مثل[١] في محرابه قابضاً على لحيته يتململ[٢] تململَ السليم[٣] ، ويبكي بكاء الحزين وكأني أسمعه وهو يقول:

يا دنيا! أبي تعرضت أم لي تشوفت[٤]! هيهات هيهات! غُرى غيري! قد بَتَتُّكِ ثلاثاً لا رجعةَ لي فيك! فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير! آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق!

قال: فذرفت[٥] دموع معاوية ـ رضي الله عنه ـ حتى خرّت على لحيته فما يملكها ، وهو ينشفها بكمه ، وقد اختنق القوم بالبكاء ثم قال معاوية: رحم الله أبا الحسن! كان ـ والله ـ كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزن من ذُبح ولدها في حجرها[٦] فلا ترقأ[٧] عبرتها ، ولا يسكن حزنها[٨].

* * *

(١) مثل كنصر وكرم مثولاً أي قام منتصباً.
(٢) تململ: تقلب على فراشه مرضاً أو غماً.
(٣) اللديغ أو الجريح المشرف على الموت، سموه به تفاؤلاً بالسلامة.
(٤) تشوف إلى الشيء: نظر وأشرف وتطلع إليه.
(٥) ذرف كضرب ذرفاً وذريفاً وذروفاً وذرفاناً وتذرافاً الدمع أي سال.
(٦) أي حضنها ج حجور وحجورة وأحجار.
(٧) رقأ كفتح رقأ ورقوءاً الدمع أو الدم أي جف وانقطع.
(٨) صفة الصفوة لابن الجوزي.

صُلح الحديبيَّة

عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان يُصَدِّقُ كلُّ واحد منهما حديثَ صاحبه قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحُدَيْبِيَة[١] حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: إنَّ خالد[٢] بن الوليد بالغُمَيم[٣] في خيلٍ لقريشٍ طليعة[٤]، فخُذوا ذاتَ اليمين. فو الله ما شعر بهم خالدٌ حتى إذا هم بقَتَرة[٥] الجيش، فانطلق يركض[٦] نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنيّة[٧] التي يهبطُ[٨] عليهم منها، بركت به راحلتُه. فقال الناس:

---

(١) بتخفيف الياء الثانية وقد تشدد، موضع قريب من مكة، قرية، سميت ببئر هناك أو بشجرة وأكثرها في الحرم، وقد خرج النبي ﷺ يوم الإثنين هلال ذي القعدة سنة ست من الهجرة وهو المراد بقوله: زمن الحديبية.

(٢) القائد الإسلامي المعروف بسيف الله وكان يومئذ كافراً.

(٣) بالضم واد بديار حنظلة.

(٤) أي مقدمة الجيش.

(٥) الغبار الأسود.

(٦) ركض كنصر ركضاً الفرس برجليه أي استحثه للعدو استعجالاً حال كونه منذراً لقريش.

(٧) طريق العقبة ج ثنايا.

(٨) هبط كنصر وضرب هبوطاً فلان من الجبل أي نزل ويهبط عليهم أي على أهل مكة. =

حلْ حَلْ[١] فألَحَّتْ[٢]، فقالوا: خَلأتِ[٣] القَصْواءُ[٤]! خلأت القَصْواء! فقال النبي ﷺ: ما خلأتِ القَصْواءُ وما ذاك لها بخُلُقٍ، ولكن حَبَسَها حابِسُ الفيل[٥].

ثم قال: والذي نفسي بيده، لا يسألوني خُطَّةً[٦] يُعظِّمونَ فيها حُرُماتِ الله إلا أعطيتُهم إيّاها، ثم زَجَرَها[٧] فوثَبَتْ. قال: فعدلَ عنهم حتى نزلَ بأقصى الحُدَيْبيّة على ثَمدٍ[٨] قليل الماء يتبرَّضُه[٩] الناسُ تَبَرُّضاً، فلم يُلبِّثْه[١٠] الناسُ حتى نَزَحوهُ[١١]، وشُكِيَ إلى رسول الله ﷺ العطشُ، فانتزع سهماً من كِنانته ثم أمرهم أن يجعلوهُ فيه؛ فو الله ما زال يجيشُ لهم بالرِّيِّ[١٢] حتى صَدَروا[١٣] عنه. فبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيْلُ بنُ وَرْقاءَ الخُزاعِيُّ في نَفَرٍ[١٤] من خُزاعة[١٥] وكانوا عَيبةَ[١٦] نُصْحِ رسول الله ﷺ من

---

(١) كلمة زجر للناقة.
(٢) من الإلحاح أي لزمت مكانها.
(٣) خلأ كفتح خلوءاً أي لم يبرح مكانه.
(٤) اسم ناقة رسول الله ﷺ.
(٥) أي الله تعالى، والفيل فيل أبرهة.
(٦) الخصلة أو الأمر العظيم.
(٧) زجره كنصر زجراً: طرده صائحاً به.
(٨) الحفرة يجتمع فيها ماء المطرج ثِماد.
(٩) أي يأخذونه قليلاً قليلاً.
(١٠) أي لم يتركوه يلبث ذلك الماء طويلاً.
(١١) نزح كضرب وفتح نزحاً ونزوحاً البئر أي استقى ماءها حتى قل كثيراً أو نفد.
(١٢) روى كفرح رِيًّا ورَيًّا ورِوًى من الماء: شرب وشبع.
(١٣) أي رجعوا.
(١٤) جماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة.
(١٥) قبيلة مشهورة.
(١٦) بالفتح: ما يوضع فيه الثياب يحفظها ج عَيب وعِياب وعِيبات، والمراد أنهم موضع النصح له والأمانة على سره.

أهل تِهامَة ، فقال : إنّي تركتُ كعبَ بن لُؤيّ وعامرَ بن لؤيّ نزلوا أعْدَادَ[١] مِياهِ الحُدَيْبيّة ومعهم العُوذُ[٢] المَطافيلُ[٣] وهم مقاتِلوكَ وصادّوك عن البيتِ . فقال رسول الله ﷺ : إنا لم نَجىء لقتالِ أحَدٍ ولكنّا جئنا مُعْتَمِرين ، وإنّ قريشاً قد نَهَكَتْهُم[٤] الحَرْبُ وأضرَّت بهم ، فإن شاؤوا مادَدْتُهم[٥] مدة ، ويخلّوا بيني وبين الناس فإن أظهرْ :[٦] فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخلَ فيه الناسُ فعلوا ، وإلا فقد جَمّوا[٧] ، وإن هم أبوْا فو الذي نفسي بيده لأُقاتِلنَّهم على أمري هذا حتى تنفردَ سالِفتي[٨] ، وليُنْفذنّ اللهُ أمرَهُ .
فقال بُدَيْلٌ : سأُبلِّغهم ما تقولُ . فانطلق حتى أتى قُريشاً قال : إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل ، وسمعناه يقول قولاً ، فإن شئتم أن نعرضَهُ عليكم فَعَلْنا . قال سُفَهاؤُهم : لا حاجةَ لنا أن تُخْبِرنا عنه بشيء . وقال ذوو الرأي منهم : هاتِ ما سمعتَهُ يقول . قال سمعتُهُ يقول كذا وكذا ، فحدثهم بما قال النبي ﷺ .

فقام عروة بن مسعود فقال : أيْ قومِ! ألستُ بالوالدِ؟ قالوا : بلى . قال : أو لستم بالولد؟ قالوا : بلى . قال : فهل تتهمونني؟ قالوا : لا . قال : ألستم تعلمون أني استنفرت[٩] أهلَ عكاظ ، فلما بلَّحوا[١٠] عليَّ جئتكم

---

(١) جمع عِدّ بالكسر والتشديد وهو الماء الذي لا انقطاع له .
(٢) العائذ ج عُوذ وعُوذان وجج عوذات : الحديثة النتاج من الظباء والإبل والخيل .
(٣) المطفل : ذات الطفل من الانس والوحش ج مطافل ومطافيل . أي جاؤوا بقضّهم وقضيضهم .
(٤) نهك كفتح نهكاً ونهكت الحمّى فلاناً أي أضنته وجهدته .
(٥) أي جعلت بيني وبينهم مدة يترك الحرب فيها .
(٦) أغلب وأنتصر .
(٧) أي استراحوا . .
(٨) مقدم العنق ج سوالف . أراد : حتى يُفَرَّق بين رأسي وجسدي (النهاية ٣/ ٣٩٠)
(٩) أي دعوتهم إلى نصركم .
(١٠) امتنعوا وعجزوا عن الإجابة .

بأهلي وولدي ومَنْ أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإنَّ هذا عرضَ لكم خُطَّةَ رُشْدٍ، اقبلوها ودعوني آته. قالوا: ائته، فأتاه، فجعلَ يُكلّم النبيَّ ﷺ. فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل. فقال عروة عند ذلك: أي محمد! أرأيت ان استأصلت[١] أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح[٢] أصله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لأرى وجوهاً وإني لأرى أشواباً[٣] من الناس خليقاً[٤] أن يفرّوا ويَدَعُوك. فقال له أبو بكر: أمصص[٥] بظر[٦] اللات! أنحن نفر عنه ونَدَعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر! فقال: أما والذي نفسي بيده! لولا يد كانت لك عندي لم أجْزِكَ بها لأجَبْتُكَ. قال: وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما كلَّمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائمٌ على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف وعليه المِغفر[٧]، فكلما أهوى[٨] عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل[٩] السيف، وقال: أخِّر يَدَكَ عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة. فقال: أي غُدَرُ[١٠]! ألستُ أسعى في غَدرتك؟ وكان المغيرةُ صحب قوماً في الجاهلية فَقَتَلَهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم. فقال النبي ﷺ: أما الإسلام فأقبلُ، أما المال فلستُ منه في شيء.

---

(١) استأصل الشيء أي قلعه من أصله.
(٢) أي استأصل.
(٣) أي الأخلاط من أنواع شتى.
(٤) جديراً.
(٥) مص كفرح ونصر مصّاً الشيء: رشفه، والفصيح الجيد من باب فرح.
(٦) ما بين الاسكتين من الامرأة ج بظور.
(٧) قطعة من الدرع يلبسها المحارب تحت القلنسوة ج مغافر.
(٨) مدّ يده.
(٩) هو ما يكون أسفل القراب من فضة وغيرها.
(١٠) بضم المعجمة وفتح المهملة معدول عن غادر.

ثم إن عروة جعل يرمُقُ[١] أصحاب النبي ﷺ بعينيه. قال: فو الله ما تنخّم[٢] رسول الله ﷺ نخامة[٣] إلا وقعت في كفّ رجل منهم فدلك[٤] بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وَضوئه[٥]، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يُحِدُّون[٦] إليه النظر تعظيماً له. فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أيْ قَوْمِ! واللهِ لقد وفدتُ على الملوكِ ووفدتُ على قَيْصر[٧] وكِسْرى[٨] والنَّجاشي[٩] واللهِ إن رأيتُ مَلِكاً قطُّ يُعظِّمه أصحابُهُ ما يعظِّم أصحابُ محمدٍ محمداً. والله إن تنخّم نخامة إلا وقعت في كفّ رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده. وإذا أمرهُمْ ابتدروا أمرَهُ، وإذا توضَّأ كادوا يقتتلون على وضوئه؛ وإذا تكلَّم خفضوا أصواتَهم عنده، وما يُحدُّون إليه النظرَ تعظيماً له. وإنّه قد عرض عليكم خُطَّة رُشْدٍ فاقبلُوها.

فقال رجلٌ من بني كِنانة: دَعُوني آتِهْ، فقالوا: ائته. فلما أشرَف[١٠] على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ: هذا فلانٌ، وهو من قومٍ يُعَظّمون البُدْن[١١]، فابعثوها له، فبُعثت له، واستقبله الناس

---

(١) رمق كنصر رمقاً لحظ لحظاً خفيفاً.
(٢) دفع بشيء من صدره أو أنفه.
(٣) ما يدفعه الإنسان من صدره أو أنفه.
(٤) دلك كنصر دلكا طلاه وضمَّخه.
(٥) بالفتح وهو الماء الذي يتوضا به.
(٦) أحدّ إليه النظر أي بالغ في النظر إليه.
(٧) لقب ملك الروم.
(٨) لقب ملك الفرس.
(٩) لقب ملك الحبشة.
(١٠) اطلع عليه.
(١١) جمع بدنة أي الناقة أو البقرة.

يُلَبُّون[١]. فلما رأى ذلك قال: سبحانَ اللهِ! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيتِ. فلمّا رجعَ إلى أصحابه قال: رأيتُ البُدْنَ قد قُلِّدَتْ[٢] وأُشعِرَتْ[٣]، فما أرى أن يُصدّوا عن البيتِ.

فقام رجل منهم يقال له مِكْرَزُ بنُ حَفْصٍ، فقال: دعوني آتِهِ، فقالوا ائْتِهِ. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: هذا مِكْرَز، وهو رجل فاجرٌ، فجعل يكلّم النبي ﷺ.

فبينما هو يكلّمه إذ جاء سُهَيْل بن عمرو. قال معمر: فأخبرني أيوب عن عكرمة أنه لمّا جاء سُهَيل قال النبي ﷺ: قد سَهُلَ لكم من أمركم. قال معمر قال الزهري في حديثه فجاءسُهيل بن عمرو فقال: هات اكتُبْ بيننا وبينكم كتاباً. فدعا النبي ﷺ الكاتبَ[٤]، فقال النبي ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سُهَيْل: أما الرحمنُ فو اللهِ ما أدري ما هو؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم، كما كنتَ تكتبُ. فقال المسلمون: والله! لا نكتبُها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ: اكتب باسمك اللهمّ. ثم قال: هذا ما قاضى[٥] عليه محمَّدٌ رسولُ الله. فقال سُهَيْلٌ: والله لو كُنّا نعلمُ أنك رسولُ الله ما صددناكَ عن البيت، ولا قاتلناك؛ ولكن اكتُبْ: محمد بن عبد الله. فقال النبي ﷺ: والله إنّي لرسولُ الله وإن كذَّبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله. قال الزهري: وذلك لقوله لا يسألوني خُطّة يعظّمون فيها حرماتِ الله إلا أعطيتهم إياها. فقال له النبي ﷺ: على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به. فقال سهيل. والله!

---

(١) أي يقولون: لبيك لبيك.
(٢) التقليد أن يعلق في عنق الدابة شيء ليعلم أنها هدي.
(٣) الإشعار: الطعن في سنام الهدى بحيث يسيل منه الدم ليكون علامة أنه هدي.
(٤) هو علي (كرم الله وجهه).
(٥) صالح.

لا تتحدثُ العربُ أنا أُخِذنا ضُغْطَةً[١] ولكن ذلك من العام المقبل فكتب. فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجلٌ وإن كان على دينك إلا رَدَدْتَهُ إلينا. قال المسلمون: سبحانَ اللهِ! كيف يُردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً.

فبينا هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سُهَيْل بن عمرو يَرْسُفُ[٢] في قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهُرِ المسلمين، فقال سُهيلُ: هذا أول ما أقاضيك عليه أن تردَّه إليَّ. فقال النبي ﷺ: إنا لم نَقْضِ الكتاب بعدُ. قال: فو الله إذن لا أصالحك على شيء أبداً. فقال النبي ﷺ: فأجِزْهُ[٣] لي. فقال: ما أنا بمجيز ذلك. قال بلى! فافعل. قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بل قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي معشر المسلمين! أُردّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً! ألا ترون ما قد لقيت! وكان قد عُذِّب عذاباً شديداً في الله.

قال عمر بن الخطاب: فأتيتُ نبيَّ الله ﷺ فقلتُ: ألستَ نبيَّ الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى! قلت فلم نُعطي الدَّنيَّةَ[٤] في ديننا إذن؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري. قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيتَ فنطوف به؟ قال: بلى! فأخبرتك أنا نأتيه العامَ؟ قلت: لا. قال: فإنك آتية ومطوّف به. قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر! أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى! قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى! قلت: فلم نُعطى الدنيّة في ديننا إذن؟ قال: أيها الرجل! إنه رسول الله وليس يَعصي ربه وهو

---

(١) الزحمة والضيق، يقال: أخذت فلاناً ضغطة إذا ضيقت عليه لتكرهه على الشيء وتلجئه إليه.

(٢) رسف كنصر وضرب رسفاً ورسيفاً ورسفاناً مشى مشية المقيد.

(٣) أي امض لي فعلي فيه فلا أرده إليك أو استثنه من القضية.

(٤) النقيصة.

ناصره ، فاستمسك بغَرزه[١] فو الله إنه على الحق. قلت: أليس كان يُحدِّثُنا أنّا سنأتي البيت ونطوفُ به؟ قال: بلى! أفأخْبرَكَ أنَّكَ تأتيه العامَ؟ قلت: لا ، قال: فإنكَ آتيهِ ومُطوِّفٌ به.

قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً[٢].

قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. قال: فو الله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحدٌ دخلَ على أمِّ سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس. فقالتْ أمُّ سَلَمة: يا نَبِيَّ الله! أتُحبُّ ذاك؟ اخرُجْ ثم لا تكلِّمْ أحداً منهم كَلِمةً حتى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وتدعو حالقَكَ فيحلِقَكَ. فخرج فلم يُكَلِّمْ أحداً منهم حتى فعل ذلك ، نحر بُدْنَهُ ودعا حالِقَهُ فحَلَقَهُ. فلما رأوا ذلك قاموا فنَحروا وجعل بعضُهم يحلقُ بعضاً حتى كاد بعضهم يقتُلُ بعضاً غمّاً. ثم جاءه نِسْوةٌ مؤمناتٌ فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ ﴾ ـ حتى بلغ ـ ﴿ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾[٣] [الممتحنة: ١٠]. فطلق عمر يومئذٍ امرأتين كانتا له في الشرك فتزوَّج إحداهما معاويةِ بن أبي سفيان ، والأخرى صفوان بن أُميّة.

ثم رجعَ النبيُّ ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بَصيرٍ رجلٌ من قريشٍ وهو مسلمٌ فأرسلوا في طلبه رجلين ، فقالوا: العهد الذي جعلتَ لنا ، فدفعه إلى الرجلين ، فخرجا به حتى بلغا ذا الحُلَيفَةِ[٤] فنزلوا يأكلون من عُدتهم[٥]. فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفَكَ هذا

(١) ركاب الرجل من جلد ج غروز واستمسك بغرزه أي صاحبه ولا تخالفه.
(٢) أي عملت لذلك التوقف في الامتثال الذي فرط مني أعمالاً صالحة لتكفر عني.
(٣) جمع عصمة أي بما يعتصم به الكافرات من عقد وسبب.
(٤) قرية بينها وبين مكة ستة أميال أو سبعة ومنها ميقات أهل المدينة.
(٥) ما أعددته لحوادث الدهر من مال وسلاح ج عُدد.

يا فلانُ جيداً ، فاستلَّه[١] الآخرُ. فقال: أجل ، واللهِ إنه لجيّدٌ لقد جرّبْتُ به ثم جَرَّبْتُ. فقال أبو بصير: أرني أَنْظُرْ إليه! فأمكنه منه فضربه حتى برد ، وفرَّ الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو. فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذُعراً[٢]. فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتِل والله صاحبي وإني لمقتول. فجاء أبو بَصير فقال: يا نبيَّ اللهِ! قد والله أوفى[٣] الله ذمتك ، قد رَدَدْتَني إليهم ثم أنجاني الله منهم. قال النبي ﷺ: ويل امِّهِ مِسْعَرَ[٤] حربٍ لو كان له أحد[٥] فلما سمع ذلك عرف أنه سيردّه إليهم فخرج حتى أتى سيفَ[٦] البحر. قال: وينفلتُ[٧] منهم أبو جندل بن سُهيل ، فلحق بأبي بَصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعتْ منهم عِصابةٌ[٨]. فواللهِ! ما يسمعون بعيرٍ[٩] خرجَتْ لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريشٌ إلى النبي ﷺ تناشده[١٠] الله والرَّحِم: لما أرسل فمن أتاه فهو آمن. فأرسل النبي ﷺ إليهم فأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم ـ حتى بلغ ـ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح/ ٢٤].

وكانت حميتهم أنهم لم يُقروا أنه نبيُّ الله ولم يُقرُّوا ببسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بينهم وبين البيت.

---

(١) سَلّ كنصر سلاًّ واستلّ الشيء من الشيء انتزعه وأخرجه برفق.

(٢) خوفاً.

(٣) أتمّ.

(٤) بالكسر موقد النار يقال هو مسعر حرب أي مثيرها ومحركها.

(٥) أي لو قدر له أحد أن ينصره.

(٦) بكسر السين أي الساحل.

(٧) يتخلّص.

(٨) الجماعة من الرجال أو الخيل أو الطير ج عصائب.

(٩) القافلة.

(١٠) ناشده حلّفه. ناشده الأمر وفي الأمر أي طلبه إليه.

وقال عقيل عن الزهري: قال عُروة: فأخبرتني عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن وبلغنا أنه لما أنزل الله أن يردوا إلى المشركين ما أنفقوا على مَنْ هاجر من أزواجهم وحكم على المسلمين أن لا يُمسكوا بِعِصَمِ الكوافر أن عمر طلق امرأتين قُرَيبة بنت أبي أُميّة وبنت جرول الخزاعي. فتزوج قُريبة معاوية وتزوج الأخرى أبو جهم، فلما أبىٰ الكفار أن يُقرُّوا بأداء ما أنفق المسلمون على أزواجهم أنزل الله: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ [الممتحنة: ١١] ـ والعَقْب ما يؤدي المسلمون إلى مَنْ هاجرت امرأته من الكفَّار ـ فأمر أن يعطى من ذهب له زوج من المسلمين ما أنفق من صداق[١] نساء الكفار اللاتي هاجرن، وما نعلم أن أحَداً من المهاجرات ارتدّت بعد إيمانها وبلغنا أن أبا بصير بن أسيد الثقفي قدم على النبي ﷺ مؤمناً مهاجراً في المدة فكتب الأخنس بن شَريق إلى النبي ﷺ يسأله أبا بصير ـ فذكر الحديث ـ[٢].

* * *

(١) المهر، ج أَصْدِقَة وصُدُق.

(٢) الجامع الصحيح للبخاري باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب.

عَلى وَفـاة الرسُول ﷺ

دخل أبو بكر الصديق[١] رضي الله عنه على النبي ﷺ وهو مسجّى[٢] بثوب فكشف عنه الثوب وقال:

بأبي أنت وأمي! طبت حيّا، وطبت ميتاً، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة، فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء، وخصصت حتى صرت مسلاة[٣]، وعممت حتى صرنا فيك سواء[٤]، ولولا أن موتك كان اختياراً[٥] منك لجدنا لموتك بالنفوس،

(١) هو أمير المؤمنين أبو بكر الصديق (رضي الله تعالى عنه) السابق إلى الإسلام وثاني اثنين إذ هما في الغار وخليل سيدنا رسول الله ﷺ وولي الإسلام بعد النبي ﷺ كما يدل عليه قوله «أينقص الدين وأنا حي» وكافل المسلمين اليتامى بعد وفاة الرسول ﷺ توفي سنة ١٣هـ وكلامه من خطب ورسائل ووصايا مرآة لسيرته وخلقه، صدق مع عزيمة ورفق في غير ضعف.

(٢) سجّى الميت أي مد عليه ثوباً.

(٣) ما يبعث على السلو، والمعنى أنك يا رسول الله قد صرت بموتك مسلاة للناس فإنك ما اختصصت به من مناقب النبوة وقد نزل بك الموت فللعباد فيك أسوة حسنة.

(٤) أي عمت المصيبة لفقدك جميع المسلمين فصرنا نحن وقرابتك سواء في الحزن عليك والتفجع لك.

(٥) يشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير» قالت عائشة (رضي الله عنها) فسمعته وقد شخص بصره وهو يقول: «في الرفيق الأعلى» فعلمت أنه خير فعلمت أنه لا يختارنا إذن وقلت هو الذي كان يحدثنا وهو صحيح.

ولولا أنك نهيتَ عن البكاء لأنفدنا[١] عليك ماء الشؤون[٢]. فأما ما لا نستطيع نفيه عنا فكمد[٣] وإدناف[٤] يتخالفان[٥] ولا يبرحان، اللهم فابلغه عنا السلام، اذكرنا يا محمد عند ربك، ولنكن من بالك، فلولا ما خلفت من السكينة لم نقم لما خلفت من الوحشة، اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا.

ثم خرج إلى الناس وهم في شديد غمراتهم[٦] وعظيم سكراتهم[٧]، فخطب خطبة قال فيها:

أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وأشهد أن الكتاب كما نزل، وأن الدين كما شرع، وأن الحديث كما حدَّث، وأن القول كما قال، وأن الله هو الحق المبين ـ في كلام طويل ثم قال:

أيها الناس! من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وأن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعاً، وأن الله قد اختار لنبيّه ما عنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه. وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر.

---

(١) أفنينا.
(٢) جمع شأن وهو مجرى الدمع من العين.
(٣) الحزن والغم الشديد.
(٤) دنف المريض كفرح وأدنف ثقل مرضه ودنا من الموت ودنفت الشمس وأدنفت أي دنت للغروب واصفرت.
(٥) أي يجيئان مرة بعد أخرى.
(٦) غمرة الشيء شدته ومزدحمه ج غَمَرات وغِمَار وغُمَر وغمرات الموت مكارهه وشدائده.
(٧) جمع سكرة وسكرة الموت أو الهم شدته وغشيته.

يا أيها الذين آمنوا! كونوا قوامين بالقسط[١] ولا يشغلنّكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم[٢] عن دينكم فعاجلوه بالذي تعجزونه ولا تستنظروه[٣] فيلحق بكم[٤].

* * *

(١) العدل.
(٢) لا يوقعكم في الفتنة.
(٣) لا تستمهلوه.
(٤) زهر الآداب.

شقـاوة المـلوك

خطب أبو بكر (رضي الله عنه) فقال:

إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوكُ. فرفع الناس رؤوسهم فقال: ما لكم يا معشر الناس! إنكم لطعّانون عَجِلون. إنّ من الملوك مَنْ إذا ملكَ زهَّدَه اللهُ فيما في يده، ورغَّبه فيما في يَدَي غيره، وانتقصه[1] شَطْرَ[2] أجله، وأشربَ قلبه الإشفاق[3] فهو يَحْسُدُ على القليل، ويَتَسخَّطُ[4] الكثير، ويسأمُ الرَّخاء[5]، وتنقطعُ عنه لذة البهاء، لا يستعمل العِبْرة، ولا يسكنُ إلى الثقة، فهو كالدرهم القَسيِّ[6] والسراب الخادع، جَذِلُ[7] الظّاهر، حزينُ الباطن، فإذا وجبت[8] نفسُه ونضَبَ[9] عُمرُه وضحا ظِلُّه[10] حاسبه الله فأشدَّ حسابَهُ وأقلَّ عفوه، ألا إنَّ الفقراءَ هم المرحومون. وخير الملوك من آمن بالله وحكم بكتاب الله

(١) نقصه.
(٢) الجزء.
(٣) الخوف.
(٤) تَسخَّطَ عطاءَهُ استقلّه ولم يقع منه موقعاً حسناً.
(٥) بالفتح سعة العيش وبالضم الريح اللينة التي لا تحرك شيئاً.
(٦) الزائف.
(٧) الفرِح ج جُذلان.
(٨) أي مات ووجبت الشمس أي غابت والعين غارت.
(٩) نفد وانقضى.
(١٠) مات.

وسُنَّةِ نبيّه ﷺ ، وإنكم اليوم على خلافة نبوّة ومَفْرِقٍ[١] مَحَجَّةٍ[٢] ، وسَتَرَوْنَ بعدي مُلْكاً عضوضاً[٣] ، وأمّه شَعاعاً[٤] ، ودماً مُفاحاً[٥] ، فإن كانت للباطل نزوةٌ[٦] ولأهل الحق جَوْلة[٧] يعفو[٨] لها الأثر ، وتموت السُّنَن ، فالزموا المساجد ، واستشيروا القرآنَ ، والزموا الجماعة ، وليكن الإبرامُ[٩] بعد التشاور ، والصفقة[١٠] بعد طول التناظر ، أيُّ بلاد خرشنة[١١] إن الله سيفتح عليكم أقصاها كما فتح أدناها[١٢] .

* * *

(١) الموضع الذي ينشعب فيه من الطريق طريق آخر.
(٢) جادّة الطريق أي وسطه ج محاج.
(٣) الكثير العضّ وملك عضوض فيه عسف وظلم.
(٤) المتفرق من كل شيء.
(٥) المهراق أفاحه أي أراقه.
(٦) الوثبة.
(٧) جال القوم جولة أي انكشفوا ثم كروا.
(٨) عفا يعفو عفواً وعفاء وعفوا الأثر أو المنزل امحى ودرس وبلي.
(٩) الإحكام.
(١٠) ضرب اليد على اليد في البيع وأيضاً عقد البيع.
(١١) بلدٌ قرب مَلطية من بلاد الروم والمراد بها بلاد الروم.
(١٢) جمهرة خطب العرب والبيان والتبيين وعيون الأخبار.

خطَّـة عُمَر فـي الحكم

قال طلحة بن معدان: خطبنا عمر[١] بن الخطاب (رضي الله عنه) فقال: أيُّها الناس! إنه لم يبلغ ذو حق في حقه أن يطاع في معصية الله، وإني لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال[٢] ثلاث، أن يؤخذ بالحق، ويعطى في الحق، ويمنع من الباطل؛ وإنما أنا ومالكم كولي اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، ولست أدع أحداً يظلم أحداً ويعتدي عليه. حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن[٣] للحق.

ولكم عليَّ أيها الناس! خصال أذكرها لكم فخذوني بها: لكم عليَّ أن لا أجتبي شيئاً من خراجكم ولا ممّا أفاء[٤] الله عليكم إلا من وجهه، ولكم عليَّ إذا وقع في يدي أن لا يخرج مني إلا في حقه، ولكم عليَّ أن أزيد أعطياتكم وأرزاقكم ـ إن شاء الله ـ وأسد ثغوركم[٥]. ولكم عليَّ أن

(١) أمير المؤمنين عمر (رضي الله عنه) معجزة من معجزات الرسول ﷺ، ومن بدائع العالم في رجاحه العقل، وحصافة الرأي، وحسن السياسة إلى العبقرية، والعصامية إلى الدين والتقوى والمثل الكامل للحكم العادل، والجمع بين الدين والدنيا كان من فتوحه العلم والفقه، ومن جنوده الخطابة والبلاغة. توفي مستشهداً سنة ٢٣ هـ.

(٢) جمع خلة بالفتح أي الخصلة.

(٣) ينقاد ويقر.

(٤) أفاء الله عليه مال القوم أي جعله فيئاً له.

(٥) جمع ثَغْر المكان الذي يخاف منه هجوم العدو.

لا ألقيكم في المهالك ولا أجمّركم[١] في ثغوركم.

وقد اقترب منكم زمان قليل الأمناء كثير القراء، قليل الفقهاء كثير الأمل، يعمل فيه أقوام للآخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب، ألا كل من أدرك ذلك منكم فليتق الله ربه وليصبر.

يا أيها الناس! إن الله عظم حقه فوق حق خلقه، فقال فيما عظم من حقه: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٠] ألا وإني لم أبعثكم أمراء ولا جبّارين، ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم فأدِرُّوا[٢] على المسلمين حقوقهم، ولا تضربوهم فتذلّوهم، ولا تحمدوهم فتفتنوهم، ولا تغلقوا الأبواب دونهم فيأكل قويّهم ضعيفهم، ولا تستأثروا[٣] عليهم فتظلموهم، ولا تجهلوا عليهم؛ وقاتلوا بهم الكفار طاقتهم فإذا رأيتم بها كلالة[٤] فكفوا عن ذلك فإن ذلك أبلغ في جهاد عدوكم. أيها الناس! إني أشهدكم على أمراء الأمصار أني لم أبعثهم إلا ليفقهوا الناس في دينهم ويقسموا عليهم فيئهم ويحكموا بينهم، فإن أشكل[٥] عليهم شيء رفعوه إليّ.

* * *

---

(١) جمّر القوم على أمر جمعهم.
(٢) أجرَوا.
(٣) استأثر بالشيء على الغير أي استبد به وخصّ به نفسه.
(٤) الضعف والإعياء.
(٥) التبس.

منشُورُ القضاء

«بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس. سلام عليك! أما بعد! فإن القضاء فريضةٌ محكمةٌ وسُنَّةٌ مُتَّبعةٌ، فافهم إذا أُدْلي[١] إليك فإنه لا ينفع تكلُّمٌ بحقٍ لا نفاذَ[٢] له. آسِ[٣] بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حَيْفك[٤] ولا يخافَ ضعيفٌ من جَوْركَ البيّنةُ على من ادَّعى واليمينُ على من أنكر، والصُّلْحُ جائزٌ بين المسلمين إلا صلحاً حرّم حلالاً أو أحلّ حراماً. ولا يمنعنَّك قضاءٌ قضيتَهُ اليوم فراجعت فيه نفسك، وهُديتَ فيه لرُشْدكَ، أن ترجعَ عنه فإن الحق قديمٌ ومراجعةُ الحقِّ خيرٌ من التَّمادي[٥] في الباطل، الفهمَ، الفهمَ عندما يتلجلج[٦] في صدرك مما ليس يبلغْكَ في كتاب الله ولا سنة النبي ﷺ! اعرفِ الأمثالَ والأشباهَ، وقِسِ الأمورَ عند ذلك ثم اعمد إلى أحبِّها إلى الله وأشبهها بالحقّ فيما ترى، واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بيّنةً، أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذتَ له

---

(١) أدلي إلى فلان أي تخوصم إليه.
(٢) الإجراء.
(٣) سوّ.
(٤) جورك وظلمك.
(٥) تمادى في غيه أي دام على فعله ولج.
(٦) يتردد.

بحقه ، وإلاّ وجهتَ عليه القضاء فإنه أنفى للشّكّ ، وأجلى[١] للعمى ، وأبلغ في العذر. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً[٢] في حدٍّ ، أو مجرّباً عليه شهادةُ زورٍ ، أو ظنيناً[٣] في ولاء أو قرابة ، فإنّ الله قد تولَّى منكم السرائر[٤] ودرأ[٥] عنكم بالشبهات. وإياك والقلقَ والضَّجَر[٦] ، والتأذِّيَ بالناس ، والتَّنكرَ[٧] للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويُحسِنُ بها الذُّخر ، فإنه مَنْ يُخْلِصْ نيّته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ، ولو على نفسه ، يَكْفِهِ الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزيَّنَ للناس بما يعلم اللهُ خلافه هتكَ[٨] الله ستره وأبدى فعله ، والسلام عليك»[٩].

* * *

---

(١) اكشف.

(٢) مضروباً.

(٣) متهماً.

(٤) جمع سريرة أي السر الذي يكتم.

(٥) دفع بابه فتح.

(٦) السآمة والملل بابه سمع.

(٧) تنكر لفلان أي صار غريباً عنده.

(٨) خرق بابه ضرب.

(٩) البيان والتبيين.

الأصحابُ الحَاضِرُونَ

تحدث ابن عائشة في إسناد ذكره أن عليّاً[١] (رضي الله عنه) انتهى إليه أن خيلاً[٢] لمعاوية وردت الأنبار[٣] فقتلوا عاملاً له يقال له حسَّان بن حسَّان، فخرج مُغْضَباً يجرُّ ثوبَهُ حتى أتى النُّخَيْلة[٤] واتَّبعَه الناس فَرقي[٥] رَبَاوةً[٦] من الأرض، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ، ثم قال:

أما بعد! فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله الذل، وسيما الخَسْف[٧] ودُيّث[٨] بالصغار[٩] وقد دعوتكم إلى حرب

---

(١) أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه ورضي الله عنه) حكيم الإسلام وخطيبه وفارسه، ووارث رسول الله ﷺ في الأدب والبلاغة والعلم بلا خلاف، وإمامته في ذلك لم تنازع قط.
أخطب المسلمين وإمام المنشئين وأحد أصحاب الأساليب والمذاهب في الإنشاء، وآثاره الأدبية من خطب وكتب وحكم ـ ما صح منها ـ جمال اللغة العربية وبدائع النثر العربي وموضوع دراسة الأديب والباحث. توفي شهيداً سنة ٤٠هـ.

(٢) جماعة الأفراس ج خيول وأخيال وتستعمل على المجاز للفرسان وركّاب الخيل يقال: «أتى بخيله ورَجِلِهِ» أي بفرسانه ومشاته.

(٣) مدينة على الفرات في غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ.

(٤) مصغراً موضع بالبادية.

(٥) رقي كفرح رَقْياً ورُقياً الجبل وفيه وإليه صعد.

(٦) بالتثليث الرابية وهي ما ارتفع من الأرض.

(٧) النقيصة والذل.

(٨) ديثه أي ذلله.

(٩) الذل والضيم.

هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، سراً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم من قبل أن يغزوكم، فو الذي نفسي بيده! ما غُزِيَ قومٌ قطُّ في عُقْر[١] دارهم إلا ذَلّوا فتخاذلتم[٢] وتواكلتم[٣] وثَقُلَ عليكم قولي، واتّخذتموه وراءكم ظِهْرِيًّا[٤] حتى شُنَّتِ[٥] عليكم الغارات. وهذا أخو غامدٍ[٦] قد وَرَدَتْ خَيْلُه الأنبار وقَتلوا حسّان بن حسّان، ورجالاً منهم كثيراً ونساء. والذي نفسي بيده! لقد بلغني أنه كان يُدْخَلُ على المرأة المسلمة والمعاهَدة فتُنْتَزع أحجالهما[٧] ورُعثُهما[٨] ثم انصرفوا مَوْفورين[٩] لم يُكْلَم[١٠] أحدٌ منهم كَلْماً، فلو أن امرأً مسلماً مات من دون هذا أسفاً ما كان عندي فيه ملوماً، بل كان به عندي جَديراً. يا عجباً كلَّ العجب! عجبٌ يميتُ القلبَ ويَشْغلُ الفهمَ، ويكثر الأحزان من تظافر[١١] هؤلاء القوم على باطلهم، وفشلكم[١٢] عن حقكم، حتى أصبحتم غرضاً[١٣] تُرمَوْن ولا تَرْمُون، ويُغار عليكم ولا تُغيرون ويُعْصى اللهُ فيكم وتَرْضَوْن، إذا قلت لكم:

---

(١) وسط الدار.

(٢) ترك بعضكم بعضاً.

(٣) اتكل بعضكم على بعض.

(٤) ما تجعله وراء ظهرك وتنساه ج ظهاري.

(٥) شنّ الغارة عليهم وجهها عليهم من كل جهة.

(٦) هو سفيان بن عوف من بني غامد قبيلة من اليمين من أزد شنوءة، بعثه معاوية لشن الغارات على أطراف العراق تهويلاً على أهله.

(٧) جمع حجل الخلخال.

(٨) الرعثة بالفتح وبفتحتين القرط ج رعاث جج رُعُث.

(٩) السالمين والمتكثرين.

(١٠) لم يجرح.

(١١) الاجتماع والتعاون.

(١٢) الضعف والجبن عند حرب أو شدة.

(١٣) الهدف ج أغراض.

اغزوهم في الشتاء قلتم: هذا أوان[١] قُرّ[٢] وصِرّ[٣] ، وإن قلت لكم: اغزوهم في الصيف قلتم: هذه حَمارَّةُ[٤] القيظ[٥] ، أنْظِرنا[٦] يَنْصَرِم[٧] الحرّ عنا. فإذا كنتم من الحرّ والبرد تفرون ، فأنتم والله من السيف أفَرُّ ، يـا أشبـاه الـرجـال ولا رجـال ويـا طغـام الأحـلام ، ويـا عقـول ربّـاتِ الحجال[٨]! والله! لقد أفسدتم عليّ رأيي بالعصيان ، ولقد ملأتم جوفي غيظاً حتى قالت قريش: ابن أبي طالب رجل شجاع ، ولكن لا رأي له في الحرب. لله درُّهم! ومن ذا يكون أعلم بها مني أو أشد لها مراساً[٩] ، فو الله! لقد نهضت[١٠] فيها وما بلغت العشرين ، ولقد نيّفتُ[١١] اليوم على الستين ، ولكن لا رأيَ لمن لا يُطاع ـ يقولها ثلاثاً ـ[١٢] .

* * *

(١) الوقت.
(٢) شدة البرد.
(٣) شدة البرد.
(٤) شدة الحر، ج حمارّ.
(٥) صميم الصيف ج أقياظ وقيوظ.
(٦) أمهلنا.
(٧) ينقطع.
(٨) جمع حجلة أي ستر يضرب للعروس في جوف البيت.
(٩) مارس الأمر مراساً وممارسة عالجه وزاوله وعاناه وشرع فيه.
(١٠) قمت.
(١١) نيّف أي زاد.
(١٢) الكامل للمبردّ، البيان والتبيين، نهج البلاغة؛ واللفظ للكامل ـ

الإخـوانُ الـذاهبـونَ

ومن خطب علي (كرم الله وجهه) ـ وقد قام إليه رجل من أصحابه ـ فقال: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فلم ندر أي الأمرين أرشد ، فصفّق[١] عليه السلام إحدى يديه على الأخرى ثم قال:

هذا جزاء من ترك العقدة[٢] ، أما والله لو أني حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيراً ، فإن استقمتم هديتكم ، وإن اعوججتم قوّمتكم. وإن أبيتم تداركتكم[٣]. لكانت الوثقى. ولكن بمن وإلى من؟ أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي كناقش[٤] الشوكة[٥] بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها[٦] معها. اللهُمَّ قد ملّت[٧] أطباء هذا الداء الدويّ[٨] وكَلَّت[٩] النزعة[١٠] بأشطان[١١] الرّكيّ[١٢] ، أين القوم الذين دُعوا إلى الإسلام فقبلوه ، وقرؤوا القرآن فأحكموه.

---

(١) التصفيق ضرب بباطن الراحة على باطن الأخرى.
(٢) البيعة المعقودة للولاة.
(٣) أصلحت شأنكم.
(٤) المستخرج.
(٥) ما يخرج من النبات شبيهاً بالإبر.
(٦) الميل والعوج.
(٧) ملّ كفرح مللا وملالاً وملّة وملالة الشيء ومن الشيء سئمه وضجر منه.
(٨) المريض.
(٩) كل كضرب كَلاّ وكلّة وكلالاً وكلولاً وكلالة وكُلولة تعب وأعيا.
(١٠) جمع النازع نزع الدلو وبالدلو جذبها واستقى بها.
(١١) جمع شطن وهو الحبل.
(١٢) جمع ركيّة وهي البئر ذات الماء ج ركايا وركيّ.

وهيجوا[١] إلى القتال فولهوا[٢] وله اللقاح[٣] إلى أولادها. وسلوا[٤] السيوف أغمادها. وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً وصفًّا صفًّا: بعض هلك، وبعض نجا. لا يُبَشَّرُونَ بالأحياء، ولا يعزون بالموتى، مُره[٥] العيون من البكاء خمص[٦] البطون من الصيام، ذُبّل[٧] الشفاه[٨] من الدعاء. صفر الألوان من السهر، على وجوههم غبرة[٩] الخاشعين.

أولئك إخواني الذاهبون! فحق لنا أن نظمأ[١٠] إليهم ونعضّ[١١] الأيدي على فراقهم[١٢].

* * *

(١) التهييج الإثارة والبعث.
(٢) وله كضرب وسمع ولَهًا حزن شديداً حتى كاد يذهب عقله، تحير من شدة الوجد.
(٣) جمع اللقوح الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.
(٤) سلّ كنصر سلاً الشيء من الشيء انتزعه وأخرجه برفق.
(٥) مرهت كفرح مرحاً عينه فسدت وابيضت بواطن أجفانه لترك الكحل فهو مره وأمره.
(٦) خمص كنصر وفرح وكرم خمصاً وخموصاً ومخمصة البطن فرغ وضمر.
(٧) جمع ذابل ذبل كنصر وكرم ذبولا وذبلا لسانه أو شفته جفّ.
(٨) جمع شفة ما يطبق على فمه ويستر أسنانه.
(٩) لون الغبار.
(١٠) ظمىء كفرح ظمأ وظمَأ وظماءً وظماءَة إليه اشتاق.
(١١) عضّه كفرح عضّاً وعضيضاً أمسكه بأسنانه.
(١٢) نهج البلاغة.

خطبـة زيـاد بـن أبـيـه(١)

أما بعد! فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغيّ الموفى بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم(٢)، من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى(٣)، عنها الكبير. كأنكم لم تقرؤوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمدي الذي لا يزول. أتكونون كمن طرفت(٤) عينيه الدنيا، وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية؟ ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه: مِنْ ترككم الضعيف يقهر، والضعيفة(٥) المسلوبة بالنهار لا تنصر، والعدد غير قليل، والجمع غير

---

(١) من نوابغ العرب ودواهيها ومن أخطب الخطباء وأشهر السياسيين والإداريين في العصر الإسلامي الأموي، خطب يوماً بين يدي عمر في حضرة المهاجرين والأنصار خطبة لم يسمعوا مثلها واستعان بعقله وكفايته عمر وعلي بعده ومعاوية بعدهما فكان فوق المنتظر وهو من أقوى العمد التي قام عليها عرش بني أمية كانت وفاته سنة ٥٣هـ.

(٢) أي عقلاؤكم.

(٣) لا يحترز ولا يجتنب.

(٤) طرف كضرب طرفاً عينه أي أصابها بشيء فدمعت.

(٥) كانت المرأة من أهل البلد يأخذها الفتيان الفساق ويقولون لها نادي ثلاثة أصوات فإن أجابك أحد وإلا فلا لوم علينا فيما نصنع فبلغ ذلك زياداً فغضب وأمهلهم شهراً ثم دعا عبد الله بن حصين اليربوعي صاحب شرطه وأمره أن يأتي برأس كل من لقيه خارج منزله بعد العشاء الأخيرة ولو كان ابنه فجاءه في أول ليلة بسبع مئة رأس وفي الثانية بخمسين رأساً وفي الثالثة برأس واحد وكف الفساق عن =

مفترق. ألم يكن منكم نهاة[١] يمنعون الغواة[٢] عن دلج[٣] الليل وغارة النهار؟ قرّبتم القرابة، وباعدتم الدين. تعتذرون بغير العذر، وتغضون على النكر، كل امرىء منكم يردُّ عن سفيهه، صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً. ما أنتم بالحلماء، ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام، ثم أطرقوا[٤] وراءكم كنوساً[٥] في مكانس[٦] الريب. حرام عليّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً. إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله: لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف[٧]. وإني لأقسم بالله لآخذَنَّ الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمطيع بالعاصي، والصحيح بالسقيم، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول: انجُ سعدٌ فقد هلك سُعَيد[٨]! أو تستقيم[٩] قناتكم. إن كذبة الأمير بلْقاء[١٠] مشهورة، فإذا

= المعاصي.

(١) جمع ناه بمعنى المانع.

(٢) جمع غاو أي الضال والمنقاد للهوى.

(٣) السير في الليل.

(٤) يقال أطرق الصيد أي نصب له حباله.

(٥) جمع كانس وهو الظبي يدخل في كناسه وهو بيته وجمعه أيضاً كُنّس وكوانس والمراد بها النساء.

(٦) المخابي ومحال المنكر.

(٧) مثلثة مع سكون النون ضد الرفق الشدة والقساوة.

(٨) بالضم مصغراً، هذا مثل سائر؛ وأصله أنه كان لضبّة بن أُدّ ابنان سعد وسُعيد فخرجا يطلبان إبلاً لهما فرجع سعد ولم يرجع سعيد فكان ضبة إذا رأى سواداً تحت الليل قال: سعد أم سعيد؟ هذا أصل المثل فأخذ ذلك اللفظ منه وصار مما يتشاءم به وهو يضرب مثلاً في العناية بذي الرحم ويضرب في الاستخبار بين الأمرين الخير والشر أيهما وقع.

(٩) كناية عن الصلاح يقال استقامت قناته أي صلح.

(١٠) من كان في لونها سواد وبياض يعني إن كذب الأمير افتضح بكذبه واشتهر عنه فإن البلق يمتاز عن سائر الجسد فإذا ثبت لكم أني كذبت فلا طاعة لي عليكم. =

تعلقتم عليّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتي. فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها[١] فيّ. واعلموا أن عندي أمثالها من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله ، فأياي ودلج الليل ، فإني لا أوتي بمدلج[٢] إلا سفكت دمه ، وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم. وإيّاي ودعوى الجاهلية ، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه. وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن أغرق قوماً أغرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش[٣] قبراً دفناه فيه حيًّا ، فكُفّوا عني أيديكم وألسنتكم أكف عنكم يدي ولساني ، ولا تظهر من أحدكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه ، وقد كان بيني وبين قوم إحَنٌ[٤] ، فجعلت ذلك دبر أذني[٥] وتحت قدمي. إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السلّ[٦] من بغضي لم أكشف له قناعاً. ولم أهتك له ستراً ، حتى يبدي لي صفحته ، فإذا فعل ذلك لم أناظره. فاستأنفوا أموركم. وأعينوا عليّ أنفسكم ، فرُبَّ مبتئس[٧] بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس.

أيها الناس! إنا قد أصبحنا لكم ساسة[٨] ، وعنكم ذادة[٩] ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خوّلنا[١٠]. فلنا

(١) اغتمزه أي طعن عليه.
(٢) أي الماشي في الليل.
(٣) أبرز بابه نصر.
(٤) جمع إحنة أي الحقد.
(٥) أي خلف أذني كناية عن الترك أي فلم أصغ إليه ولم أعرج عليه.
(٦) بالكسر والضم الهزال وداء معروف.
(٧) المحزون.
(٨) جمع سائس وهو المدبر لأمور القوم.
(٩) جمع ذائد وهو المدافع.
(١٠) أي أعطانا.

عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا. وايم الله! إن لي فيكم لصرعى[١] كثيرة فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاي[٢].

* * *

(١) جمع صريع وهو المصروع.
(٢) البيان والتبيين.

خطبة طارق بن زياد عند فتح الأندلس[١]

أيها الناس! أين المفرّ؟ البحر من ورائكم[٢]، والعدوّ أمامكم، وليس لكم والله إلاّ الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام. وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، وأسلحتُه وأقواتُه موفورة، وأنتم لا وزر[٣] لكم إلاّ سيوفكم. ولا أقوات إلاّ ما تستخلصونه من أيدي عدوكم. وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا[٤] لكم أمراً ذهب ريحكم[٥] وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم[٦] فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة[٧] هذا الطاغية[٨] فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة[٩]. وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت. وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة[١٠] ولا حملتكم دوني على خطة أرخص متاع فيها النفوس، أبدأ

(١) كان من البربر وكان مولى لموسى بن نُصير عامل الوليد بن عبد الملك على إفريقية وإليه ينسب جبل طارق في جنوب الأندلس ولخطبته هذه فضل كبير في الفتح الأندلسي وفيما أسس العرب هنالك من دولة وحضارة. توفي سنة ٩٢هـ.

(٢) لأنه أحرق السفن التي وصلوا بها إلى بلاد أسبانيا.

(٣) بفتحتين الملجأ.

(٤) أنجز الحاجة قضاها.

(٥) أي ضاعت قوتكم وغلبتكم.

(٦) أي تجاسرت عليكم بدل خوفها منكم.

(٧) المقاتلة.

(٨) الجبار ولقب ملك الروم وربما أطلقه العرب على غيرهم.

(٩) المنيعة بابه كرم.

(١٠) يقال: «إنه من الأمر بنجوة» إذا كان بعيداً منه بريئاً سلماً.



بنفسي. واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرفه[١] الألذ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي فما حظّكم فيه[٢] بأوفر من حظّي. وقد بلغكم ما أنشأت[٣] هذه الجزيرة من الخيرات العميمة[٤] وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً[٥] ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً[٦] وأختاناً[٧] ثقة منه بارتياحكم للطعان وسماحكم بمجالدة[٨] الأبطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى وليّ أنجادكم[٩] على ما يكون لكم ذكراً في الدارين. واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى. فاحملوا معي فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره ولم يعوزكم[١٠] بطل عاقل تُسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه. واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله[١١].

* * *

(١) الأرغد الألين.
(٢) أي في الأمر الأشق.
(٣) ما أخرجت.
(٤) الكثيرة.
(٥) العُربون والعَرَبون والعُربان هو بعض الثمن يعطيه الرجل لمعاملة ويقول له إن تم العقد احتسبنا وإلا فهو لك ولا آخذه منك.
(٦) جمع صهر بالكسر وهو القريب المحرم للزوج أو الزوجة.
(٧) جمع ختن وهو القريب المحرم للزوجة.
(٨) المقاتلة.
(٩) النصر والإعانة.
(١٠) أعوزه المطلوب أعجزه وصعب عليه نيله.
(١١) نفح الطيب، للمقري.

خطبـة الحجّـاج بـن يـوسف الثقـفـي (١)

يا أهل العراق! إن الشيطان قد استبطنكم(٢) فخالط اللحم والدم، والعصب(٣) والمسامع والأطراف والشّغاف(٤)، ثم مضى إلى الأمخاخ والأصماخ(٥)، ثم ارتفع فعشش(٦)، ثم باض وفرّخ(٧)، فحشاكم(٨) نفاقاً وشقاقاً، قد اتخذتموه دليلاً تتبعونه، وقائداً تطيعونه، ومؤامراً(٩) تستشيرونه. فكيف تنفعكم تجربة، أو تعظكم

(١) جلاد بني أمية ودعامة ملكهم كان لسناً سليطاً قوي الحجة لا يكاد يعدله في ذلك أحد من أهل زمانه، قال مالك بن دينار: «ما رأيت أحداً أبين من الحجاج إنه كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم إليه حتى لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين» مع أنه قتل منهم بالصبر مئة وعشرين ألفاً وتوفي في سجونه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة. توفي عام ٩٥هـ في شهر رمضان وقيل في شوال.

(٢) استبطن الشيء دخل بطنه واستبطنه اتخذه له بطنة أي خاصة.

(٣) بفتح الصاد أطناب منتشرة في الجسم كله وبها تكون الحركة والحس ج أعصاب.

(٤) بالفتح غلاف القلب وحبته ج شغف وأشغفه.

(٥) جمع مُخ وكذا الأصماخ جمع صِماخ لكنه لا يساعده اللغة لأن المخ وهو نقى العظم جمعه مِخَاخ ومِخَخَة، والصماخ، وهو خرق الأذن الباطن الماضي إلى الراس جمعه صُمُخ وأصمِخَة.

(٦) أي اتخذ عشا وهو موضع الطائر ج عِشاش وعِشَشة وأعشاش وعشوش.

(٧) فرخت الطائرة أي صارت ذات فرخ وهو ولد الطائر.

(٨) ملأ بابه نصر.

(٩) المشاور.

وقعة، أو يحجزكم[١] إسلام، أو يردكم إيمان؟ ألستم أصحابي بالأهواز[٢]، حيث رمتم المكر، وسعيتم بالغدر، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته؟ وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون[٣] لواذاً[٤]، وتنهزمون سراعاً.

ويوم الزاوية[٥]! وما يوم الزاوية؟ بها كان فشلكم[٦] وتنازعكم وبراءة الله منكم، ونكوص[٧] وليه عنكم، إذ وليتم كالإبل الشوارد[٨] إلى أوطانها، النوازع[٩] إلى أعطانها[١٠]، لا يسأل المرء منكم عن أخيه، ولا يلوي[١١] الشيخ على بنيه حتى عضّكم السلاح وقصمتكم[١٢] الرماح.

ويوم دير الجماجم[١٣]! وما يوم دير الجماجم؟ بها كانت المعارك[١٤] والملاحم[١٥] بضرب يزيل الهام[١٦] عن مقيله[١٧]، ويذهل الخليل عن خليله.

---

(١) يمنع بابه نصر وضرب.
(٢) تسع كور بين البصرة وفارس لكل كورة منها اسم ولكن لا تفرد باسم هوز.
(٣) تسلّل وانسلّ من الزحام انطلق في استخفاء.
(٤) أي تهربون مستخفين ومستترين بعضكم ببعض.
(٥) مكان كانت به وقائع بين الحجاج وابن الأشعث.
(٦) الجبن عند حرب أو شدة بابه سمع.
(٧) نكص كنصر وضرب نكصاً ونكوصاً ومنكصاً عن الأمر أحجم وكف عنه.
(٨) جمع شاردة وهي النافرة بابه نصر.
(٩) جمع نازعة نَزع كفتح نزاعاً ونزوعاً إلى أهله أي اشتاق.
(١٠) جمع عطن مبرك الإبل حول الماء.
(١١) لا ينعطف ولا يعرج.
(١٢) كسرت بابه ضرب.
(١٣) مكان كانت به وقائع بين جيوش الحجاج وبين عبد الرحمن بن الأشعث.
(١٤) مواضع القتال.
(١٥) جمع ملحمة وهي الموقعة العظيمة القتل في الحرب.
(١٦) جمع هامة أي رأس كل شيء.
(١٧) المقر والمكان.

يـا أهـل العـراق! أهـل الكَفَـرات والغَـدَرات والثورة بعدوالثورات، إن أبعثكم إلى ثغوركم[١] غللتم[٢] وخنتم، وإن أمنتم أرجفتم[٣]، وإن خفتم نافقتم، لا تذكرون حسنةً، ولا تشكرون نعمةً، هل استخفَّكم[٤] ناكثٌ، واستغواكم غاوٍ، أو استنصركم ظالم، أواستعضدكم[٥] خالعٌ إلا وثقتموه وآويتموه ونصرتموه ورضيتموه؟

هل شغب[٦] شاغب، أو نَعَب[٧] ناعبٌ، إلا كنتم أشياعه وأنصاره؟ألم تنهكم المواعظ؟ ألم تزجركم الوقائع؟ ثم التفت إلى أهل الشام فقال:

يا أهل الشام! إنما أنا لكم كالظليم[٨] الذاب عن فراخه[٩] ينفي عنها المدر، ويباعد عنها الحجر، ويُكنُّها من المطر ويحميها من الضباب[١٠]، ويحرسها من الذئاب.

يا أهل الشام! أنتم الجُنَّة[١١] والرِّداء، وأنتم العُدَّة والغطاء[١٢]

* * *

(١) جمع ثغر وهو المكان الذي يخاف منه هجوم العدو.
(٢) سرقتم.
(٣) أي خضتم في الأخبار السيئة والفتن قصد أن تهيجوا الناس.
(٤) استخفه استجهله وأزاله عن الحق والصواب.
(٥) استنصر.
(٦) شغب كفتح وفرح شَغْباً وشَغَباً القوم وبهم وعليهم هيج الشر عليهم.
(٧) نعب كفتح وضرب نعبا ونُعابا ونعيباً ونَعَباناً وتنعاباً الغراب صوّت.
(٨) الذكر من النعام ج ظِلمان وظُلمان وأظلمة.
(٩) عن أولاده.
(١٠) جمع ضب وهو حيوان من الزحافات ذنبه كثير العقد.
(١١) الترس ج جنن.
(١٢) البيان والتبيين.

عهد عمر بن عبد العزيز إلى قائد جيشه[١]

هذا ما عَهِدَ به عبدُ الله عمرُ أميرُ المؤمنين إلى منصور بن غالب حين بعثه على قتال أهل الحرب وحرب من استعرض من أهل الصلح، أمره في ذلك بتقوى الله على كل حال نزل به من أمر الله. فإن تقوى الله أفضل العدة[٢]، وأبلغ المكيدة، وأقوى القوة. وأمره أن لا يكون من شيء من عدوه أشدَّ احتراساً[٣] منه لنفسه ومَنْ معه من معاصي الله، فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم. وإنما نعادي عدونا ونُنْصر عليهم بمعصيتهم. ولولا ذلك لم يكن لنا قوةٌ بهم، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عُدَّتنا كعدتهم. فلو استوينا نحن وهم في المعصية كانوا أفضلَ منا في القوة والعدد فإن لا ننصر عليهم بحقنا لا نغلبهم بقوتنا. ولا تكونوا لعداوة أحد من الناس أحذر منكم لذنوبكم. ولا تكونوا بالقدرة لكم أشدّ تعاهداً منكم لذنوبكم. واعلموا أن معكم من الله حفظةً عليكم يعلمون ما تفعلون في مسيركم ومنزلكم، فاستحيوا منهم، وأحسنوا صحابتهم، ولا تؤذوهم بمعاصي الله وأنتم زعمتم في سبيل الله.

---

(١) الرجل الصالح والخليفة الراشد وثاني عمر (رضي الله عنه) في الاسم والرسم وأسوة للملوك والأمراء إلى يوم القيامة، ولي الخلافة سنة ٩٩ هـ بعد سليمان بن عبد الملك فأدى الأمانة وبلغ الغاية في الورع والزهادة والتحري للحق والعدل والتعفف عن أموال المسلمين وخشونة العيش وجشوبة المطعم والملبس لحق بجده عمر (رضي الله عنه) سنة ١٠١هـ.

(٢) ما أعددته لحوادث الدهر من مال وسلاح ج عُدَد.

(٣) تحفظاً وتوقياً.

ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلطوا علينا وإن أذنبنا، فرب قوم قد سُلط عليهم شر منهم بذنوبهم فاسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم، وأسأل الله ذلك لنا ولكم.

وأمره أن يرفق بمن معه في سفرهم، ولا يجشّمهم[١] مسيراً يتعبهم فيه، ولا يقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يلقوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنما يسيرون إلى عدوّ مقيم جامٍّ الأهبة والكُراع[٢] فإن لا يرفقوا بأنفسهم وكُراعهم في مسيرهم، يكن لعدوهم فضلٌ في القوة عليهم بإقامتهم في جمام[٣] الأنفس والكُراع والله المستعان.

وأمره أن يقيم ومن معه في كل جمعة يوماً وليلة يكون لهم راحة يجمُّون فيها أنفسهم وكراعهم ويرمّون أسلحتهم وأمتعتهم.

وأمره أن ينحّي منزله عن قرى الصلح، فلا يدخلها أحد من صحابه لسوقهم وجماعتهم إلا من يثق بدينه وأمانته على نفسه، ولا يصيبوا منها ظلماً، ولا يتزوَّدوا منها إثماً، ولا يؤذوا أحداً من أهلها بشيء إلا بحق، فإنّ لهم حرمةً وذمةً ابتليتُم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم ففُوا لهم. ولا تستنصروا على أهل أرض الحرب بظلم أهل أرض الصلح فلعمري لقد أُعطيتم مما يحلّ منهم ما يُغنيكم عنهم، فلم أترك لكم خَلَلاً في العدة، ولا رقة في القوة فتظاهرت واكتفّت لكم العُدَد، وانتخبت لكم الجند، وأغنيتك بأرض الشرك عن أرض الصلح، وبسطت لك أفضل ما بسطت لغازٍ. فلم أجعل لك علة في التقوية وبالله الثقة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) لا يكلفهم.
(٢) اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير.
(٣) أي الاستراحة.

وأمره أن تكون عيونه [1] من العرب وممن يطمئن إلى نصيحته وصدقه من أهل الأرض فإن الكذوب لا ينفع خبره ، وإن صَدَقَ في بعضه وإن الغاشّ [2] عين عليك وليس بعين لك والسلام عليك [3]

* * *

(١) جمع عين وهو الجاسوس.

(٢) من يظهر خلاف ما أضمره وزيّن غير المصلحة.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لأبي محمد عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤هـ.

وَصفُ الصَّيْـد

لعبد الحميد الكاتب(١)

أطال الله بقاء أمير المؤمنين مؤيَّداً بالعز، مخصوصاً بالكرامة، مُمَتَّعاً بالنعمة، إنه لم يُلَقَّ أحدٌ من المقتنِصين، ولا مُنِحَ متطرِّف(٢) من المتصيّدين إلا دون ما لَقَّانا الله به من اليمن والبركة، ومنَحَنَا من الظفَر والسعادة في مسيرنا من كثرة الصيد، وحسن المقتَنَص(٣)، وتمكين الجاسة(٤)، وقُرب الغاية، وسهولة المورد وعموم القدورة(٥)، إلا ما كان

(١) هو أبو غالب بن يحيى بن سعد المنسوب إلى بني عامر نسبة ولائية، فهو من سلالة غير عربية، إمام الكتاب ومجدّد صناعة الإنشاء والترسل، ثقف الكتابة على سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتب سرّه، ثم استكتبه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، فنفق عنده وحظي ما لم يحظ به غيره. وتمكن من إدخال تحسينات كثيرة على الصناعة، منها تنويع الخطاب، ومراعاة مقتضى الحال، والتفنن في البدء والختام، وإطالة التحميدات؛ نفقت له سوق الكتابة لمكانته من الخليفة وزعامته لطبقة الكتاب. قتل سنة ١٣٢هـ. والقطعة التي اقتبسناها تدل على اقتداره على اللغة والتعبير، وحسن التصوير، وعلى سعة اللغة العربية وغزارة مادتها وإسعافها للكتاب في أغراض متنوعة وأزمنة مختلفة.

(٢) مُتَطَرِّف: تطرَّف عليهم: أغار.

(٣) المقتنص: موضع الصيد.

(٤) الجاسة: لعلّها محرّفة عن الحبالة.

(٥) القدورة: القدرة.

من محاولة الطلب، وشدة النَّصَب[١]، لنافر[٢] الصيد، وقائد الطريدة[٣] التي أمْعَنَّا في الطلب لها، وأعجزَنا البُهرُ[٤] عن اللَّحاق بها، لتفاوت سبقها، ومنقطع هربها، ومتفرِّق سُبُلها، ثم آل بنا ذلك إلى حسن الظفر، وتناول الأرب، ونهاية الطرب.

وإني أخبر أمير المؤمنين أنّا خرجْنا إلى الصيد بأعدى[٥] الجوارح[٦]، وأثقفِ[٧] الضواري[٨]؛ وأكرمها أجناساً، وأعظمها أجساماً، وأحسنها ألواناً، وأحدها أطرافاً، وأطولها أعضاءً، قد ثُقِّفتْ بحسن الأدب، وعُوِّدت شدّةَ الطلب، وسبرت[٩] أعلام[١٠] المواقف، وخبرَتْ المجاثم[١١]، مجبولةً على ما عُوِّدت، ومقصورةً على ما أدِّبتْ؛ ومَعَنَا من نفائس الخيل المخبورة[١٢] الفراهة[١٣]، من الشِّهْرِيَّة[١٤] الموصوفة بالنجابة، والجري والصلابة، فلم نزل بأخفض سير، وأثقفِ طلب. وقد

(١) النصب: (بفتح النون والصاد) العناء والتعب.
(٢) النافر: مُهَيِّج الصيد وسائقه، ج نَفْر ونُفَّر.
(٣) الطريدة: ما طردت من صيد ونحوه ج الطرائد.
(٤) البُهْرُ: انقطاع النَّفَس من الإعياء.
(٥) أعدى: أكثر جرياً وعدواً.
(٦) الجوارح: جمع جارحة، وهي ذات الصيد من السباع والطير والكلاب.
(٧) أثقف: أحذق، أمهر بابه سمع وكرم.
(٨) الضواري: جمع الضاري وهو الكلب المتعوّد للصيد والمولع به.
(٩) سَبَرَتْ (الأمرَ) جرّبه واختبره بابه نصر وضرب.
(١٠) أعلام: جمع علم بفتحتين، شيء يُنصب فيهتدى به.
(١١) المجاثم: جمع مجثم بفتح الميم، وهو موضع الجثوم، أي موضع تلبّد الطائر والحيوان ونحوهما بالأرض، بابه نصر وضرب.
(١٢) المخبورة: المعلومة عن تجربة واختبار ومشاهدة.
(١٣) الفراهة: النشاط في السير.
(١٤) الشِّهرِيَّة: البراذين، وهو جمع برذون (بكسر فسكون ففتح فسكون) التركي من الخيل، وخلافها العراب.

أمطرَتْنا السماء مطراً متداركاً[١]، فَرَبَتْ منه الأرض، وزهَرَ البقل، وسكن القتامُ[٢]، من مُثار السنابك[٣]، ومتشعِّباتِ الأعاصير، مهلةَ أن سرْنا غَلَوات[٤]، ثم برزت الشمس طالعةً، وانكشفت من السحاب مسفرةً، فتلألأت الأشجار، وضحك النُوّار[٥]، وانجلت الأبصار، فلم نر منظراً أحسن حُسناً، ولا مرموقاً أشبه شكلاً، من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض، والخيلُ تمرح بنا نشاطاً، وتجتَذِبنا أعِنّتُها انبساطاً؛ ثم لم نلبث أن علَتنا ضبابةٌ تَقصُر طرفَ الناظر، وتخفي سُبُلَ السلام، تغشانا تارةً وتنكشف أخرى، ونحن بأرض دَمِثَة[٦] التراب، أشِبَة[٧] الأطرافِ، مُغدِقَةِ[٨] الفِجَاج، مملوءةٍ صيداً، من الظبَاء والثعالب والأرانب، فأدّانا المسيرُ إلى غابةٍ دونها مألَف الصيد، ومجتَمَع الوحش، ونهاية الطلب، قد جَاوَزْناها ونحن على سبيل الطلب ممعنون، وبكلِّ حرَّة[٩] جَوْنة[١٠] متفرِّقون، فرجع بنا العودُ على البدء، وقد انجلت الضبابة، وامتدّ البصر، وأمكـن النظـر، فـإذا نحـن بِـرَعلَـةٍ[١١] مـن ظِبَـاء، وخِلْفـةٍ[١٢] آرامٍ[١٣]

---

(١) متداركاً: متتابعاً متلاحقاً.

(٢) القتام: (بالفتح) الغبار الأسود.

(٣) السنابك: جمع سُنْبُك (بضم فسكون فضم) وهو طرف الحافر.

(٤) غلوات: جمع غَلْوة؛ رمية سهم أبعد ما تقدر عليه.

(٥) النُوَّار: (بضم النون مع فتح الواو المشدّدة) الواحدة «نُوَّارة» ج نواوير، الزهر.

(٦) دَمِثة: لينة ذات الرمل.

(٧) الأشِبة: الملتفة الشجر.

(٨) مغدقة: متسعة.

(٩) حرّة: أرض ذات حجارة نخرة سود.

(١٠) جَوْنة: (بفتح فسكون) السوداء.

(١١) رَعْلة: (بفتح فسكون) جماعة متفرقة. ج رِعَال، وأرْعَال، وأراعيل.

(١٢) خِلْفَة: ما يبقى أو يتبع، يقال «في البئر خِلْفَة من الماء» أي بقية.

(١٣) آرام: جمع رِئْم (بكسر فسكون) الظبي الأبيض.

يرتَعْن[١] آنسات، قد أحَالَتْهنّ الضبابةُ عن شخصنا، وأذهَلَهُنَّ أنيق الرياض عن استماع حسّنا، فلم نَعُجْ[٢] إلا والضواري لائحة لهنّ من بعد الغاية، ومنتهى نظرَ الشاخص ثم مدّت الجوارح أجنحتها، واجتذبت الضواري مَقَاوِدَها[٣]، فأمرت بإرسالها على الثقة بمحضرها[٤]، وسرعة الجوارح في طلبها، فمرّت تخُفُّ حفيفَ[٥] الريح عند هُبوبها، تُسِفّ[٦] الأرضَ سفًّا، كاشفةً عن آثارها، طالبةً لخيارها، حارشة[٧] بأظفارها، قد مزّقتها تمزيقَ الريح الجراد؛ فمن صائح بها وناعر[٨]، وهاتف بها وناعق[٩]، يدعو الكلبَ باسمه، ويفدِّيه بأبيه وأمّه؛ وراكضٍ تحت مِقَرِّه، وخافقٍ[١٠] يطلبه الرمح، وطامح[١١] يمنعه، وسانح[١٢] قد عارضه بارح، قد حيّرَتْنا الكثرة، وألهجَتْنا[١٣] القدرة، حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد، والله المنعم الوهّاب.

---

(١) يرتعن: من (فتح) رتعاً ورتوعاً ورتاعاً (في المكان) أقام وتنعم وأكل فيه وشرب ما شاء في خصب وسعة ورغد.
(٢) نَعُجْ: عاج يعوج عوجاً ومعاجاً (السائر) وقف (إلى أو على المكان) مال وعطف.
(٣) مقاود: جمع مِقْوَد(بكسر الميم) ما تقاد به الدابة من حبل ونحوه.
(٤) محضر: ج محاضر، الحضور.
(٥) حفيف: صوت الريح.
(٦) تسفّ: أسفّ (الطائر والسحاب ونحوه) مرّ على وجه الأرض، أو دنا من الأرض.
(٧) حارشة: حرش من (ض) حرشاً وتحراشاً: خدش.
(٨) ناعر: صائح، مصوّت.
(٩) ناعق: من (س) نعقاً (الغراب) صاح.
(١٠) خافق: غائب.
(١١) طامح: ناشز، جامح.
(١٢) سانح: ج سوانح الذي يأتي من جانب اليمين، ويقابله «البارح» وهو الذي يأتي من جانب اليسار، والعرب تتيمّن بالسانح، وتتشاءم بالبارح.
(١٣) ألهج: (فلاناً بالشيء) جعله يلهج ويولع به.

ثم مِلنا يا أمير المؤمنين بهداية دليل قد أحكمتْه التجارب، وخبر أعلامَ المذانب، إلى غدير أفيح[١]، وروضة خَضِرة، مستأجمة[٢] بتلاوين[٣] الشجر، ملتفّة بصنوف الخَمَر[٤]، مملوءة من أنواع الطير، لم يذْعَرهنّ صائد، ولا اقتنصهنّ قانص، فَخُفِقَ لها بطبول، وصُفر بنفير الحتف، فثار منها ما مَلأ الأُفُقَ كثرتُها، وراعت الجوارحَ خَفَقَاتُ أجنحتها؛ ثم انبرَت[٥] البُزاة[٦] لها صائدة، والصقور كاسرة[٧]، والشواهين ضارية، يرفعن الطلب لها، ويخفِضْنَ الظفَر بها، حتى سئمنا من الذبح، وامتلأنا من النضيح[٨]، كأنّا كتيبةٌ[٩] ظَفِرَت ببغيتها، وسرِيّة[١٠] نُصِرت على عدوّها، وألحقتْ ضعيفَها بقويِّها وغَلبتْ محسنَها بمسيئها؛ لا نملك أنفسنا مَرَحاً، ولا نستفيق من الجذل[١١] بها فَرحاً، بقيّةَ يومنا، والله المنعم الوهّاب.

* * *

---

(١) أفيح: الواسع.

(٢) مستأجمة: ملتوية ملتفة.

(٣) تلاوين الشجر: صنوف الشجر، جمع تلوين.

(٤) الخَمَر: (بفتحتين) الشجر.

(٥) انبرت (لها): تصدّت وتعرّضت.

(٦) البُزاة: الواحد: الباز والبازي، طير من الجوارح يُصَاد به، وهو أنواع كثيرة.

(٧) كاسرة: من (ض) كسراً وكسوراً (الطائر) ضمّ جناحيه يريد الوقوع.

(٨) النضيح: العرق.

(٩) الكتيبة: ج كتائب، القطعة من الجيش، أو الجماعة من الخيل.

(١٠) سريّة: ج سرايا: قطعة من الجيش.

(١١) الجَذَل: الفرح.

البعثةُ المحمَّديَّــة

من رسالة أبي الربيع محمد بن الليث[١] التي كتبها للرشيد إلى قسطنطين ملك الروم:

إن الله عزّ وجلّ اصطفى الإسلام لنفسه، واختار له رسلاً من خلقه، وابتعث كل رسول بلسان قومه، ليبيّن لهم ما يتّبعون، ويعلّمهم ما يجهلون من توحيد الرب وشرائع[٢] الحق ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥] فلم تزل رسل الله قائمة بأمره، متوالية على حقه، في مواضي الدهور وخوالي القرون[٣]، وطبقات الزمان، يصدّق آخرهم بنبوّة أوّلهم، ويصدّق أوّلهم قول آخرهم؛ ومفاتح دعوتهم واحدة لا تختلف، ومجامع مِلّتهم ملتئمة[٤] لا تفترق، حتى تناهت الولاية والوراثة التي بنى عيسى عليه الصلاة والسلام عليها وبشّر بها إلى النبيّ الأمّيّ الذي انتخبه الله لوحيه، واختاره بعلمه.

فلم يزل ينقله بالآباء الأخاير[٥]، والأمهات الطواهر، أمّة فأمة، وقرناً

---

(١) لم نعثر على ترجمته، ويظهر أنه كاتب قدير، ومتكلم كبير.
(٢) جمع شريعة وهي ما شرع الله لعباده من السنن والأحكام.
(٣) أي الدهور الماضية من إضافة الصفة إلى الموصوف وكذا خوالي القرون أي القرون الخالية.
(٤) مجتمعة.
(٥) جمع أخير اسم التفضيل.

فقرناً حتى استخرجه الله في خير أوان، وأفضل زمان، من أثبت محاتد[١] أرومات[٢] البريّة[٣] أصلاً، وأعلى ذوائب[٤] نبعات[٥] العرب فرعاً، وأطيب منابت أعياص[٦] قريش مغرساً، وأرفع ذُرى[٧] مجد بني هاشم سمكاً[٨]: محمد ﷺ خيرها عند الله وخلقه نفساً، على حين أوحشت الأرضُ من أهل الإسلام والإيمان، وامتلأت الآفاق من عبدة الأصنام والأوثان، واشتعلت البدع في الدين، وأطبقت الظُلم على الناس أجمعين، وصار الحق رسماً عافياً[٩] خلقاً[١٠] بالياً، ميتاً وسط أموات، ما إن يُحسُّون للهدى صوتاً ولا للدّين أثراً يتّبعونه. فلم يزل رسول الله ﷺ قائماً بأمر الله الذي أُنزل إليه، يدعوهم إلى توحيد الرب عزّ وجلّ، ويحذِّرهم عقوبات الشرك، ويجادلهم بنور البرهان، وآيات القرآن، وعلامات الإسلام، صابراً على الأذى محتملاً للمكروه.

قد ألهمه الله عز وجلّ أنه مظهر دينه، ومُعِز تمكينه، وعاصمه ومستخلفه في الأرض، فليس يثنيه[١١] ريب، ولا يلويه[١٢] هيب[١٣]،

---

(١) جمع محتد وهو الأصل.
(٢) جمع أرومة وهي الأصل.
(٣) الخلق ج برايا.
(٤) جمع ذؤابة وهي من كل شيء أعلاه.
(٥) جمع نبعة يقال هو من نبعة كريمة أي من أصل كريم.
(٦) أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر وهم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص والعويص.
(٧) جمع ذروة بالضم وهي من كل شيء أعلاه.
(٨) بالفتح والسكون الرفع.
(٩) عفا يعفو عفوا وعفاءً الأثر والمنزل امّحى ودرس وبلي.
(١٠) البالي للمذكّر والمؤنث يقال ثوب خلق وجبّة خلقّ ج أخلاق وخلقان.
(١١) ثنى يثني ثنياً أي صرف.
(١٢) لوى (واوية العين يائية اللام) يلوي ليّا ولَوْياً ولُوِياً أي ثناه وصرفه.
(١٣) الخوف.

ولا يعنيه أذى، حتى إذا قهرت البيّنات ألبابهم، وبهرت[١] الآيات أبصارهم، وخصم[٢] نور الحق حجتهم، فلم تمتنع القلوب من المعرفة بدون صدقه، ولم تجد العقول سبيلاً إلى دفع حقه، وهم على ذلك مكذبون بأفواههم، جاحدون بأقوالهم، كما قال الله عز وجل العليم بما يُسرّون، الخابر بما يعلنون: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] بغياً وعداوة، وحسداً ولجاجة[٣] افترض الله عليه قتالهم، وأمره أن يجرّد السيف لهم، وهم في عصابة يسيرة، وعدة قليلة، مستضعفين مستذلين، يخافون أن يتخطفهم العرب، وتداعى[٤] عليهم الأمم، وتستحملهم[٥] الحروب، فآواهم في كنفه، وأيدهم بنصره، وأنذرهم بمقدمة من الرعب، ومشغلة من الحق، وجنود من الملائكة، حتى هزم كثيراً من المشركين بقلتهم، وغلب قوة الجنود بضعفهم، إنجازاً لوعده، وتصديقاً لقوله: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧٣]

فأحسن النظر وقلّب الفكر في حالات النبي ﷺ من الوحي قائماً لله، لتجد لمذاهب فكرك وتصاريف نظرك، مضطرباً واسعاً، ومعتمداً نافعاً، وشعوباً جمة، كلها خير يدعوك إلى نفسه، وبيان ينكشف لك عن محضه.

وأخبِر أمير المؤمنين ما كنت قائلاً لو لم تكن البعثة للنبي ﷺ بلغتك، ولم تكن الأنباء بأموره تقررت قبلك، ثم قامت الحجة بالاجتماع عندك، وقالت الجماعة المختلفة لك: إنه نجم[٦] بين ظهراني مثل هذه الضلالات

(١) غلبت بابه فتح.
(٢) خصمه كضرب خصماً غلبه في الخصومة.
(٣) لج كسمع وضرب لججاً ولجاجاً ولجاجة عند الخصومة.
(٤) أصله تتداعى فحذفت إحدى تائيه ومعناه يجتمعون عليهم ويتألبون بالعداوة.
(٥) تلقي عليهم حملها وعبأها.
(٦) نجم الشيء نجوماً ظهر وطلع بابه نصر.

المستأصلة[١] والجماعات المتسأسدة[٢]، التي ذكر أمير المؤمنين من قبائل العرب، وجماهير الأمم، وصناديد[٣] الملوك، ناجم قد نصب[٤] لها وغَرِي[٥] بها، يجهّل أحلامها، ويكفّر أسلافها، ويفرّق أُلافها، ويلعن آباءها، ويضلّل أديانها، وينادي بشهاب الحق بينها، ويجهر بكلمة الإخلاص إلى من تراخى[٦] عنها، حتى حميت[٧] العرب، وأنفت العجم، وغضبت الملوك، وهو على حال ندائه بالحق ودعائه إليه، وحيداً فريداً، لا يحفل بهم غضباً، ولا يرهب عنتا، يقول الله عز وجل: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ [المائدة: ٥] أكنت تقول فيما تجري الأقاويل به ويقع الآراء عليه، إلا أنه أحد رجلين: إما كاذب يجهل ما يفعل ويعمى عما يقول، وقد دعا الحتف إلى نفسه، وأذن لقومه في قتله، فليست الأيام بمادّة ولا الحال بثابتة له إلا ريثما تستلحمه[٨] أسبابهم، وينهض به حلماؤهم، غضباً لربهم، وأنفة لدينهم، وحميّة لأصنامهم، وحسداً من عند أنفسهم، وإما صادق بصير بموضع قدمه، ومرمى نبله، قد تكفل الله عزّ وجلّ بحفظه، وصحبه بعزه، وجعله في حرزه[٩]، وعصمه من الخلق، فليست الوحشة بواصلة مع صحبة الله إليه، ولا الهيبة بداخلة مع عصمة الله عليه، ولا سيوف الأعداء بمأذون لها فيه.

---

(١) الثابتة.

(٢) القوية.

(٣) جمع صنديد بالكسر السيد الشجاع.

(٤) يقال نصب لفلان أي عاداه بابه ضرب ونصر.

(٥) غري وأُغري بكذا أولع به من حيث لا يحمله عليه حامل.

(٦) تباعد عنها.

(٧) غضبت بابه سمع.

(٨) أي تعلق به وتنشب.

(٩) حفظه.

ثم أن آيتكم[١] يا أهل الكتاب! لو قيل لكم: إن الرجل الذي يدّعي العصمة وينتحل[٢] المنعة، قد نجمت الأمور به على ما قال، وسلمت الحال له فيما ادّعى حتى نصب لعمارات[٣] العرب، وجماعات الأمم، يقاتل بمن طاوعه من خالفه، وبمن تابعه من عانده، جادّاً مشمّراً، محتسباً واثقاً بموعود الله ونصره، لا تأخذه لومة لائم في ربه، ولا يؤخذ لديه غميزة[٤] في دينه، ولا يلفته خذلان خاذل عن حقه، حتى أعز الله دينه، وأظهر تمكينه، وانقادت الأهواء له، واجتمعت الفرق عليه. ألم يكن ذلك يزيد حقه يقيناً عندكم، ودعوته ثبوتاً فيكم، حتى تقول الجماعة من حلمائكم وأهل الحنكة[٥] من ذوي آرائكم: ما كان الرجل ـ إذا كان وحيداً فريداً قليلاً ضعيفاً ذليلاً معروفاً بالعقل منسوباً إلى الفضل ـ ليجترىء أن يقول: إن الله عزّ وجلّ أوحى إليه فيما أنزل من الكتاب عليه أن يعصمه من العرب جميعاً ويمنعه من الأمم طرّا[٦]، حتى يبلّغ رسالات ربّه، ويظهره على الدين كلّه، ويدخل الناس أفواجاً في دينه، إلا وهو على ثقة من أمره، ويقين من حاله[٧].

* * *

---

(١) كذا في الأصل، وهذا تحريف لا يستقيم عليه المعنى والصحيح (ما رأيكم).
(٢) يدعي.
(٣) جمع عمارة وهي القبيلة.
(٤) ضعف في العقل والعمل.
(٥) بالضم التجربة.
(٦) أي جميعاً.
(٧) عصر المأمون وجمهرة رسائل العرب.

بخيلٌ حَكيم

للجاحظ[١]

قال معبد: نزلنا دار الكندي أكثر من سنة، نُروِّج[٢] له الكراء، ونقضي له الحوائج، ونفي له بالشرط. قلت: قد فهمت ترويج الكراء، وقضاء الحوائج، فما معنى الوفاء بالشرط؟ قال: في شرطه على السُّكّان أن يكون له روث الدابّة، وبعر الشاة، ونشوار[٣] العلوفة[٤]، وألا يخرجوا عظماً، ولا يخرجوا كساحة[٥]، وأن يكون له نوى[٦] التمر، وقشور الرمّان، والغرفة من كل قدر تطبخ للحبلى في بيته! وكان في ذلك يتنزل[٧] عليهم. فكانوا لطيبه[٨]، وإفراط بخله، وحسن حديثه يحتملون ذلك.

قال معبد: فبينا أنا كذلك، إذ قدم ابن عم لي ومعه ابن له، إذا رقعة

---

(١) مرت ترجمته في الجزء الأول.

(٢) أي نجعل كراء منازله رائجاً نافقاً بما نبثه بين الناس من مدحها وتزيينها عندهم.

(٣) بالكسر ما تبقيه الدابة من العلف فارسي معرب.

(٤) ما يعلف من الغنم وغيرها.

(٥) مثل الكناسة وهو ما يكسح.

(٦) جمع نواة وهي عجمة التمر ونحوه ويجمع أيضاً على نَوَيات وجج أنواء ونُويّ ونَويّ.

(٧) أصل التنزل النزول في مهلة والمعنى أنه كان يتدرج في فرض هذه الفروض عليهم.

(٨) أي لطيب نفسه ودعتها.

منه[١] قد جاءتني: «[٢] إن كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين احتملنا ذلك، وإن كان إطماع السُّكان في الليلة الواحدة يجرّ علينا الطمع في الليالي الكثيرة». فكتبت إليه: «ليس مقامهما عندنا إلاّ شهراً أو نحوه» فكتب إليّ: «إنَّ دارك بثلاثين درهماً. وأنتم ستّة، لكل رأس خمسة. فإذ قد زدت رجلين، فلا بد من زيادة خمستين. فالدار عليك من يومك هذا بأربعين!»

فكتبت إليه «وما يضرّك من مقامهما، وثقل أبدانهما على الأرض التي تحمل الجبال، وثقل مؤنتهما[٣] عليّ دونك؟ فاكتب إليّ بعذرك لأعرفه» ولم أدر أني أهجم على ما هَجَمْت، وإني أقع منه فيما وقعت.

فكتب إليّ: «الخصال[٤] التي تدعو إلى ذلك[٥] كثيرة، وهي قائمة معروفة: من ذلك سرعة امتلاء البالوعة[٦]، وما في تنقيتها من شدّة المؤنة. ومن ذلك أن الأقدام إذا كثرت كثر المشي على ظهور السطوح المطيّنة[٧] وعلى أرض البيوت المجصّصة[٨]، والصعود على الدرج[٩] الكثيرة، فينقشر[١٠] لذلك الطين، وينقلع[١١] الجصّ، وينكسر

---

(١) أي من الكندي.
(٢) هذا نص الرقعة.
(٣) المؤنة والمؤونة أي القوت.
(٤) أي الأسباب المقتضية.
(٥) إلى طلب ما طلبته منك.
(٦) ثقب أو قناة في وسط الدار مثلاً يجري فيها الماء الوسخ والأقذار ج بواليع وكذا البلاّعة والبلّوعة جمعهما بلاليع.
(٧) طَيَّن الحائط طلاه بالطين.
(٨) جصّص البناء طلاه بالجص والجص بالفتح والجص بالكسر ما تطلى به البيوت من الكلس.
(٩) جمع درجة وهي المرقاة.
(١٠) مطاوع قشر وقشّر وكذا تقشّر وقشره كشط جلده أو قِشره.
(١١) مطاوع قلع وكذا تقلع واقتلع وقلع الشيء انتزعه من أصله.

العتب[١]، مع إنثناء[٢] الأجذاع[٣]، لكثرة الوطء، وتكسرها لفرط الثقل.

وإذا كثر الدخول والخروج، والفتح والإغلاق، والإقفال وجذب الأقفال تهشمت[٤] الأبواب، وتقلّعت الرزات[٥].

وإذا كثر الصبيان، وتضاعف البوش[٦] نزعت مسامير[٧] الأبواب، وقُلِعت كل ضَبَّة[٨]، ونزعت كل رزة، وكسرت كل جوزة[٩]، وحفر فيها آبار الددن[١٠]، وهشموا[١١] بلاطها[١٢] بالمداحي[١٣]. هذا مع تخريب الحيطان بالأوتاد، وخشب الرفوف[١٤] وإذا كثر العيال والزوّار، والضِيفان والندماء[١٥] احتيج من صبّ الماء، واتخاذ

---

(١) جمع عتبة وهي التي يوطأ عليها وفي المختار قال ابن شميل: العتبة في الباب هي العليا والأسكفة (بضم فسكون فضم ففاء مشددة مفتوحة) هي السفلى.

(٢) الانعطاف.

(٣) جمع جذع وهو سهم السقف ويجمع ايضاً على جذوع.

(٤) تكسرت.

(٥) جمع رزّة بالفتح الحديدة التي يدخل فيها القفل ويجمع أيضاً على رِزاز ورُزَز.

(٦) بفتح فسكون والبوش بضم الباء الجماعة والعيال وقيل الجماعة من الناس المختلطين.

(٧) جمع مسمار وهو وتد من حديد.

(٨) نوع من المغاليق وفي اللسان حديدة عريضة يضبب بها الباب.

(٩) يريد شجرة الجوز إذ كان هذا الشجر مما يغرس في البيوت لذلك العهد.

(١٠) اللهو واللعب والمراد بآبار الددن الحفر التي يحفرها الصبيان ليرموا فيها الأُكر أو نحو ذلك وسماها آباراً على المجاز.

(١١) كسروا وبابه ضرب.

(١٢) بالفتح الأرض المستوية الملساء وأيضاً صفائح الحجارة التي يفرش بها.

(١٣) جمع مدحاة (بكسر فسكون) في اللسان والمدحاة خشبة يدحى بها فتمر على وجه الأرض لا تأتي على شيء إلا اجتحفته أي جرفته.

(١٤) جمع رف بالفتح خشبة أو نحوها تشد إلى الحائط فتوضع عليها طرائف البيت.

(١٥) جمع نديم وهو المنادم على الشرب والرفيق والصاحب ويجمع أيضاً على نِدام ونُدمان.

الحببة[١] القاطرة، والجرار[٢] الراشحة[٣]، إلى أضعاف ما كانوا عليه. فكم من حائط قد تأكّل[٤] أسفله، وتناثر أعلاه، واسترخى أساسه، وتداعى[٥] بنيانه، من قطر حبّ، ورشح جر، ومن فضل ماء البئر، ومن سوء التدبير. وعلى قدر كثرتهم يحتاجون من الخبيز والطبيخ[٦]، ومن الوقود والتسخين، والنار لا تبقي ولا تذر[٧]. وإنما الدور حطب لها. وكل شيء فيها من متاع فهو أكل لها. فكم من حريق قد أتى على أصل الغلّة[٨]، فكلفتم أهلها أغلظ النفقة. وربما كان ذلك عند غاية العسرة، وشدة الحال. وربّما تعدت[٩] تلك الجناية إلى دور الجيران. وإلى مجاورة الأبدان والأموال. فلو ترك الناس حينئذ رب الدار ـ وقدر بليّته ومقدار مصيبته ـ لكان عسى ذلك أن يكون محتملاً. ولكنهم يتشاءمون به. ولا يزالون يستثقلون ذكره، ويكثرون من لائمته[١٠] وتعنيفه.

نعم! ثم يتخذون المطابخ في العلالي[١١] على ظهور السطوح، وإن

---

(١) جمع حُبّ بالضم وهو الجرة الكبيرة أو الخابية ويجمع أيضاً على حِباب بالكسر وأحباب.

(٢) جمع جرة وهي إناء من خزف له بطن كبير وعروتان وفم واسع ويجمع أيضاً على جرّ بدون التاء.

(٣) رشح كفتح رشحاً ورشحاناً تحلب منه الماء ونحوه.

(٤) يقال: تأكل السن أو العود أي صار منخوراً.

(٥) أي تصدّع من جوانبه وآذن بالانهدام والسقوط.

(٦) المخبوز والطبيخ أي الطعام المطبوخ.

(٧) أي لا تترك، ولا يستعمل بهذا المعنى سوى المضارع والأمر.

(٨) الدخل من كراء دار وفائدة أرض ونحو ذلك ج غلاّت وغلال.

(٩) تجاوزت.

(١٠) الملامة.

(١١) جمع عُليّة (بكسر العين أو ضمها مع تشديد اللام مكسورة وتشديد الياء مفتوحة) وهي الحجرة العالية.

كان في أرض الدار فضل وفي صحنها متسع، مع ما في ذلك من الخطار[١] بالأنفس، والتغرير[٢] بالأموال، وتعرض الحُرم[٣] ليلة الحريق لأهل الفساد، وهجومهم[٤] مع ذلك على سر مكتوم، وخبيء[٥] مستور، من ضيف مستخف، ورب دار متوارٍ، ومن شراب مكروه، ومن كتاب متهم، ومن مال جم[٦] أريد دفنه، فاعجل الحريق أهله عن ذلك فيه، ومن حالات كثيرة، وأمور لا يحب الناس أن يُعرفوا بها. ثم لا ينصبون التنانير[٧]، ولا يمكنون للقدور، إلا على متن السطح، حيث ليس بينهما وبين القصب[٨] والخشب إلا الطين الرقيق، والشيء لا يقي. هذا مع خفة المؤنة في إحكامها، وأمن القلوب من المتالف[٩] بسببها.

فإن كنتم تقدمون على ذلك مِنّا ومنكم وأنتم ذاكرون فهذا عجب، وإن كنتم لم تحفلوا بما عليكم في أموالنا ونسيتم ما عليكم في أموالكم فهذا أعجب.

ثم إن كثيراً منكم يدافع[١٠] بالكراء، ويماطل[١١] بالأداء، حتى إذا

---

(١) مصدر خاطر بكذا أي فعل ما يكون الخوف فيه أغلب.

(٢) أي المخاطرة بها وأصله من غرر بنفسه حملها على غير ثقة، كذا في اللسان وفيه أيضاً وغرر بنفسه وماله تغريراً وتغرّة عرضها للهلكة من غير أن يعرف.

(٣) جمع حرمة وهي ما لا يحل انتهاكه.

(٤) معطوف على أهل أي وتعرض الحرم لهجومهم.

(٥) المخبوء.

(٦) الكثير من كل شيء.

(٧) جمع تنور وهو ما يخبز فيه.

(٨) كل نبات يكون ساقه أنابيب وكعوباً.

(٩) جمع متلفة أي مهلكة.

(١٠) يماطل فيه ففي اللسان دافع فلان فلاناً في حاجة إذا ماطله فيها فقوله بالكراء بمعنى في ومفعول يدافع محذوف أي المالك والكراء مصدر في الأصل من كاريته على المفاعلة.

(١١) يسوّف بوعد الوفاء مرة بعد أخرى.

جمعت أشهر عليه، فرّ وخلّى أربابها جياعاً، يتندّمون على ما كان من حسن تقاضيهم وإحسانهم. فكان جزاؤهم وشكرهم اقتطاع حقوقهم، والذهاب بأقواتهم. ويسكنها الساكن حين يسكنها وقد كسحناها[١] ونظفناها، لتحسن في عين المستأجر، وليرغب فيها الناظر، فإذا خرج ترك فيها مزبلة[٢] وخراباً، لا تصلحه إلا النفقة الموجعة. ثم لا يدع مَترساً[٣] إلا سرقه، ولا سلّماً إلا حمله، ولا نقضاً[٤] إلا أخذه، ولا برّادة[٥] إلا مضى بها معه.

ولا يدع دق الثوب، والدق في الهاون[٦] والمنحاز[٧]، في أرض الدار ويدق على الأجذاع والحواضن[٨] والرواشن[٩]، وإن كانت الدار

---

(١) كنسنا ونظّفنا بابه فتح.

(٢) موضع الزبل وهو السرقين والسرقين ما تستمد به الأرض والمراد ترك فيها أوساخاً وأقذاراً.

(٣) خشبة توضع خلف الباب لتدعمه والكلمة فارسية معربة معناها في العربية لا تخف.

(٤) بالضم ما انتقض من البنيان ج أنقاض ونقوض.

(٥) إناء يبرد الماء.

(٦) ما يدق فيه الدواء ونحوه ج هواوين.

(٧) الهاون.

(٨) جمع حاضنة، قال أحمد العوامري بك وعلي الجارم بك في تعليقهما على كتاب البخلاء: «ويراد بها كما يظهر السهوم التي تحمل الجذوع ولم نجد للكلمة أثراً في كتب اللغة بمعنى يلائم المقام ثم رأينا في مقدمة طبعة ليدن ما يفيد أن المراد بالحواضن هنا الأعمدة التي تدعم السقف».

(٩) جمع روشن ـ في الإفصاح الروشن والجناح ـ خشب يخرج من حائط الدار إلى الطريق ولا يصل إلى جدار آخر يقابله، فإن وضعت به أعمدة من الطريق فهو الجناح وإلا فهو الروشن، وقال في اللسان: والروشن الرف والروشن الكوّة وهي النافذة.

مقرمدة[١]، أو بالآجر[٢] مفروشة، وقد كان صاحبها جعل في ناحية منها صخرة[٣]، ليكون الدق عليها، ولتكون واقية دونها، دعاهم التهاون والقسوة، والغشّ والفسولة[٤]، إلى أن يدُقّوا حيث جلسوا، وإلى ألاَّ يحفلوا بما أفسدوا لم يعط قط لذلك أرشاً[٥]، ولا استحلّ صاحب الدار، ولا استغفر الله منه في السرّ. ثم يستكثر من نفسه في السنة إخراج عشرة دراهم، ولا يستكثر من ربّ الدار ألف دينار في الشراء، يذكر ما يصير إلينا مع قلّته، ولا يذكر ما يصير إليه مع كثرته.

هذا والأيام التي تنقض المُبْرم، وتبلى الجدّة، وتفرق الجميع المجتمع، عاملة في الدور كما تعمل في الصخور، وتأخذ من المنازل كما تأخذ من كل رطب ويابس، وكما تجعل الرطب يابساً هشيماً[٦]. والهشيم مضمحِلاً. ولانهدام المنازل غاية قريبة، ومدة قصيرة، والساكن فيها هو كان المتمتع بها، والمنتفع بمرافقها[٧] وهو الذي أبلى جدّتها وتحلاّها وبه هرمت[٨] وذهب عمرها لسوء تدبيره.

فإذا قسمنا الغرم عند انهدامها بإعادتها، وبعد ابتنائها، وغرم[٩] ما بين ذلك من مرمتها وإصلاحها، ثم قابلنا بذلك ما أخذنا من غلاتها،

---

(١) قرمد الشيء: طلاه بالقرمد وهو كل ما يطلى به للزينة كالزعفران والجص أو الخزف المطبوخ.
(٢) جمع آجرة، وهي ما يبنى به من الطين المشوي.
(٣) الحجر العظيم الصلب ج صخر وَصَخر وصخور وصخورة وصخرات.
(٤) النذالة وهي عدم المروءة.
(٥) بالفتح الدية ج أروش.
(٦) اليابس المتكسر.
(٧) المنافع.
(٨) بليت.
(٩) بالضم الغرامة وهي ما يلزم أداؤه من المال.

وارتفقنا[١] به من إكرائها، خرج على المسكن من الخُسْران، بقدر ما حصل للساكن من الربح. إلا أن الدراهم التي أخرجناها من النفقة كانت جملة، والتي أخذناها على جهة الغلّة جاءت مقطّعة[٢].

وهذا مع سوء القضاء، والإحواج إلى طول الاقتضاء، ومع بغض الساكن للمُسْكن وحب المُسْكن للساكن، لأنّ المسكن يحب صحّة بدن الساكن، ونفاق سوقه، إن كان تاجراً، وتحرك صناعته، إن كان صانعاً، ومحبة الساكن أن يشغل الله عنه المُسْكِنَ كيف شاء ـ إن شاء شغله بعينه[٣]، وإن شاء بزمانه[٤]، وإن شاء بحبس وإن شاء بموت.

ومدار مناه أن يُشغَل عنه. ثم لا يبالي كيف كان ذلك الشغل إلاّ أنه كلما كان أشد كان أحبّ إليه، وكان أجدر أن يأمن، وأخلق لأن يسكن. وعلى أنه إن فترت سوقه، أو كسدت صناعته، ألحّ في طلب التخفيف من أصل الغلّة، والحطيطة[٥] مما حصل عليه من الأجرة. وعلى أنه إن أتاه الله بالأرباح في تجارته، والنفاق في صناعته، لم ير أن يزيد قيراطاً في ضريبته، ولا أن يعجل فلساً قبل وقته»[٦].

* * *

(١) انتفعنا به.

(٢) مجزّأة.

(٣) أي بذاته.

(٤) أي بأحوال زمانه ويمكن أن تكون الكلمة بزمانة وهي العاهة.

(٥) فعيلة بمعنى اسم لما يحط من الثمن (اللسان: حطط).

(٦) كتاب البخلاء للجاحظ.

أطيَبُ طعَـام وَأشعَـرُ بَـيْـت

لأبي الفرج الأصبهاني[١]

صنع عبد الملك بن مروان طعاماً فأكثر وأطاب ، ودعا إليه الناس فأكلوا. فقال بعضهم: ما أطيب هذا الطعام! ما نرى أن أحداً رأى أكثر منه ، ولا أكل أطيب منه. فقال أعرابي من ناحية القوم: أما أكثر فلا ، وأما أطيب فقد ـ والله ـ أكلت أطيب منه. وطفقوا يضحكون من قوله. فأشار إليه عبد الملك فأدني منه. فقال: ما أنت بمحق فيما تقول إلا أن تخبرني بما يَبِينُ به صدقُكَ.

فقال نعم يا أمير المؤمنين! بينما أنا بهجر في ترب[٢] أحمرفي أقصى حجر إذ توفي أبي وترك كلاًّ وعيالاً ، وكان له نخل، فكانت فيه نخلة لم ينظر الناظرون إلى مثلها: كأنّ ثمرَها أخفافُ الرِّباع[٣] لم يُرَ ثمرٌ قطُّ أغلظَ ولا أصلبَ ، ولا أصغرَ نوىً ، ولا أحلى حلاوةً منها ، وكانت تطرقها أتان وحشيّة قد ألفتها تأوي الليل تحتها. فكانت تثبت رجليها في أصلها وترفع يديها ، وتعطو[٤] بفيها فلا تترك فيها إلا النبذ[٥] والمتفرق

(١) مرت ترجمته في الجزء الأول.

(٢) في الأغاني (بَرْثٌ) وهو الأرض اللينة السهلة.

(٣) بكسر الراء جمع رُبع، بضم الراء وفتح الباء، وهو الفصيل ينتج في الربيع وهو أول النتاج شبه الثمر في نعومته ولينه بأخفاف (جمع خف) فصلان الإبل التي تولد في فصل الربيع وهي من أنعم أولاد الناقة جسماً وألينها لحماً.

(٤) تتناول.

(٥) أي القليل اليسير.

فأعظمني[١] ذلك ووقع مني كل موقع ، فانطلقت بقوسي وأسهمي وأنا أظن أني أرجع من ساعتي. فمكثت يوماً وليلاً لا أراها حتى كان السحر أقبلت فتهيَّأت لها فرشقتها[٢] فأصبتها وأجهزت[٣] عليها ، ثم عمدت إلى سرتها[٤] ، فأفريتها[٥] ، ثم عمدت إلى حطب جزل[٦] فجمعته إلى رضف[٧] ، وعمدت[٨] إلى زندي[٩] فقدحت[١٠] وأضرمت[١١] النار في ذلك الحطب ، وألقيت سرتها فيها ، وأدركني نوم السبات[١٢] فلم يوقظني إلا حر الشمس في ظهري فانطلقت إليها فكشفتها وألقيت ما عليه من قذى[١٣] أو سواد أو رماد ، ثم قلبت مثل الملاءة[١٤] البيضاء فألقيت عليها من رطب تلك النخلة المجزّعة[١٥] والمنصّفة[١٦] فسمعت لها أطيطاً[١٧] كتداعي عامر وغطفان. ثم أقبلت أتناول الشحمة واللحمة

(١) أي فأفزعني ذلك وعظم عليّ.
(٢) رميتها بابه نصر.
(٣) أجهز على الجريح شد عليه وأتم قتله.
(٤) التجويف الصغير المعهود في وسط البطن ج سرّات وسُرر.
(٥) في الأغاني: (فافتددتها) وأفريتها: قطعت وشققت وأصلحت.
(٦) الغليظ العظيم.
(٧) الحجارة المحماة واحدتها رضفة.
(٨) قصدت بابه ضرب.
(٩) العود الأعلى الذي يقتدح به النار، والزندة العود الأسفل الذي فيه الفرضة فإذا اجتمعا قيل الزندان ج زِناد وأَزْنَد وأزناد.
(١٠) قدح بالزند أي حاول إخراج النار منه بابه فتح.
(١١) أضرم وضرم واستضرم النار أوقدها وأشعلها وألهبها.
(١٢) النوم العميق أو أوله.
(١٣) بالكسر التراب المدقق ج قُذِيّ وأقذاء.
(١٤) ثوب يلبس على الفخذين والريطة ذات لفقين ج مُلاء.
(١٥) صفة للرطب والمجزَّع والمجزِّع من الرطب ما بلغ النضج إلى نصفه.
(١٦) نصّف النخل احمرّ بعض بسره وبعضه اخضر.
(١٧) أي صوتاً.

فأضعها بين التمرتين وأهوي إلى فمي. أحلف أني ما أكلت طعاماً مثله قط.

فقال له عبد الملك: لقد أكلت طعاماً طيباً. فمن أنت؟ قال: أنا رجل جانبتني عنعنة[١] تميم وأسد، وكسكسة[٢] ربيعة، وحوشيّ[٣] أهل اليمن وإن كنت منهم. فقال: من أيهم أنت؟ قال: من أخوالك من عذرة. قال: أولئك فصحاء الناس. فهل لك علم بالشعر؟ قال: سلني عما بدا لك يا أمير المؤمنين! قال: أي بيت قالته العرب أمدح؟ قال: قول جرير:

ألستم خيرَ مَنْ ركبَ المطايا[٤] وأندى[٥] العالمين بطونَ راحِ

قال: وجرير في القوم، فرفع رأسه وتطاول لها، ثم قال: أيُّ بيتٍ قالته العرب أفخر؟ قال: قول جرير:

إذا غضبتْ عليكَ بنو تميمٍ حسبتَ الناسَ كلَّهُمُ غِضابا

قال: فتحرك، ثم قال له: فأيّ بيتٍ أهجى؟ قال: قول جرير:

فَغُضَّ الطَّرفَ إنكَ من نُمَيْرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

قال: فاستشرف[٦] لها جرير واهتز وطرب.

ثم قال له: فأيُّ بيتٍ قالته العربُ أحسن تشبيهاً؟ قال: قول جرير:

---

(١) عنعن أي لفظ في كلامه الهمزة كالعين.
(٢) الكسكسة: إلحاق كاف المؤنث سينا عند الوقف نحو بكس في بك وأكرمتكس في أكرمتك.
(٣) الحوشي الغريب.
(٤) جمع مطية وهي الدابة التي تركب ويستوي فيها المذكر والمؤنث فالبعير مطية والناقة مطية ويجمع أيضاً على مَطى.
(٥) أسم تفضيل يقال فلان أندى من فلان أي أكثر جوداً وخيراً.
(٦) انتصب.

سرى نحوهم ليلٌ كأنَّ نجومَه قنـاديلُ فيهـنَّ الـذبـالُ[١] المُفَتَّـلُ

فقال جرير: جائزتي للعذري يا أمير المؤمنين! فقال عبد الملك: وله مثلها مِن بيت المال ولك جائزتك يا جرير! لا تنقص منها شيئاً. وكانت جائزة جرير أربعة آلاف درهم وتوابعها من الحملان[٢] والكسوة. فخرج العذري وفي يده اليمنى ثمانية آلاف درهم وفي اليسرى رزمة[٣] ثياب[٤].

* * *

(١) جمع ذبالة وهي الفتيلة شبه الجيش بليل والرماح كأنها بقناديل ذات الفتائل المفتلة أجودها وأقواها.

(٢) ما يحمل عليه من الدواب في الهبة خاصة.

(٣) بكسر الراء ما جمع من الثياب وغيرها وشد معاً، ج رزَم.

(٤) كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني.

كِتـابٌ ينـوبُ عَن كتـائِب[١]

رسالة لابن العميد[٢] إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة[٣]

كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تُدِلّ[٤] بسابق حرمة ، وتَمُتّ[٥] بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضي محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث

---

(١) جمع كتيبة القطعة من الجيش أو الجماعة من الخيل.

(٢) هو الأستاذ الرئيس محمد بن الحسن المعروف بابن العميد وزير ركن الدولة ابن بويه. كان فارسي الأصل من أهل مدنية قم، نشأ على الأدب وثقف الكتابة ومارسها وتوسع في العلوم حتى لقب بالجاحظ الثاني، كان ربيعاً للأدب والشعر موسماً للأدباء والشعراء مجمعاً علمياً عامراً، سُلّمت رئاسته في الأدب والكتابة وشغف الناس بأدبه حتى قالوا: «بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد» إلا أن كتابته كتابة صناعة وتكلف وتأنق وزخرف لا روح فيها ولا حياة، وهي أشبه بالوشي والطراز منها بالأدب والكتابة ولكن تفوقه في هذه الصناعة وتصرفه في ضروب الرسائل مما لا يدفع. وذلك بتوسعه في فنون الكلام وطول ممارسته وبحكم منصبه وشغله، ولعل يمينه لم تخط أحسن من هذه الرسالة التي وجهها إلى ابن بلكا. قال الثعالبي في يتيمة الدهر: «قد أجمع أهل البصيرة في الترسل، على أن رسالته التي كتبها إلى ابن بلكا. . . عند استعصائه على ركن الدولة غرّة كلامه وواسطة عقده» توفي سنة ٣٦٠هـ.

(٣) أبو علي الحسن بن بويه بن فنّاخسرو الديلمي الملقب ركن الدولة كان ملكاً جليل المقدار عالي الهمة؛ وكان مولده تقديراً في سنة ٢٨٤هـ، وتوفي سنة ٣٦٦هـ.

(٤) أدلّ عليه إدلالاً وثق بمحبته فأفرط عليه واجترأ.

(٥) مت إلى فلان بقرابة وصل إليه وتوسل بابه نصر.

غـلول وخيانـة. وتتبعهمـا بآنـف خـلاف ومعصيـة ، وأدنى ذلك يُـحْبِطُ أعمالَكَ ، ويَمْحَقُ[١] كل ما يرعىٰ لك.

لا جرم أني وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أقدّم رجلاً لصدمك ، وأُؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يداً لاصطلامك[٢] واجتياحك ، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ضَنًّا بالنعمة عندك منافسة في الصنيعة لديك ، وتأميلاً لفيئتك[٣] وانصرافك ، ورجاء لمراجعتك وانعطافك ، فقد يعزب[٤] العقل ثم يؤوب ، ويغرب اللب ثم يثوب[٥] ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضاع الرأي ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو[٦] ، ويكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة إلى رَخاء[٧] ، وكل غمرة[٨] فإلى انجلاء[٩].

وكما أنك أتيت من إساءتك بما لم تحتسبه أولياؤك ، فلا بِدْعَ أن تأتي من إحسانك بما لم ترتقبه أعداؤك ، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت ، واخترت ما اخترت فلا عجب أن تنتبه انتباهةً تبصر فيها قبح ما صنع وسوء ما آثرت ، وسأقيم على رسمي في الإبقاء والمماطلة

---

(١) يَمْحَقُ بابه فتح.
(٢) الاستئصال وكذلك الاجتياح.
(٣) أي لرجوعك.
(٤) عزب كنصر وضرب عزوباً بعد وغاب وخفي.
(٥) يرجع.
(٦) صحا السكران ذهب سكره.
(٧) بالفتح سعة العيش.
(٨) غمرة الشيء شدته ومزدحمه ج غمرات وغمار وغُمَر.
(٩) الانكشاف.

ما صلح ، وعلى الإستيناء[١] والمطاولة[٢] ما أمكن ، طمعاً في إنابتك ، وتحكيماً لحسن الظن بك ، فلست أعدم فيما أظاهره من أعذار ، وأرادفه من إنذار ، احتجاجاً عليك واستدراجاً[٣] لك . فإن يشأ الله يرشدك ، ويأخذ بك إلى حظك ، ويسددك[٤] فإنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير .

وزعمت أنك في طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها ، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حاليها ، وحلبت شطريها[٥] ، فنشدتك الله لما[٦] صدقت عما سألتك ، كيف وجدت ما زلت عنه؟ وكيف تجد ما صرت إليه؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل ، ونسيم[٧] عليل ، وريح بليل[٨] ، وهواء غَذيّ[٩] ، وماء رويّ[١٠] ومهاد وطيّ[١١] ، وكن[١٢] كنين[١٣] ، ومكان مكين ، وحصن حصين ، يقيك المتالف[١٤] ، ويؤمنك المخاوف ،

---

(١) التمهل .
(٢) طاوله مطاولة ماطله .
(٣) استدرجه إلى كذا قربه إليه رقاه من درجة إلى درجة .
(٤) أي يرشدك إلى طريق الصواب .
(٥) الجزء والنصف ج أشطر وشطور ويقال للناقة في ضرعها شطران قادمان وآخران وكل خلفين شطر .
(٦) قد تكون حرف استثناء بمعنى إلا فتدخل على الجملة الاسمية نحو إن كل نفس لما عليها حافظ وعلى الماضي لفظاً لا معنى نحو أنشدك الله لما فعلت أي ما أسألك إلا فعلك .
(٧) الريح اللينة لا تحرك شجراً ولا تعفي أثراً ج نِسام .
(٨) الريح البادرة مع ندى .
(٩) الطّيب .
(١٠) الماء الغزير المروي .
(١١) اللين الناعم .
(١٢) البيت ج أكنان وأكنّة .
(١٣) المستور .
(١٤) جمع متلفة وهي سبب التلف والهلاك .

ويكنفك[١] من نوائب الزمان ، ويحفظك من طوارق[٢] الحدثان[٣] ؛ عززت به بعد الذلة ، وكثرت بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة[٤] ، وأيسرت[٥] بعد العسرة ، وأثريت[٦] بعد المتربة[٧] واتسعت بعد الضيقة ، وظفرت بالولايات ، وخفقت[٨] فوقك الرايات[٩] ، ووطىء عقبك الرجال ، وتعلقت بك الآمال ، وصرت تكاثر[١٠] ويكاثر بك ، وتشير ويشار إليك ، ويذكر على المنابر اسمك ، وفي المحاضر ذكرك .

ففيم الآن أنت من الأمر؟ وما العوض عما عدوت والخلف[١١] مما وصفت؟ وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ، ونفضت منها كفك وغمست في خلافها يدك؟ وما الذي أظلك بعد انحسار[١٢] ظلها عنك؟ أظل ذو ثلاث شعب[١٣] لا ظليل ولا يغني من اللهب؟ قل : نعم كذلك! فهو ـ والله ـ أكثف ظلالك في العاجلة ، وأروحها في الآجلة ، إن أقمت على المحايدة[١٤] والعنود[١٥] ، ووقفت على

(١) كنف الشيء صانه وحفظه وحاطه بابه نصر .
(٢) جمع طارقة وهي الداهية .
(٣) حدثان الدهر وحدثانه نوائبه .
(٤) الذلة .
(٥) أي صرت ذا يسار وغنى .
(٦) أي كثر مالك .
(٧) أي الفاقة والفقر .
(٨) اضطربت .
(٩) جمع راية علم الجيش ويجمع أيضاً على راي .
(١٠) كاثره غالبه وفاخره بكثرة المال والعداد .
(١١) البدل والعوض .
(١٢) الانكشاف .
(١٣) جمع شعبة الطائفة من الشيء .
(١٤) المجانبة .
(١٥) عند عنوداً عن الطريق أو القصد مال وعدل بابه ضرب ونصر وسمع وكرم وأيضاً =

المشاقة[١] والجحود[٢].

تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها ، والمس جسدك ، وانظر هل يحس؟ وأحبس عرقك هل ينبض[٣]؟ وفتش ماحنا[٤] عليك هل تجد في عرضها قلبك ، وهل حَلِيَ[٥] بصدرك أن تظفر بفوت سريح[٦] أو موت مريح؟ ثم قس غائب أمرك بشاهده وآخر شأنك بأوله![٧].

* * *

= عند الرجل خالف الحق وهو عارف به.

(١) المخالفة والمعاداة.

(٢) الإنكار مع العلم.

(٣) نبض العرق نبضاً ونبضاناً تحرك وضرب بابه ضرب.

(٤) أي مال وانعطف.

(٥) طاب ولذّ بابه سمع.

(٦) المعجّل.

(٧) يتيمة الدهر لأبي منصور الثعالبي. قال المؤلف: «بلغني عن ابن بلكا وكان آدب أمثاله أنه كان يقول والله ما كانت لي عند قراءة هذا الفصل إلا كما اشار إليه الأستاذ الرئيس (ابن العميد): ولقد ناب كتابه عن الكتائب في عرك أديمي واستصلاحي وردي إلى طاعة صاحبه» (يتيمة الدهر ٣/ ١٦٧ـ١٦٨)

البَحـــر

رسالة للصاحب بن عبَّاد [١] إلى ابن عميد صدرت عن كتابه إليه في وصف البحر .

وصل كتاب الأستاذ الرئيس صادراً عن شَطِّ [٢] البحر بوصف ما شاهد من عجائبه ، وعاين من مراكبه ، ورآه من طاعة آلاته للرياح كيف

---

(١) ٣٢٦ — ٣٨٥هـ هو أبو القاسم إسماعيل بن عباد ، ولد بطالقان من أعمال قزوين وصحب الأستاذ الرئيس ابن العميد شاباً فاشتهر بالصاحب . كان وزيراً لمؤيد الدولة ابن بويه ، ثم لأخيه فخر الدولة فكان ذا الوزارتين ، وصاحب الدولتين (العلم والإمارة) ، وحائز الحسنيين (الأدب والرئاسة) وهو رمز من رموز الأدب الخالدة ، وكان سوقاً للأدب والشعر ، يجلب إليها كل طريف ، ويرحل إليه كل أديب ، ويقصده كل شاعر . قال الثعالبي : «احتفَّ به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل وفرسان الشعر من يربي عددهم على شعراء الرشيد» .

أما كتابته فعلى أثر ابن العميد بزيادة في الحلية اللفظية ، وولع بالسجع والجناس حتى قيل فيه : «لو رأى سجعة تنحل بموقعها عروة الملك ويضطرب بها حبل الدولة لما هان عليه أن يتخلى عنها» . وهذه الملاحظة وإن كانت شديدة لكنها صادقة في أكثر كتاب ذلك العصر إلى عصور بعده .

ولعل هذا الكتاب الذي وقع اختيارنا عليه أقل رسائله تكلفاً وإغراقاً في الجناس والبديع وأكثرها خفة وسلامة وجمالاً . قال الثعالبي في يتيمه الدهر ج/٣ : كان أبو بكر الخوارزمي يحفظ هذا الكتاب وكثيراً ما كان يقرؤه ويعجب السامعون من فصاحته ولم أره يحفظ من الرسائل غيره .

(٢) الشاطئ ج شطوط وشُطَّان .

أرادها واستجابة أدواها [١] لها متى نادها ، وركوب الناس أثباجها [٢] ، والخوف بمرأى ومسمع ، والمنون [٣] بمرقب ومطلع ، والدهر بين أخذ وترك ، والأرواح بين نجاة وهلك ، إذا فكروا في المكاسب الخطيرة [٤] هان عليهم الخطر ، وإذا لاحت لهم غُرر [٥] المطالب الكثيرة حُبِّب إليهم الغَرر [٦] .

وعرفت ما قاله من تمنيه كوني عند ذلك بحضرته ، وحصولي على مساعدته ، ومن رأى بحر الأستاذ كيف يزخر [٧] بالفضل ، وتتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم ، لم يعتب [٨] على الدهر فيما يفيته من منظر البحر ، ولا فضيلة له عندي أعظم من إكبار الأستاذ لأحواله ، واستعظامه لأهواله ، كما لا شيء أبلغ في مفاخرة ، وأنفس في جواهره ، من وصف الأستاذ له ، فإني قرأت منه الماء السلسال [٩] لا الزلزال [١٠] ، والسحر [١١] الحرام لا الحلال ، وقد علم أنه كتب ولَمَّا أخطر بفكره سعة صدره ، فلو فعل ذلك لرأى البحر وَشَلاً [١٢] لا يفضل من

---

(١) جمع أداة وهي الآلة .

(٢) جمع ثبج وهو من كل شيء أعلاه يقال «تسنمت الحمر أثباج الآكام» أي أعاليها ويجمع أيضاً على ثبوج .

(٣) الموت (مؤنثة وقد تذكر) .

(٤) الرفيعة القدر .

(٥) بالضم جمع غرة وهي البياض في جبهة الفرس والغرة من كل شي أوله ومعظمه وطلعته والغرة من القوم شريفهم .

(٦) بالفتح التعريض للهلاك .

(٧) زخر كفتح زخراً أو زخوراً وتزخاراً البحر طمي وتملا .

(٨) عتب كضرب ونصر عتباً وعتاباً وعِتِّيـــبى فلاناً لامه .

(٩) الماء العذب .

(١٠) المتلاطم المصوت كماء البحر .

(١١) الممنوع على غيره من أن يقلده أو يحكيه وإن كان حلالاً .

(١٢) بفتحتين الماء القليل يتحلب من صخر أو جبل ج أو شال .

التبرُّض[١] ، وثَـمَـداً[٢] لا يكثر عن الترشـف[٣]:

وكم من جبالٍ جبتَ تشهد أنك الـ ـجبالُ وبحر شاهد أنك البحرُ[٤]

* * *

(١) تبرض الشيء أخذه قليلاً قليلاً.

(٢) بفتح الميم وسكونها الماء القليل يتجمع في الشتاء وينضب في الصيف أو الحفرة يجتمع فيها ماء المطر، ج ثماد.

(٣) ترشف الماء بالغ في مصه.

(٤) يتيمة الدهر للثعالبي.

كيف تتفاضل الكلِمَات بَعضها عَلى بَعض

لعبد القاهر الجرجاني[١]

هل يقع في وهم وإن جهد أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكانٍ تقعان فيه من التأليف والنظم ، بأكثر من أن تكون هذه مألوفةً مستعملةً ، وتلك غريبة وحشية ، أو أن تكون حروفُ هذه أخفَّ ، وامتزاجها أحسن ، ومما يَكُدُّ[٢] اللسانَ أبعدَ ، وهل تجد أحداً يقول: «هذه اللفظة فصيحة» إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جارتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ، وهل قالوا: «لفظة

(١) عبد القاهر الجرجاني المتوفى ٤٧١هـ، من كبار أئمة العربية، أخذها عن أبي الحسين الفارسي النحوي ابن أخت أبي علي الفارسي، كان يُرحل إليه من الآفاق، ولقب بالنحوي وهو أول من أسسّ قواعد البلاغة، كان شافعياً اشعرياً، صاحب تدين وورع، أهم كتبه المطبوعة «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغه» وبهما خلد اسمه في عالم الأدب، و«دلائل الإعجاز» صحيفة من الأدب العالي، لم يكتب البيان ولا النحو ولا الفقه بمثل هذا اللسان العذب، إذا قرأت فصلاً من كتاب «دلائل الإعجاز» أو «أسرار البلاغة» شعرت كأنك في درس أو تسمع حواراً (مقتبس من كتاب «كنوز الأجداد» للعلامة محمد كرد علي) وقد قدمنا نموذجه على بديع الزمان الهمذاني وأبي القاسم الحريري مع أنّ وفاته تأخرت عن وفاة بديع الزمان لأنه نمط من الإنشاء تختلف عن نمط إنشائهما اختلافاً كبيراً. وهو أشبه بالأولين منه بالمتأخرين.

(٢) يكدّ: من (نصر) كدًّا: أتعبه.

متمكنة ومقبولة ، وفي خلافه ، «قلقة ونابية[١] ومستكرهة ، إلاّ وغرضهم أن يعبّروا بالتمكن عن حسن الاتّفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما ، وبالقلق والنُّبُوِّ عن سوء التلاءم ، وأن الأُولى لم تَلِقْ بالثانية في معناها ، وأن السابقةَ لم تصلح أن تكون لِفْقاً للتالية في مؤدّاها ، وهل تشك إذا فكّرت في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي[٢] وَغِيضَ[٣] ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤] فتجلّى لك منها الإعجاز ، وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة ، والفضيلة القاهرة ، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأن لم يعرض لها الحُسْن والشرف ، إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة ، وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها ، وأنّ الفضل تَناتَجَ ما بينها ، وحصل من مجموعها!!

إن شككت فتأمّل: هل ترى لفظةً منها بحيث لو أُخِذَتْ من بين أخواتها وأُفْرِدَتْ ، لأدَّتْ من الفصاحة ما تُؤدّيه ، وهي في مكانها من الآية؟ قل: «ابلعي» واعتبرها وحدَها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها ، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها ، وكيف بالشك في ذلك ، ومعلوم أنّ مبدأ العظمة في أن نُوديت الأرضُ ، ثم أُمرت ، ثم في أن كان النداءُ بـ «يا» دون «أيّ» نحو يأيتها الأرضُ ، ثم إضافة «الماء» إلى الكاف دون أن يقال: «ابلعي الماء» ، ثم أن أُتبعَ نداءُ الأرض وأمرُها بما هو من شأنها ، نداءَ السماء وأمرَها كذلك بما يخصّها ، ثم أن قيل: «وغِيضَ الماءُ» فجاء الفعل على صيغة «فُعِلَ» الدّالة على أنّه لم يَغِض إلا بأمرآمر وقُدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: «وقُضي الأمرُ» ثم ذِكْرُ ما هو فائدة هذه

(١) نبوًّا من (نصر) (صورته) قبحت فلم تقبلها العين.
(٢) أقلعي: أقلع (عن كذا) كفّ عنه وتركه.
(٣) غيض: غاض يغيض غيضاً: لازم ومتعد معاً. (الماء ونحوه) نقص أو غار أو نضب. أو نقصه.

الأمور ، وهو «استَوَتْ على الجُوديّ» ثم إضمار «السفينة» قبل الذكر ، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة «قيل» في الخاتمة بـ «قيل» في الفاتحة ، أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعةً ، وتحضرك عند تصوّرها هيبةً ، تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ ، من حيث هو صوت مسموعٌ وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتّساق[1] العجيب.

فقد اتضح إذاً اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها ، أو ما أشبه ذلك ، مما لا تعلق له بصريح اللفظ. ومما يشهد لذلك أنّك ترى الكلمةَ تروقُك وتُؤنِسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر ، كلفظ الأخداع في بيت الحماسة :

تَلَفَّتُّ نحو الحيّ حتى وَجَدْتُني وجِعْتُ من الإصغاءِ ليتاً[2] وأَخْدَعا[3]

وبيت البحتري :

وإني وإِن بَلَّغْتَني شَرَفَ الغِنى وأَعْتَقْتَ من رِقِّ المَطامِعِ أَخْدَعي

فإنّ لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن ، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام :

يا دَهْرُ قَوِّم مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ أَضْجَجْتَ هذا الأنامَ من خُرُقِكْ[4]

فتجد لها من الثِّقْلِ على النفس ومن التنغيصِ والتكدير أضعافَ ما وجدت هناك من الرَّوْحِ والخِفَّة والإيناس والبهجة. ومن أعجب ذلك

(١) اتسق أمره: اتساقاً، انتظم واستوى.
(٢) الليت: صفحة العنق.
(٣) الأخدعان: عرقان في جانبيه.
(٤) الخرق: بالضمّ، العنف، وتقويم الأخدعين: إزالة الكبر والعنف.

لفظة «الشيء» فإنك تراها مقبولةً حسنةً في موضع ، وضعيفةً مستكرهةً في موضع ، وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي :

ومِن مالِىءٍ عَيْنَيْهِ من شَيْءٍ غَيْرِهِ   إذا راحَ نَحْوَ الجَمْرَةِ[1] البيضُ كالدُّمَى

وإلى قول أبي حية :

إذا ما تَقاضَى المرءَ يومٌ وليلةٌ   تَقاضاهُ شَيْءٌ لا يَمَلُّ التَّقاضِيا

فإنّك تعرف حُسْنها ومكانها من القبول ، ثم انظر إليها في بيت المتنبي :

لَوِ الفَلَكُ الدوار أَبْغَضْتَ سَعْيَهُ   لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ عَنِ الدَّوَرانِ

فإنّك تراها تقلُّ وتَضْؤُلُ ، بحسب نُبْلها وحُسْنها فيما تقدم .

وهذا بابٌ واسعٌ فإنك تجد متى شئتَ الرجلين قد استعملا كَلِماً بأعيانها ، ثم ترى هذا قد قرع السماك[2] ، وترى ذاك قد لَصِق بالحضيض[3] ، فلو كانت الكلمةُ إذا حَسُنَتْ حَسُنَتْ من حيث هي لفظ وإذا استحقت المزيَّةُ والشرفُ استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السببَ في ذلك حالٌ لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم . لَمَا اختلف بها الحالُ ، ولكانت إمّا أن تَحْسُنَ أبداً ، أولا تَحْسُن أبداً ، ولم تر قولاً يضطرب على قائله حتى لا يدري ، كيف يُعبِّر وكيف يورد ويُصْدِر ،

(١) الجمرةُ: القبيلة يجتمع عددها، ثم قيل لمكان اجتماعها.

(٢) السّماك: ج سُمُكٌ، ما سمك به الشيء أي رُفع، والسماكان: كوكبان في السماء، يقال لأحدهما: السماك الرامح، وللآخر: السماك الأعزل.

(٣) الحضيض: ج أحضّة وحُضُضٌ: القرار من الأرض عند أسفل الجبل.

كهذا القول ، بل إن أردت الحقَّ فإنه من جنس الشيء يُجْرِي به الرجل لسانَه ، ويُطْلِقه ، فإذا فَتَّشَ نَفْسَه وجدها تعلم بُطْلانَهُ ، وتنطوي على خلافه ، ذاك لأنه مما لا يقومُ بالحقيقة في اعتقاد ، ولا يكون له صورة في فُؤاد[١] .

* * *

(١) دلائل الإعجاز

المقَـامَـة المضيريَّـة

لبديع الزمان الهمذاني[١]

حدثنا عيسى بن هشام قال: كنت بالبصرة ومعي أبو الفتح الاسكندري رجل الفصاحة[٢] يدعوها فتجيبه، والبلاغة يأمرها فتطيعه، وحضرنا معه دعوة بعض التُّجّار، فقُدّمت إلينا مَضيرَةٌ[٣]، تُثْني على الحضارة،

(١) هو بديع زمانه أبو الفضل أحمد بن الحسين، وُلد بهمذان ونشأ بها وتعلم العلم باللغتين الفارسية والعربية، ورحل إلى الصاحب بن عباد فاستفاد منه، وقصد جرجان وأقام في أكناف الإسماعيلية وفي سنة ٣٨٢هـ يمم نيسابور فتجلت فيها عبقريته وأملى بها أربعمئة مقامة؛ ثم تصدى لمناظرة أبي بكر الخوارزمي وهو حامل لواء الأدب في عصره فظهر عليه وطار بذلك صيته في الآفاق ثم ألقى عصاه بهرات وعاش بها إلى سنة ٣٩٨هـ كان البديع نادرة في الذكاء وسرعة الخاطر، وحضور البديهة، وقوة الحفظ. كان يأتي في الإنشاء ببدائع ونوادر وهو الذي سبق إلى انشاء المقامات وقد اعترف بتقدمه وسبقه الحريري في مقدمة مقاماته.

نثر البديع من قبيل الشعر المنثور أقل تكلفاً من متأخريه ومن كثير من معاصريه ومتقدميه يجمع بين متانة اللفظ ورشاقة المعنى، وجمال الأدب، ودقة التخيل وهزله، ودعابته تفوق دعابة الحريري وأقل منها تكلفاً.

(٢) أي صاحبها الفرد ليس في الرجال من يساويه يقال: «فلان رجل الحرب» إذا كان فريداً في القيام بأعبائها لا يباريه بها أحد وكذا رجل البلاغة.

(٣) لحم يطبخ باللبن المضير وهو الحامض.

وتَـتَـرَجْـرَجُ[١] في الغضـارة[٢] ، وتُـؤذن[٣] بالسلامةِ ، وتشهـدُ لمعاوية رحمـه الله بالإمامـةِ[٤] ، في قصعـةٍ يَـزلُّ عنهـا الطَّـرْف ، ويموج فيهـا الظـرف[٥] . فلما أخـذت من الخـوان[٦] مكانهـا ومن القلوب أوطـانها قـام أبـو الفتـح الإسكنـدري يلعنهـا وصـاحبهـا ، ويمقتهـا[٧] وآكلهـا ، ويثلبها[٨] وطابخها ، وظنناه يمزح فإذا الأمر بالضد ، وإذا المزاح عينُ الجدّ ، وتنحّى عن الخوان ، وترك مساعدة الإخوان ، ورفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العيون ، وتحلّبت[٩] لها الأفواه ، وتلمّظت[١٠] لها الشفاه ، واتقدت لها الأكباد. ومضى في أثرها الفؤاد. ولكنّا ساعدناه على هجرها ، وسألناه عن أمرها ، فقال: قصتي معها أطول من مصيبتي فيها ، ولو حدثتكم بها لم آمن المقتَ ، وإضاعة الوقتِ؛ قلنا: هات!

قال: دعاني بعض التجّار إلى مضيرة وأنا ببغداد ولزمني ملازمة

---

(١) تتحرك بشدة.
(٢) القصعة الكبيرة ج غضائر.
(٣) أي تشعر بالسلامة من يأكل منها لأنها لطيبها مستساغة سهلة الهضم لا يخشى آكلها من ضرر البطنة وإن بالغ في الالتهام.
(٤) لأن سيدنا معاوية (رضي الله تعالى عنه) كان معروفاً في عصره بحسن الذوق وطيب الطعام وتنويعه.
(٥) حسن الهيئة وبراعة اللسان فيما تسر الأنفس باستماعه ذلك أصله والمراد هنا مطلق الحسن والبهاء.
(٦) بالضم والكسر ما يوضع عليه الطعام ليؤكل ج أخونة وخُون.
(٧) أي يبغض أشد البغض بابه نصر اراد من المقت الكلام الدال عليه وإلا فهو فعل نفسي.
(٨) ثلبه أي عابه ولامه بابه ضرب.
(٩) أي سال ريقها والفم يتحلب عند رؤية شيء من المطعم تميل النفس إلى تناوله بل عند تذكره كذلك.
(١٠) التلمُّظ إخراج اللسان بعد الأكل والشرب ليمسح به الشفتان.

الغريم[١] والكلب لأصحاب الرقيم[٢] ، إلى أن أجبته إليها ، وقمنا فجعل طول الطريق يثني على زوجته ، ويفدّيها[٣] بمهجته[٤] ، ويصف حِذْقَها[٥] في صناعتها ، وتأنّقها[٦] في طبخها ، ويقول: يا مولاي! لو رأيتها ، والخرقةُ في وسطها ، وهي تدور في الدُّور ، من التنوّر إلى القدور ، ومن القدور إلى التنّور ، تنفثُ[٧] بفيها النار ، وتدق بيدها الأبزار[٨] ، ولو رأيت الدخان وقد غَبَّرَ[٩] في ذلك الوجه الجميل ، وأثر في ذلك الخدّ الصقيل[١٠] ، رأيت منظراً تحار فيه العيون ، وأنا أعشقها لأنها تعشقني ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته[١١] ، وأن يُسعَد بظعينته[١٢] ، ولا سيّما إذا كانت من طينته ، وهي ابنة عمّي لِحّاً[١٣] ، طينتها طينتي ، ومدينتها مدينتي ، وعمومتها عمومتي ، وأرومتها[١٤] أرومتي ، لكنها أوسع منّي خُلقاً ، وأحسن خَلقاً ،

---

(١) رب الدين ج غرماء وغرّام.
(٢) أهل الكهف وقصتهم معروفة في القرآن الكريم وكلبهم معهم لا يفارقهم.
(٣) أي قال لها: جُعِلْتُ فداكِ.
(٤) دم القلب، الروح ج مُهج ومهجات.
(٥) مهارتها.
(٦) التأنق في العمل الإتيان به على أحسن وجوهه.
(٧) تنفخ بابه ضرب ونصر.
(٨) جمع بزر بالكسر التابل وهو ما يوضع في الطعام لتطييبه كالفلفل والقرنفل ونحوهما ج أبزار وأبازير.
(٩) لطّخ بالغبار.
(١٠) المجلوّ كالسيف الذي جُلي حتى ظهر بريقه ولمعانه ويروى الأسيل بدل الصقيل وأسل الخد ككرم إسالة لان وطال.
(١١) الزوجة ج حلائل.
(١٢) المرأة ما دامت في هودجها أراد منها الزوجة ج ظعائن.
(١٣) مصدر لحّت القرابة بيننا لحّا إذا التصقت والتحمت ثم قيل هو ابن عمّي لحّا أي ملتصقاً أي ابن عم أقرب أخ للأب.
(١٤) الأصل أي أصولها هي أصوله والفقرات كلها تأكيد لمعنى لحّاً.

وصدعني[١] بصفات زوجته ، حتى انتهينا إلى محلّته ، ثم قال: يا مولاي! ترى هذه المحلّة هي أشرف محالّ بغداد يتنافس الأخيار في نزولها ، ويتغاير الكبار في حلولها ، ثم لا يسكنها غير التجار ، وإنما المرء بالجار ، وداري في السطة من قلادتها[٢] ، والنقطة من دائرتها ، كم تقدّر يا مولاي! أُنفق على كُلِّ دار منها ، قله تخميناً ، إن لم تعرفه يقيناً؛ قلت: الكثير ، فقال: يا سبحان الله! ما أكبر هذا الغلط! تقول الكثير فقط ، وتنفّس الصُّعَداء[٣] ، وقال: سبحان من يعلم الأشياء! وانتهينا إلى باب داره ، فقال: هذه داري كم تقدّر يا مولاي أنفقتُ على هذه الطاقة[٤] أنفقتُ والله عليها فوق الطاقة ، ووراء الفاقة ، كيف ترى صنعتها وشكلها؟ أرأيت بالله مثلها ، انظر إلى دقائق الصنعة فيها ، وتأمّل حسن تعريجها[٥] ، فكأنما خطّ بالبركار[٦] ، وانظر إلى حذق النجار ، في صنعة هذا الباب ، اتَّخَذَهُ مِنْ كَمْ؟ قل: ومن أين أعلم ، هو ساج[٧] من قطعة واحدة لا مأروض[٨] ولا عفِن[٩] ، إذا حرّكَ أنّ[١٠] ، وإذا نُقر

---

(١) صدع بالحق تكلم به جهاراً بابه فتح.

(٢) ما جعل في العنق من الحلي ج قلائد وقلاد جعل بيوت المحلّة كجواهر القلادة وبيته في مكان الوسط من تلك القلادة وواسطة القلادة هي أعظم جوهر فيها والسطة: الوسط.

(٣) على وزن العلماء التنفس الطويل من هم أو تعب.

(٤) ما عطف من الأبنية أي جعل كالقوس من قنطرة ونافذة وما أشبه ذلك والطاقة في الجملة اللاحقة بمعنى الوسع والاستطاعة.

(٥) هو الميل والانحناء على نسب محفوظة يشكل به البنيان للزينة فيما تكون زينته به.

(٦) آلة لتحديد الدوائر.

(٧) شجر عظيم صلب الخشب.

(٨) الخشب الذي أكلته الأرضة.

(٩) الذي فسد من رطوبة أصابته.

(١٠) أي كان له أنين كأنين المريض بابه ضرب.

طنَّ[١] ، من اتّخذه يا سيدي اتخذه أبو إسحاق بن محمد البصريّ وهو رجل نظيف الأثواب ، بصيرٌ بصنعة الأبواب ، خفيفُ اليد في العمل ، لله درّ ذلك الرجل ، بحياتي لا استعنتَ إلا به على مثله. وهذه الحَلَقَة تراها اشتريتها في سوق الطرائف[٢] ، من عمران الطرائفي بثلاثة دنانير معزّية[٣] ، وكم فيها يا سيدي من الشبه[٤] ، فيها ستة أرطال ، وهي تدور بلولب[٥] في الباب ، بالله دوّرها ، ثم أنقُرها وأبصرها ، وبحياتي عليك لا اشتريت الحَلَقَ إلا منه فليس يبيع إلا الأعلاق[٦] ثم قرع الباب ودخلنا الدهليز وقال: عمّركِ اللهُ يا دار ، ولا خرّبكَ ياجدار ، فما أمتنَ حيطانَكِ ، وأوثقَ بنيانَكِ ، وأقوى أساسكِ ، تأمّل بالله معارجَها[٧] ، وتبين دواخلها وخوارجها ، وسلني كيف حصّلتها ، وكم حيلة احتلتها ، حتى عقدتها. كان لي جار يكنى أبا سليمان ، يسكن هذه المحلّة ، وله من المال مالا يسعه الخزن ، ومن الصامت[٨] ما لايحصره الوزن. مات رحمه الله وخلّف خلفاً أتلفه بين الخمر والزمر[٩] ، ومزّقه بين النرد[١٠] ، والقمر[١١] ، وأشفقت أن يسوقه قائد الاضطرار ، إلى بيع الدار ، فيبيعها في أثناء الضجر ، أو يجعلها عرضة للخطر ، ثم أراها ، وقد فاتني

(١) أي صوّت وسمع له طنين.

(٢) جمع طريفة وهي النادر المستحسن.

(٣) نسبة إلى المعز لدين الله.

(٤) النحاس الأصفر.

(٥) آلة من خشب أو حديد ذات محور ذي دوائر ناتئة.

(٦) جمع علق بالكسر وهو الشيء النفيس.

(٧) جمع معرج وهو السلّم ويجمع أيضاً على معاريج.

(٨) هو المال من الذهب والفضة ونحوهما من المعادن والجواهر في مقابلة الناطق وهي الأموال من الحيوان كالإبل والبقر والغنم ونحوها.

(٩) الصوت والغناء.

(١٠) لعبة الطاولة.

(١١) مصدر قمره كضرب إذا غلبه في القمار.

شراها ، فأتقطّع عليها حسراتٍ ، إلى يوم الممات ، فعمدت إلى أثواب لا تنضّ[١] تجارتها ، فحملتها إليه ، وعرضتها عليه ، وساومته على أن يشتريها نسيّة[٢] ، والمدبر[٣] يحب النسيئة عطيّة ، والمتخلّف[٤] يعتدها هَدِيّة. وسألته وثيقة[٥] بأصل المال ففعل وعقدها لي ، ثم تغافلت عن اقتضائه حتى كادت حاشية حاله ترق ، فأتيته فاقتضيته ، واستمهلني فأنظرته ، والتمس غيرها من الثياب فأحضرته ، وسألته أن يجعل داره رهينة لديّ ، ووثيقة[٦] في يديّ ، ففعل ثم درّجته[٧] بالمعاملات إلى بيعها حتى حصلت لي بجد صاعد ، وبخت[٨] مساعدٍ ، وقوة ساعد[٩] ، ورب ساعٍ[١٠] لِقاعد ، وأنا بحمد الله مجدود[١١] ، وفي مثل هذه الأحوال محمود ، وحسبك يا مولاي اني كنت منذ ليال نائماً في البيت مع مَنْ فيه إذا قُرِع علينا الباب ، فقلت: من الطارق[١٢] المنتاب[١٣]؟ فإذا

(١) مأخوذ من قولهم ما نض بيدي منه شيء أي ما حصل والمراد أن تجارتها تكون كاسدة غير نافقة.

(٢) أي بتأجيل الثمن.

(٣) الذي أدبر عن السعادة.

(٤) المتأخر عن الناس في حسن الحال.

(٥) الصك الذي يكتب فيه الدين ج وثائق.

(٦) الوثيقة هنا بمعنى ما تكون به الثقة في قضاء الدين.

(٧) درّجه إلى كذا أدناه منه بالتدريج.

(٨) معاونة القدر لا كسب للإنسان فيها.

(٩) ما بين المرفق والكف ج سواعد.

(١٠) من كلام سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه في تهوين الدنيا أي قد يسعى المرء في كسب ولا ينتفع به هو وإنما يتركه فينتفع به غيره وهو قاعد لم يكسبه بسعيه.

(١١) أي ذو جد وحظ.

(١٢) الآتي ليلاً بابه نصر.

(١٣) الذي يأتيك مرة بعد أخرى كأنه جعل إتيانه نوبا ثم شاع فيمن يأتي وقت لا يأتي الناس فكأنه لم يطرق بابك إلا بعد ما طرق أبواباً فَرْدً فانتهت نوبة الطرق إلى =

امرأة معها عقد لآل ، في جلدة ماء ورقّة آل[١] تعرضه للبيع ، فأخذته منهاإخذة خلس[٢] ، واشتريته بثمن بخس ، وسيكون له نفع ظاهر ، وربح وافر ، بعون الله تعالى ودولتك .

وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جَدّي في التجارة ، والسعادة تنبط[٣] الماء من الحجارة ، الله أكبر! لا ينبئك أصدق من نفسك ، ولا أقرب من أمسك .

اشتريت هذا الحصير في المناداة[٤] ، وقد أُخرج من دور آل الفرات[٥] ، وقت المصادرات[٦] ، وزمن الغارات ، وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطول فلا أجد ، والدهر حبلى[٧] ليس يُدرى ما يلد . ثمّ اتفق أني حضرت باب الطاق ، وهذا يُعرض في الأسواق ، فوزنت فيه كذا وكذا ديناراً ، تأمّل بالله دقته ولينه وصنعته ولونه فهو عظيم القدر ، لا يقع مثله إلا في الندر[٨] ، وإن كنت سمعت بأبي عمران الحصيري فهو عمله ، وله ابن يخلفه الآن في حانوته لا يوجد أعلاق[٩] الحُصُر إلاّ عنده .

= بابك .

(١) السراب أي هذه اللآلىء هي كالماء صفاء والسراب رقة .

(٢) خلس كضرب خَلْساً وخلّيْسى الشيء سلبه بمخاتلة وعاجلاً .

(٣) أنبط الماء أخرجها .

(٤) البيع بالمزاد وهو أن ينادى على شيء ويقومه أحد ثم يزيد عليه ثان وثالث حتى يشتريه أحد بثمنٍ عالٍ .

(٥) علي بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات وأخوه أبو العباس أحمد بن محمد بن الفرات وأخوهما أبو الخطاب جعفر بن محمد كان أولهم وزيراً للمقتدر بالله بن المعتضد العباس ثم نكبه وصادره على جميع أمواله في سنة ٣٠٢ من الهجرة .

(٦) يقال صودر فلان العامل على مال يؤديه أي فورق على مالٍ ضمنه .

(٧) الحبلى الحامل ج حبالى وحبليات وهو مثل يضرب لما يحصل من غير ترقب وعلم سابق .

(٨) مصدر ندر الشيء كنصر ندراً وندوراً إذا قل وجوده .

(٩) جمع عِلق بالكسر وهو الشيء النفيس ويجمع أيضاً على علوق .

فبحياتي لا اشتريتَ الحُصر إلاّ من دكانه ، فالمؤمن ناصح لإخوانه ، لا سيما من تحرّم[١] بخوانه.

ونعود إلى حديث المَضيرة ، فقد حان وقتُ الظهيرة ، يا غلام! الطستَ والماء ، فقلت: الله أكبر! رُبّما قَرُبَ الفَرَجُ ، وسَهُلَ المخرجُ ، وتقدَّم الغلامُ ، فقال: ترى هذا الغلام ، إنه روميّ الأصل عراقي النشيء ، تقدمْ يا غلام! واحسِر عن رأسك ، وشمّر عن ساقك وانضُ[٢] عن ذراعك ، وافترّ[٣] عن أسنانك ، وأقبل وأدبر. ففعل الغلام ذلك. وقال التاجر: بالله من اشتراه؟ اشتراه والله أبو العباس من النخّاس[٤] ، ضع الطستَ ، وهاتِ الإبريقَ[٥]. فوضعه الغلام وأخذه التاجر وقلّبه وأدار فيه النظر ثمّ نقره. فقال: انظر إلى هذا الشبه كأنّه جذوة[٦] اللهب ، أو قطعةٌ من الذهب ، شبه الشام وصنعةُ العراق ، ليس من خُلقان[٧] الأعلاقِ ، قد عرف دور الملوك ودَارَها[٨] ، تأمل حسنه ، وسلني متى اشتريتَه. اشتريته والله عام المجاعة ، وادّخرته لهذه الساعة ، يا غلام! الإبريقَ ، فقدّمه وأخذه التاجر فقلّبه ، ثم قال: وأُنبوبه[٩] منه ، لا يصلح

(١) تمنّع يقال تحرّم من فلان بذمة أو عهد أو جوار إذا صار في حمايته وهذه كناية لطيفة أي من كان ضيفاً عند رجل مرة وجب له حق ويثبت له حرمة عند المضيف ينصح له ويعينه.
(٢) أي انزع ثوبك عن ذراعك بابه نصر.
(٣) أي تبسم لتكشف عن أسنانك.
(٤) بائع العبيد يتجر فيها.
(٥) إناء له عروة وفم وبلبلة ج أباريق.
(٦) بالتثليث الجمرة الملتهبة ج جُذىً وجِذىً وجِذاء.
(٧) جمع خلق بمعنى البالي الرثيث.
(٨) أي طاف في دور الملوك داراً بعد دار يتنافسون فيه لنفاسته فينتقل من يد ملك إلى يد آخر.
(٩) ما بين العقدتين من القصب أو الرمح ويستعار لكل أجوف مستدير كالقصب ج أنابيب.

هذا الإبريق إلاّ لهذا الطست ، ولا يصلح هذا الطَّسْتُ إلاّ مع هذا الدَّسْت[١] ، ولا يحسُن هذا الدست إلا في هذا البيت ، ولا يجمل هذا البيت إلا مع هذا الضيف ؛ أرسلِ الماءَ يا غلام ، فقد حان وقت الطعام. بالله ترى هذا الماء ما أصفاه، أزرق كعين السّنّور ، وصافٍ كقضيب البلّور[٢] ، استُقِيَ من الفرات ، واستعمل بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة ، في صفاء الدمعة ، وليس الشأن في السقاء ، الشأنُ في الإناء ، لا يدلك على نظافة أسبابه ، أصدق من نظافة شرابه ، وهذا المنديل سلني عن قصته ، فهو نسجُ جرجان[٣] ، وعمل أرّجان ، وقع إليّ فاشتريته ، فاتخذت امرأتي بعضه سراويلاً ، واتخذت بعضه منديلاً ، دخل في سراويلها عشرون ذراعاً ، وانتزعتُ من يدها هذا القدر انتزاعاً ، وأسلمته إلى المطرّز[٤] حتى صنعه كما تراه وطرّزه. ثم رددته من السوق ، وخزنته في الصندوق ، وادّخرته للظراف من الأضياف ، لم تذلّه عرب العامّة بأيديها ، ولا النساء لمآقيها[٥] ، فلكل عِلْقٍ يوم ، ولكل آلة قوم.

يا غلام! الخُوان ، فقد طال الزمان ، والقِصاع[٦] ، فقد طال المِصاع[٧] ، والطعام ، فقد كثر الكلام. فأتي الغلامُ بالخوان ، وقلبه التاجر على المكان ، ونقره بالبنان ، وعجمه[٨] بالإسنان ، وقال: عمّر

---

(١) صدر البيت والمجلس ج دسوت.
(٢) بفتح الباء وضم اللام المشددة أو بكسر الباء وفتح اللام المشددة نوع من الزجاج.
(٣) اسم لبلدة وكذا أرّجان وهما معروفتان بجودة النسج.
(٤) طرّز الثوب زينه بالخيوط الملونة والرسوم وما شاكلها.
(٥) جمع مؤق وهو مجرى الدمع من العين أي من طرفها مما يلي الأنف ويجمع أيضاً على آماق وأمآق ومواق.
(٦) جمع قصعة وهي الصفحة التي فيها تؤكل ويجمع أيضاً على قصع وقصعات.
(٧) المقاتلة والمجالدة.
(٨) أي عضّه بالأسنان ليعلم صلابته من رخاوته.

الله بغداد فما أجود متاعها ، وأظرف صُنّاعها تأمّلْ بالله هذا الخوان ، وانظر إلى عرض متنه ، وخفّة وزنه ، وصلابة عوده ، وحسن شكله ، فقلت: هذا الشكل ، فمتى الأكل؟ فقال: الآن.

عجّل يا غلام! الطعام ، لكنَّ الخوانَ قوائمُه منه. قال أبو الفتح: فجاشت[١] نفسي ، وقلت: قد بقي الخَبْز وآلاته ، والخُبز وصفاته ، والحنطة من أين اشتَريت أصلاً ، وكيف اكترى لها حملاً ، وفي أيّ رحي طحن ، وإجّانة[٢] عجن ، وأي تنّور سجر[٣] ، وخبّاز استأجر ، وبقي الحطب من أين احتطب[٤] ، ومتى جُلب وكيف صُفّف حتى جُفّف وحُبس حتى يبس ، وبقي الخبّازُ ووصفُه والتلميذُ ونعتُه ، والدقيقُ ومدحُه ، والخميرُ وشرحه ، والملحُ وملاحتُه؛ وبقيتِ السُّكُرُّجات[٥] من اتخذها ، وكيف انتقذها[٦] ، ومن استعملها ، ومن عملها ، والخَلُّ كيف انتُقيَ عنبه ، أو اشتُري رطبه ، وكيف صُهرجت[٧] معصرته[٨] ، واستُخلص لبُّه[٩] ، وكيف قُـير[١٠] حبُّه[١١] ، وكم يساوي دنُّه[١٢]. وبقي البقـل

(١) ثارت من حزن أو غضب.

(٢) الإناء الذي يعجن الدقيق فيه ج أجاجين.

(٣) سجر التنور ملأه وقوداً وأحماه بابه نصر.

(٤) جَمَعَ الحطب.

(٥) جمع سكرجة بضم السين وسكون الكاف وضم الراء أو بضم السين والكاف وضم الرء المشددة الصحفة التي يوضع فيها الأكل.

(٦) استخلصها بالشراء من يد بائعهاأو صانعها.

(٧) أي طليت بالصاروج وهو النورة وأخلاطها.

(٨) ما يوضع فيه العنب أو الرطب للعصير.

(٩) - أراد من اللب النوى في الرطب وما يشبهه في العنب أي كيف نقى من لبه.

(١٠) طُلي بالقار وهو القطران.

(١١) بالضم الجرة الكبيرة أو الخابية ج حباب وحبَبَة وأحباب.

(١٢) الراقود العظيم لا يقعد إلا أن يحفر له ج دِنان.

كيف احتيل له حتى قُطِف[١] وفي أي مبقلة[٢] رُصِف[٣] ، وكيف تُؤنِّق[٤] حتى نُظِّف. وبقيت المضيرة كيف اشتُري لحمُها ، ووُفّي شحمُها ، ونُصبت قِدرُها ، وأُجّجت[٥] نارُها ، ودُقت أبزارها[٦] ، حتى أجيد طبخها وعُقّد[٧] مرقها ، وهذا خطبٌ يطمّ[٨] ، وأمرٌ لا يتم ، فقمتُ. فقال: أين تريد؟ فقلت: حاجة أقضيها. فقال: يا مولاي! تريد كنيفاً[٩] يزري[١٠] بربيعيّ[١١] الأمير ، وخريفيّ الوزير ، وقد جُصّص[١٢] أعلاه وصُهرج أسفله ، وسُطِّح سقفه ، وفُرشت بالمرمر أرضه ، يزلّ عن حائطه الذرّ[١٣] فلا يعلق ، ويمشي على أرضه الذباب فيزلق ، عليه باب غِيْرانُه[١٤] من خليطي ساج وعاج[١٥] ، مزدوجين أحسن ازدواج ، يتمنى الضيف أن يأكل فيه.

فقلت: كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف في الحساب ،

---

(١) قطف الثمر جناه بابه ضرب.
(٢) ما يوضع فيه البقل.
(٣) أي ضم بعضه إلى بعض.
(٤) أي كيف جرى التأنق والدقة في العمل حتى نظف ذلك البقل.
(٥) أشعلت وأضرمت.
(٦) جمع بزر وهو التابل أي ما يطيب به الغذاء جج أبازير.
(٧) عقّد المرق تعقيداً إذا أغلاه حتى غلظ.
(٨) طمّ الأمر عظم وتفاقم بابه نصر.
(٩) المستراح ج كُنف وكُنُف.
(١٠) أزراه وأزرى به عابه ووضع من حقه.
(١١) مكان الإقامة في الخلاء وقت الربيع وكذا الخريفي في الخريف.
(١٢) طلاه بالجص.
(١٣) صغار النمل.
(١٤) جمع غار أصله الأخدود بين اللحيين من الفم والمراد هنا الفواصل بين ألواح الباب.
(١٥) عظم سن الفيل.

وخرجت نحو الباب. وأسرعت في الذهاب، وجعلت أعدو وهو يتبعني ويصيح: يا أبا الفتح! المَضيرةَ. وظن الصبيان أن المضيرة لقَب لي فصاحوا صياحه، فرميت أحدهم بحجر، من فرط الضجر، فلقي رجل الحجر بعمامته، فغاص في هامته، فأُخذتُ من النعال بما قدُم وحدُث[١]، ومن الصفع[٢] بما طاب وخبُث، وحشرتُ إلى الحبس، فأقمت عامين في ذلك النحس، فنذرتُ أن لا آكل مَضيرةً ما عشتُ. فهل أنا في ذا يا آل همذان ظالم؟ . . .

قال عيسى بن هشام: فقبلنا عذره، ونذرنا نذره؛ وقلنا قديماً جنت المضيرة على الأحرار، وقدّمت الأراذل على الأخيار[٣]

* * *

(١) بفتح العين ـ أي الدال ـ لكنه إذا ذكر مع قدم ضم اتباعاً.

(٢) الضرب بالكف مبسوطة.

(٣) المقامات لبديع الزمان الهمذاني

المقَـامَـة الزبيـدِيَّـة

للحريـري(١)

أخبر الحارث بن همّام قال: لما جُبْت البيد(٢)، إلى زبيد(٣)، صحبني غلام قد كنت رَبَّيْتُه إلى أن بلغ أشدَّه، وثقَّفْتُه(٤) حتى أكمل رُشْـدَه، وكان قـد أنس بأخلاقـي، وخبر مجـالب(٥) وِفاقـي، فلم يكن

---

(١) أبو محمد القاسم بن علي البصري (٤٤٦ـ٥١٦هـ) نشأ بالبصرة وتخرج على فضلائها، واشتهر في فنون الأدب وبرز على الأقران، وكان من أوعية العلم، راوية حافظاً للأخبار والأشعار، وقد اشتهر بمقاماته حتى لا تذكر إلا انتقل الذهن إليه. وقد سحرت قلوب الناس وفتنت أنظار الأدباء وبقيت أشهر كتاب والمثال الوحيد للنثر العربي في بعض الأقطار ولها أثر بليغ في أساليب الكتاب ينسجون على منوالها ويتفاخرون بتقليدها. تمتاز كتابة الحريري بالتكلف والمبالغة في الصنعة، وترجيح جانب اللفظ على جانب المعنى، والتزام شديد للقوافي ووحدة الأسلوب، وجملة القول فأسلوبه أسلوب صناعي أجوف مموه، على أن كتاب المقامات قد تضمن ثروة أدبية ضخمة لا يستهان بقدرها فهو قاموس للمفردات الغريبة، والنوادر اللغوية، والأمثال العربية، والأحاجي النحوية. ولعل ذلك هو سر عكوف الناس عليه ودراستهم له.

(٢) جمع بيداء وهي الفلاة من الأرض.

(٣) بفتح الزاي بلدة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخاً وإليها ينسب العلامة مرتضى صاحب تاج العروس.

(٤) أي هذبته وأدّبته من ثقفت الشيء أقمت عوجه.

(٥) جمع مجلبة وهي ما يحمل على الجلب.

يتخطّى[١] مرامي[٢] ، ولا يخطىء في المرامي[٣]. لا جَرَمَ أن قُرَبَه[٤] التاطَتْ[٥] بصَفَري[٦] ، وأخلصْتُه لحَضَري وسَفَري ، فألوى[٧] به الدهر المُبيد[٨] ، حين ضمّتنا زَبيد. فلما شالت نعامَتُهُ[٩] ، وسكنت نَأْمَتُهُ[١٠] ، بقيت عاماً ، لا أُسيغ طعاماً ، ولا أُريغ[١١] غلاماً ، حتى الجأتني شوائب[١٢] الوحدة ، ومتاعب القومة والقعدة ، إلى أن أعتاضَ[١٣] عن الدُّرِ الخَرَز[١٤] ، وارتاد[١٥] من هو سداد من عوز[١٦] ، فقصدتُ مَنْ يبيعُ العبيد ، بسوق زَبيد ، فقلت: أريد غلاماً يُعجبُ إذا قُلّب[١٧] ، ويُـحْمَدُ

---

(١) يتجاوز.

(٢) المرام المقصد.

(٣) جمع مرمى وهو الغرض.

(٤) جمع قربة وهي ما يتقرب به إلى الله تعالى من أفعال البر والطاعة ويجمع أيضاً على قربات.

(٥) التصقت.

(٦) بفتحتين لب القلب، العقل يقال: «لايلتاط هذا بِصَفَري» أي لا يلصق به ولا تقبله نفسي.

(٧) أهلكه.

(٨) المُهْلِك.

(٩) أي مات وهو من الكناية يقال: «شالت نعامة القوم» إذا تفرقوا وارتحلوا أو ذهب عزهم أو ماتوا وشالت أي ارتفعت والنعامة باطن القدم وهي ترتفع عند الموت.

(١٠) حركتُه التي تنمو بحياته وأصلها صوت الأسد أو غيره.

(١١) لا أطلب.

(١٢) جمع شائبة وهي الأخلاط والأكدار.

(١٣) استبدل.

(١٤) فصوص من حجارة.

(١٥) أطلب.

(١٦) الحاجة والضيق.

(١٧) فُتّش.

إذا جُـرّب ، وليكن ممّن خَـرَّجَه[١] الأكياس[٢] ، وأخرجه إلى السوق الإفلاس ، فاهتزَّ كلٌّ منهم لمطلبي ووثَب ، وبذل تحصيله عن كثب[٣] ، ثم دارت الأهلّة دورَها ، وتقلّبت كَوْرَها[٤] ، وحَوْرَها ، ومانجز[٥] من وعودهم وعد ، ولا سحَّ[٦] لها رعد[٧]

فلما رأيت النخّاسين[٨] ، ناسين أو متناسين ، علمت أن ليس كُلُّ مَنْ خلَقَ[٩] يفري[١٠] ، وأن لن يحكّ جلدي مثلُ ظفري[١١] ؛ فرفضت مذهب التفـويـض[١٢] ، وبـرزت إلـى السـوق بـالصفـر والبيـض[١٣] ، فـإنـي لأستعرض[١٤] الغلمان ، وأستعرف الأثمـان ، إذ عـارضني[١٥] رجل قد

(١) أي ممن علّمه ودرّبه.
(٢) جمع كيِّس بتشديد الياء المكسورة وهو الفَطن والحسن الفهم والأدب ويجمع أيضاً على كيسى.
(٣) أي عن قرب.
(٤) أي تمامها ونقصانها من قولهم نعوذ بالله من الحور بعد الكور.
(٥) أي ما حصل وما انقضى بابه نصر.
(٦) سحّ كنصر سحّا وسحوحاً سال وانصب غزيراً.
(٧) هذه الجملة كناية عن عدم وفاء ما وعدوه به.
(٨) الدلالين في الرقيق.
(٩) خلق الشيء كنصر خلقاً وخلقة صنعه وقدره.
(١٠) يقطع بابه ضرب يريد أن ليس من وعد يفي أو ليس كل الناس يقضي الحوائج.
(١١) هذا مثل يضرب في ترك الاتكال على الناس وأن الإنسان هو الذي يخدم نفسه ويقوم بحاجته.
(١٢) التسليم للغير.
(١٣) أي الدنانير والدراهم.
(١٤) أطلب عرضهم عليّ.
(١٥) أي قابلني.

اختَطَم[١] بلثام[٢] ، وقبض على زَنْد[٣] غلام ، وقال:

من يشتري منّي غلاماً صَنَعا[٤] ... فـي خَلْقـه وخُلْقـه قـد بـرعـا
بكـل مـا نُطْـتَ[٥] بـه مُضطلِعـا[٦] ... يشفيك إنْ قال وإنْ قلتَ وَعَى[٧]
وإنْ تُصِبْـكَ عَثـرةٌ يَقُـلْ لَعـا[٨] ... وإن تَسُمْه[٩] السَّعيَ في النار سعى
وإنْ تُصـاحبْـهُ ولـو يـومـاً رعـى ... وإن تُقَنّعْـهُ بظِلْـفٍ[١٠] قَنِعـا
وهو على الكَيْس الذي قد جَمعا ... مـا فـاهَ قـطُّ كـاذبـاً ولا ادّعـى
ولا أجـابَ مطمعـاً حيـن دعـا ... ولا استجازَ[١١] نَثَّ[١٢] سِرٍّ أُوْدِعا
وطـالمـا أَبـدعَ فيمـا صَنعـا ... وفاقَ في النثر وفي النظم معا
والله لـولا ضَنْـكُ عيـشٍ صَـدَعـا ... وصِبْيَـةٌ أَضْحَـوْا عُـراةً جُـوَّعـا

ما بعتُه بمُلْكِ كِسْرى أَجْمَعا

قال: فلما تأمّلت خَلقه القويم ، وحسنه الصميم[١٣] ، خلته من ولدان جنّة النعيم ، وقلت: ما هذا بشراً إن هذا إلاّ ملك كريم. ثمّ استنطقته عن

---

(١) جعل على خطمه وهو الأنف.
(٢) ما كان على الأنف وما حوله من ثوب أو نقاب ج لُثُم.
(٣) الساعد من اليد ج زناد وأزند وأزناد.
(٤) الحاذق بالصناعة.
(٥) علقته به.
(٦) القوي.
(٧) فهم وحفظ.
(٨) سلمت ونجوت وهي كلمة تقال للعاثر معناها أقال الله تعالى عثرتك وسلمك ونجاك.
(٩) أي أن تكلفه.
(١٠) هو لما اجترّ من الحيوانات كالبقرة والظبي بمنزلة الحافر للفرس ج ظلوف وأظلاف.
(١١) استحل.
(١٢) نشر السِّرّ.
(١٣) الخالص.

اسمه ، لا لرغبة في علمه ، بل لأنظرَ أين فصاحتُه من صباحته ، وكيف لهجته من بهجته ، فلم ينطق بحلوةٍ ولا مُرَّة[١] ، ولا فاه فوهةَ ابنِ أمةٍ ولا حُرَّة ، فضربتُ عنه صَفْحاً[٢] ، وقلت له قُبْحاً لِعيّك وشُقْحاً[٣] ، فغارَ[٤] في الضحك وأنْجد[٥] ، ثم أنْغَضَ[٦] رأسَه إليّ وأنشد:

يا من تَلَهّبَ غيظُهُ إذ لم أبُحْ[٧]	باسمي له ما هكذا من يُنصِفُ
إن كـانَ لا يُـرضيـكَ إلا كشفُـه	فأصِخْ[٨] له أنا يوسفُ[٩] أنا يوسُفُ
ولقد كشفتُ لكَ الغطاء فإن تكن	فَطِناً عرفتَ ولا إخالُكَ[١٠] تَعِرفُ

قـال: فَسَرَّي[١١] عَتْبي بشعـره ، واستبى[١٢] لُبّي بسحـره حتى شُدِهتُ[١٣] عن التحقيق ، وأُنسيت قصةَ يوسفَ الصدّيق ، ولم يكن لي

(١) أي بكلمة حسنة ولا قبيحة.
(٢) أي أعرضت وملت عنه جانباً.
(٣) أي بعدا وقيل هو اتباع لقبحاً وهو من شقح البسر إذا تغيرت خضرته بحمرة أو صفرة وقيل من شقحت العود إذا كسرته وقبحاً وشقحاً بضم أولهما وفتحه.
(٤) اتى الغور وهو ما انخفض من الأرض.
(٥) أتى النجد وهو ما ارتفع من الأرض أي بالغ في الضحك حيث خفض رأسه مرة ورفعه أخرى.
(٦) حركه متعجباً على سبيل الاستهزاء ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥١]
(٧) لم أظهر.
(٨) استمع.
(٩) يعني أنا حر لا يجوز بيعي يشير به إلى بيع يوسف الصديق على نبينا وعليه الصلاة والسلام.
(١٠) أظن والقياس أخال بفتح الهمزة والكسر أفصح.
(١١) أي أذهب غيظي من سروت عنه الثوب إذا نزعته.
(١٢) أي ملك قلبي وأسره.
(١٣) تحيرت.

هَمٌّ إلا مساومةَ مولاه فيه ، واستطلاع طِلْع[١] الثمن لأوفّيه ، وكنت أحسبُ أنه سينظر شزراً[٢] إليّ ، ويُغْلي السِّيمةَ[٣] عليّ ، فما حَلَّق[٤] إلى حيث حَلّقت ، ولا اعتلقَ بما به اعتلقت ، بل قال: إن الغلام إذا نَزُرَ[٥] ثمنُه ، وخفّت مُؤَنُه[٦] ، تبرّكَ به مولاه ، والتحف[٧] عليه هواه ، وإنّي لأوثر تحبيبَ هذا الغلام إليك ، بأن أُخفّفَ ثمنَه عليك ، فزنْ مئتي درهم إن شئت ، واشكر لي ما حييت ، فنقدتُه المبلغَ في الحال ، كما يُنْقَدُ في الرخيص الحلال ، ولم يخطر لي ببال ، أنّ كل مرخَّصٍ غال. فلما تحققتِ الصفقة[٨] ، وحقتِ الفرقة ، هَمَلَتْ[٩] عينا الغلام ، ولا هُمول دَمْع الغَمام[١٠] ، ثم أقبل على صاحبه وقال:

لحـاكَ[١١] اللهُ هـل مثلـي يبـاعُ لكيمـا تَشْبَـعَ الكَـرِشُ[١٢] الجيـاعُ
وهل في شِرعة[١٣] الإنصاف أنّي أُكَلَّـفُ خُطَّـةً[١٤] لا تُستطـاعُ
وأنْ أُبلَـي بـرَوْعٍ بعـدَ رَوْعٍ ومثلـي حيـنَ يُبْلَـى لا يُـراعُ

(١) القدر.
(٢) النظر بجانب العين مع إعراض أو غضب.
(٣) القيمة.
(٤) دار وحام من قولهم حلّق الطائر إذا ارتفع في طيرانه أي لم يحم حول ما خطر بفكري.
(٥) نزر ككرم نزراً قلّ.
(٦) جمع مؤنة الشدة والثقل.
(٧) اشتمل.
(٨) البيعة.
(٩) هملت كنصر وضرب هملا وهملاناً وهمولاً عينه فاضت دموعاً.
(١٠) أي المطر.
(١١) قبحك ولعنك.
(١٢) بفتح الكاف وكسر الراء عيال الرجل من صغار ولده-يقال جاء يجر كرشه أي عياله ج إكراش وكروش.
(١٣) الطريقة إلى الماء ج شِرَع وشَرْع وشِرَع وشِراع.
(١٤) الأمر ج خطط.

أمـا جَـرّبتنـي فخبَـرْتَ منـي | نصـائـحَ لـم يُمَـازِجْهـا خِـداعُ
وكـم أرصَـدْتَنـي شـركـاً لصيـدٍ | فعُـدْتُ وفـي حبـائِلـيَ السِّبـاعُ
ونُطْتَ بيَ المصاعبَ[١] فاستقادَتْ[٢] | مطـاوِعَـةً وكـان بهـا امتنـاعُ
وأيّ كـريهـةٍ[٣] لـم أُبْلِ[٤] فيهـا | وغُنْمٍ[٥] لم يكن لي فيه باعُ[٦]
ومـا أبـدتْ لـيَ الأيـامُ جُـزمـاً | فيُكشَـفَ فـي مُصـارمتـي القِنـاعُ
ولـم تَعْثُـرْ[٧] بحمـدِ الله منـي | علـى عَيْـبٍ يُكتّـم أو يُـذاعُ
فَـأنّـي سـاغَ عنـدكَ نَبْـذُ عَهْـدي | كما نَبذَتْ بُرايتَها[٨] الصَّناعُ[٩]
ولِمْ سَمَحَتْ قرونُكَ[١٠] بامتهاني؟[١١] | وأن أُشْـرى كمـا يُشْـرى المتَـاعُ
وهلاّ صنتَ عرضي عنه صَوْني | حـديثـكَ يـومَ جـدَّ بنـا الـوَداعُ
وقلـتَ لمـن يسـاومُ فـيَّ هـذا | سكـابِ[١٢] فمـا يُعـارُ ولا يُبـاعُ
فما أنا دونَ ذاكَ الطِرْفِ[١٣] لكنْ | طِبـاعُـكَ فـوقَهـا تلـك الطِّبـاعُ

---

(١) جمع مُصْعَب وهوالفحل والمراد هنا الشدائد.
(٢) انقادت.
(٣) الحرب.
(٤) أبلى في الحرب أظهر فيها جلادته.
(٥) الغنيمة.
(٦) المراد هنا البطش أو الحظ.
(٧) عثر كنصر عثراً وعثوراً على السر وغيره اطلع عليه.
(٨) ما يلقى من الشيء الذي يصنع وما ينحت من الأديم والقلم عند بريه.
(٩) المرأة الحاذقة بالصنعة.
(١٠) نفسك.
(١١) أي بإذلالي وأصل المهنة الخدمة والماهن الخادم.
(١٢) مبني على الكسر اسم فرس لرجل من بني تميم طلبه منه بعض الملوك فمنعه إياه وأنشد:
أبيتَ اللعنَ إن سَكابِ عِلْقٌ | نفيسٌ لا يُعارُ ولا يُباعُ
(١٣) الفرس الكريم ج طروف وأطراف يريد أني لست أقل من ذلك الفرس الذي منعه صاحبه من طلب الملك لكن طباع صاحبه فوق طباعك حيث كان يؤثره على جميع عياله.

علـى أنّـي سـأُنشـدُ عنـدَ بيعـي «[١]أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا»

قال: فلما وَعَى الشيخُ أبياتَه ، وعَقَلَ مناغاتَه[٢] ، تنفّسَ الصُّعَداء ، وبكى حتى أبكى البُعَداء ، ثم قال لي: إني أُحِلُّ هذا الغلامَ محلَّ ولدي ، ولا أميّزُه عن أفلاذ[٣] ، كبدي ، ولولا خُلُوُّ مراحي[٤] وخُبُوُّ مِصْباحي ، لما دَرَجَ عن عُشِّي[٥] ، إلى أن يُشَيِّعَ نَعْشي ، وقد رأيتَ ما نزلَ به من لوعَةِ البين[٦] ، والمؤمن هَيْنٌ لَيْن[٧] ، فهل لكَ في تَسْلية قلبه ، وتَسْريةِ[٨] كَرْبه ، بأنْ تُعاهدَني على الإقالةِ فيه متى استَقَلْتُ[٩] ، وأن لا تَسْتَثْقِلَني إذا ثَقَلْتُ ، ففي الآثار المُنتقاة[١٠] ، المروية عن الثقات ، من أقال نادماً بَيْعَتَه ، أقالَهُ اللهُ عَثْرَتَه .

قال الحارث بن هَمَّام: فوعدتُه وعداً أبرزَهُ الحياء ، وفي القلب أشياء ، فاسْتَدْنَى حينئذٍ الغلام إليه ، وقَبَّـلَ ما بينَ عَيْنَيْه ، وأنشدَ والدمعُ يرفضُّ[١١] من جَفْنَيْه:

خَفِّضْ[١٢] ـ فَدَتْكَ النفسُ ـ ما تلاقي مـن بُـرَحـاءِ الـوَجْـدِ والإشفـاقِ

---

(١) أي لم يعرفوا قدري وهذا شطر بيت للعَرْجيِّ وتمامه:
أضـاعـونـي وأي فتـى أضـاعـوا ليـوم كـريهـة وسـداد ثغـر
(٢) الكلام وأصل المناغاة تكليم الطفل الصغير بما يسره ويعجبه كما تفعل الأمهات بأولادها.
(٣) جمع فلذة بالكسر وهي القطعة.
(٤) المنزل.
(٥) استعار به عن البيت أي ما خرج من بيتي.
(٦) حرقة الفراق.
(٧) سهل الأخلاق.
(٨) الإزالة.
(٩) أي طلبت الإقالة وهي فسخ البيع.
(١٠) المختارة.
(١١) يترشّش ويتفرق.
(١٢) أي هوّن عليك.

فمـــا تطـــولُ مُـــدَّةُ الفـــراقِ ولا تَنـي[١] ركـائـبُ التَّـلاقـي
بحُسنِ عَوْنِ القادرِ الخلاّقِ

ثم قال له: استودعُكَ مَنْ هو نِعْمَ المولى، وشَمَّرَ ذيلَهُ وولَّى. فلبث الغلامُ في زَفيرٍ[٢] وعَويلٍ[٣]، رَيْثَمَا يقطعُ مدَى ميلٍ[٤]، فلما استفاق[٥]، وكفكف[٦] دمعه المهراق[٧]، قال: أتدري لم أَعْوَلْتُ[٨]؟ وعلاَم عَوّلتُ[٩]؟ فقلت: أظنُّ فراقَ مولاك، هو الذي أبكاك، فقال: إنك لفي وادٍ وأنا في وادٍ[١٠]، ولكم بين مُريدٍ ومُراد، ثم أنشد:

لم أبكِ ـ واللهِ ـ على إلْفٍ[١١] نَزَحْ[١٢] ولا علـى فَـوْتِ نَعيـمٍ وَفَـرَحْ
وإنّما مدمعُ أجفاني سَفَحْ[١٣] على غَبيٍّ لحظُهُ حين طَمَحْ[١٤]
وَرَّطَـهُ[١٥] حتـى تَعنَّـى[١٦] وافتضـحْ وضَيَّعَ المنقوشَةَ[١٧] البيضَ الوَضَحْ[١٨]

---

(١) لا تفتر ولا تضعف من وني يني.

(٢) إخراج النفس بشدة.

(٣) البكاء بصياح.

(٤) هو مدّ البصر وقيل ثلاثة آلاف ذراع.

(٥) أفاق.

(٦) منع وغيض.

(٧) المنصب.

(٨) صحت بالبكاء.

(٩) عزمت واعتمدت.

(١٠) مثل يضرب في اختلاف المقاصد أي بيني وبينك بون بعيد.

(١١) المحبوب ج آلاف.

(١٢) بُعد.

(١٣) سال.

(١٤) ارتفع بصره ونظر شديداً

(١٥) أوقعه في ورطة وهي الهلكة وكل أمر تعسر النجاة منه.

(١٦) تعب.

(١٧) أي الدراهم.

(١٨) حلي من فضة والجمع أوضاح وفي الصحاح الوضح الدرهم الصحيح والوضح البياض.

ويكَ أما ناجَتْكَ هاتيكَ المُلَحْ[١] بـأنّـي حـرٌّ وبَيْعـي لـم يُبَـحْ

إذْ كانَ في يوسفَ معنًى قد وَضَحْ

قال: فتمثّلت[٢] مقاله في مِرْآة المُداعِب[٣]، ومَعْرِضِ المُلاعب، فتصلَّبَ تصلُّبَ المُحِق، وتبَرَّأ من طِينة الرّق[٤]، فجلنا في مخاصَمَة، اتصلت بملاكمة[٥]، وأفضت[٦] إلى محاكمة[٧]. فلما أوضَحْنا للقاضي الصُّورة، وتلونا عليه السُّورة[٨]، قال: ألا إن من أَنْذَر، فقد أَعْذَر[٩]، ومن حَذَّر، كَمَن بَشَّر، ومن بَصَّر، فما قَصَّر، وإن فيما شرحتماه لدليلاً على أنَّ هذا الغلام قد نَبَّهكَ فما ارعَوَيْت[١٠]، ونصح لك فما وَعَيْت[١١]، فاستُرْ داءَ بَلَهِكَ واكتمه، ولُم نفسكَ ولا تلمهُ، وحَذارِ[١٢] من اعتلاقِه[١٣] والطَّمَع في استرقاقِه، فإنه حرُّ الأَديم[١٤]، غير مُعرَّضٍ للتقويم[١٥]، وقد كان أبوه أحضَرَه أمس، قبيل أُفولِ[١٦] الشَّمْس،

(١) جمع مُلحة وهي من الأحاديث ما لذ واستملح منها.
(٢) تصورت.
(٣) الممازح من الدعابة وهي المزاح.
(٤) أي استنكف وتحاشى عن كونه رقيقاً.
(٥) من اللكم وهو الضرب بجمع الكف.
(٦) وصلت.
(٧) هي الذهاب إلى الحاكم.
(٨) أي الواقعة.
(٩) صار معذوراً.
(١٠) أي فما انتبهت ولا انكففت.
(١١) أي فما أدركت وما التفت لنصيحته.
(١٢) مبني على الكسر اسم فعل بمعنى احذر.
(١٣) أي إمساكه.
(١٤) الجلد والمراد ليس به شائبة رق.
(١٥) أي لجعله ذا قيمة كالمبيعات.
(١٦) الغروب.

واعترف بأنه فرعُه الذي أنشأه[١] ، وأن لا وارثَ له سواه.

فقلت للقاضي: أو تعرف أباه ، أخزاه الله! فقال: وهل يجهلُ أبو زيد الذي جرحه جُبار[٢] ، وعند كل قاض له أخبار وإخبار؟ فتحرَّقْتُ حينئذ وحَوْقَلْتُ[٣] وأفقت ولكن حين فاتَ الوقت ، وأيقنتُ أن لثامه كان شَرَكَ مكيدتهِ ، وبيتَ قصيدَتِهِ[٤] ، فنكَّسَ[٥] طَرفي ما لَقيت ، وآليتُ أن لا أعاملَ مُلثّماً ما بقيت ، ولم أزل أتأوّه[٦] لخُسر صَفْقَتي ، وافتضاحي بين رُفْقَتي.

فقالَ ليَ القاضي ، حينَ رأى امتعاضي[٧] ، وتبيّن حَرَّ ارتماضي[٨] ، يا هذا! ما ذهب من مالك ما وعظَكَ[٩] ، ولا أَجْرَمَ إليك من أيقظَـكَ ، فاتّعـظْ بما نَابَـك. وكاتِمْ أصحابَـكَ ما أصابَـكَ ، وتذكَّرْ أبداً ما دهَمَك ، لِتَقِيَ الذكرى دراهمَك ، وتخلَّقْ بخُلُق مَنْ ابتُليَ فَصَبَر ، وتَجَلَّتْ له العِبَـرُ فاعْتَبَر.

قال الحارث بن همّام: فَوَدَّعتُه لابساً ثوبَ الخَجَلِ والحُزْن ، ساحباً

---

(١) يعني أنه ابنه الذي ولده.

(٢) الهدر في الحديث جرح العجماء جبار أي هدر لا قصاص فيه.

(٣) أي قلت لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(٤) بيت القصيدة مثل يضرب في النادر العزيز.

(٥) طأطأه من ذل.

(٦) أتوجع.

(٧) القلق والتحرق وقيل الغضب.

(٨) الاحتراق والمراد حرقة توجعي يقال رمضت قدمه احترقت من الرمضاء وهي الحجارة التي اشتد عليها وقع الشمس فحميت وارتمض فلان كذا اشتد عليه غضبه.

(٩) هذا مثل يضرب ومعناه الذي ذهب من مالك يحذرك أن يذهب منك غيره فتوجعك وندامتك تدعو إلى الحرص عليه فيكون بقاؤه لك عوضاً مما ذهب منك.

ذَيْلَي الغَبْن والغَبَن[١] ، ونويت مكاشفةَ أبي زيد بالهَجْر ، ومصارمته[٢] يد الدَّهر[٣] ، فجعلت اتنكّبُ[٤] عن ذراه[٥] ، وأتجنَّبُ أنْ أراه ، إلى أن غشيني[٦] في طريق ضيّق ، فحيّاني تحيّة[٧] شَيّق ، فما زدتُ على أن عَبَسْتُ ، وما نَبَسْتُ[٨] ، فقال: ما بالكَ؟ شَمَخْتَ[٩] بأنفك على إلفك[١٠] ، فقلت: أنسيتَ أنّكَ احتلتَ وخَتَلْتَ[١١] ، وفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَـلْـتَ؟ فأَضْـرَطَ[١٢] بي مُـتَهازياً[١٣] ، ثم أنشد مُتلافياً[١٤] :

يـــا مَـــنْ بـــدا منـــه صُـــدو دٌ[١٥] مُـــوحِـــشٌ وَتَجَهُّـــمُ[١٦]

---

(١) الأول باسكان الموحدة وهو البيع بأزيد من القيمة والثاني بفتحها وهو ضعف العقل.

(٢) المقاطعة.

(٣) اي مدة نعمة الدهر وهي الحياة إلى آخر العمر.

(٤) أي أعدل وأتباعد.

(٥) منزله وبيته.

(٦) لقيني وقابلني.

(٧) سلام مشتاق شديد الحب.

(٨) ما تكلمت وأكثر استعمال هذا اللفظ في النفي.

(٩) شمخ كفتح شمخاً وشموخاً أنفه وبأنفه رفعه اعتزازاً وتكبراً.

(١٠) محبوبك.

(١١) خدعت بابه نصر وضرب.

(١٢) أي سخر مني وأصله أن يضع الشخص ظهر يده على فمه وينفخ فيخرج صوت كصوت الضرطة.

(١٣) الساخر.

(١٤) متداركاً ما فات.

(١٥) الإعراض.

(١٦) تجهمه وتجهم له استقبله بوجه عبوس كريه.

وغـدا يَسريـش[١] مَـلاومـاً[٢] مـن دونهـنَّ الأسهـمُ
ويقـوَلُ هـل حُـرٌّ يُبـا عُ كمـا يُبـاعُ الأَدْهَـمُ[٣]
أَقْصِـرْ[٤] فمـا أنـا فيـه بِـدْ عـاً مثـلَ مـا تتَـوَهَّـمُ
قـد بـاعَـتِ الأَسبْـاطُ[٥] قَبْلي يـوسُفـاً وهُـمُ هُـمُ
هـذا وأُقْسِـمُ بـالّتـي[٦] يَسْـري إليهـا المُتْهِـمُ[٧]
والطّـائفيـن بهـا وهُـمْ شُعْـثُ[٨] النَّـواصـي سُهَّـمُ[٩]
مـا قمـتُ ذاكَ المـوقـفَ الـ مُخـزي وعنـدي دِرْهَـمُ
فـاعـذُرْ أخـاكَ وكُـفَّ عنـ ـه مَـلامَ مَـنْ لا يَفْهَـمُ

ثم قال: أمّا معذرتي فقد لاحَتْ، وأمّا دراهمكَ فقد طاحَتْ[١٠]، فإن كان اقشعرارك[١١] منّي، وازورارك[١٢] عنّي، لفرط شفقتك، على غُبَّرِ[١٣] نفقتك، فلستُ ممّن يلسع[١٤] مرتين، ويوطىء على جمرتين،

---

(١) أصله وضع الريش على السهم وأراد أنه يهيىء له الكلام المؤلم.
(٢) جمع ملامة.
(٣) الأسود والمراد الفرس الأسود أو العبد الأسود.
(٤) كف عن اللوم.
(٥) كالقبائل وهم أولاد سيدنا يعقوب ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ سيدنا يوسف وإخوته.
(٦) أراد الكعبة شرفها الله.
(٧) الذاهب إلى تهامة.
(٨) جمع أشعث أي المغبّر والمتلبّد.
(٩) جمع ساهم ذابل الشفتين هزالاً وقيل الساهم المتغير الوجه من وهج الشمس.
(١٠) ذهبت وفنيت.
(١١) الانقباض.
(١٢) الميل.
(١٣) جمع غابر غبّر الشيء بقاياه.
(١٤) يلدغ وقيل اللسع لذوات الإبر واللدغ بالفم فالعقرب تلسع والحية تلدغ وهذا اقتباس من حديث مرفوع «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين».

وإن كنـتَ طـويـتَ[١] كشحـكَ ، وأطعـت شُحَّـك ، لتستنقـذ مـا عِلَـق بأشراكي ، فلتبك على عقلك البواكي .

قال الحارث بن همّام : فاضطّرني بلفظه الخالب ، وسحره الغالب ، إلى أن عُذْتُ له صفيّا ، وبه حَفيّاً[٢] ، ونَبَذْتُ فَعْلَتَه ظِهْرِياً[٣] ، وإن كانت شيئاً فريّاً[٤] [٥]

* * *

(١) أي أعرضت .

(٢) العطوف المبالغ في الإكرام .

(٣) أي خلف ظهري منسيّة وكسر الظاء من تغييرات النسب .

(٤) أي أمراً عظيماً .

(٥) المقامات للحريري .

عتـابٌ وَتـأنيب

للقاضي الفاضل[١]

اتصل بالقاضي الفاضل أن أخاه عبد الكريم نال الأمير علم الدين بن النحاس بأذى وجفاء. فكتب إليه يؤنّبه[٢]:

سبب إصدار هذه المكاتبة إلى الأخ ـ أصلحه الله ـ إعلامه ما صحَّ عندي من الأحوال التي أخفاها والله مبديها في حق الأمير علم الدين، وبالله أقسم لئن لم تداو ما جرحتَ وتستدرك[٣] ما فعلتَ، وتمحُ ما أثبتَّ، وتستأنف ضدَّ القبيح الذي كتبتَ به وشافهتَ[٤]، وتعتذر

(١) هو أبو علي عبد الرحيم البيساني العسقلاني (٥٢٩ ـ ٥٩٦هـ) تعلم كتابة الدواوين في مصر ودخل ديوان قاضي الإسكندرية وامتاز بنبوغه، فاشتغل في ديوان الظافر في القاهرة؛ وقامت الدولة الأيوبية فكان وزيراً لصلاح الدين ومدبر ملكه وصاحب سره، وكذلك كان لولده ثم لأخيه حتى توفي.
القاضي الفاضل من أبطال الطريقة العميدية ومجددها ـ طريقة الصناعة والتكلف والاسجاع والقوافي ـ وزاد عليها الإغراق في التورية والجناس وكان له التأثير في الكتابة في عصره وبعد عصره ما كان لعبد الحميد الكاتب وابن العميد لوظيفتهم ومنصبهم ولم تزل مؤثرة عند الأدباء حتى فقدت مكانتها بتأثير ابن خلدون ومقتضيات العصر الجديد على أنه لا تزل منها بقية. وهذه الرسالة البليغة على غير طريقته العادية.

(٢) يوبخه.

(٣) تصلح ما فات.

(٤) خاطبت مواجهة.

بالجميل فيما قاطعت الله به وبارزت ، ليكونن الحديث مني بغير الكتب ، ولأزيلن السبب الذي قدرت به على مضرة الأصحاب ، وما أشد معرفتي بأن الطبَاع لا تتغير ، وبأنك ستحوجني بعد هذا الكتاب إلى ما لا يتأخر ، وبالجملة فاستدرك بفعلك لا بأيمانك لي وتنصّلك[١] إليّ :

فالدم في النصل شاهد عجب

وويل لمن كانت غنيمته من الأيام عقد القلوب على البغضاء، وإطلاق الألسنة بالمذام[٢] . ولولا أنني شريكك في كل ما تستوجبه من الناس لألقيتُ حبلك على غاربك[٣] ، وتركتك وما اخترتَ لنفسك ولكن :

كيف بمن يرمي وليس برامي

لكنَّ سكوت الناس عن قبيحك مقابلة لجميل كثير مني ، فإذا أنت لا تنفق إلا من كيسي ، فأَشفق على نفسك إن كنتَ تنظر في غد ، وعلى بيتك إن كنت تنظر في أمس ، وعلى مكانك مني إن كنت لا تنظر إلا في اليوم ، ولا تجاوبني إلا بلسان الرجل شاكراً لك فإنه وإن كان والله ما ذمّك فقد ذممتك به عنه .

وما أظن أنك تذكر أنني كتبت إليك كتاباً ولا كنت أؤثره ، ولولا حافز[٤] غيظ ما كتبته ، ولولا علمي أن الكثير مما قيل عنك في أمر الرجل هو القليل مما فعلته لأضربت عن هذا كما أضربت عن غيره ، وستعرّفك الأيام ما كنتَ تجهل ، والله يأخذ بناصيتك إلى رضاه ، ويغمد سيف حليلتك عن مقتلك ، والسلام![٥]

* * *

(١) تنصّل إلى فلان من الجناية أي خرج وتبرأ عنده منها.
(٢) جمع مذمّة.
(٣) الكاهل أو ما بين الظهر أو السنام والعنق ، والغارب أعلى كل شيء ج غوارب.
(٤) الدافع.
(٥) كمال الدين بن العديم العقيلي في تذكرته.

وصفُ مجالِس ابنْ الجوزي[(١)]

لابن جبير الأندلسي[(٢)]

ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحد جمال الدين أبي الفضائل بن عليّ الجَوزي بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقي وفي آخره على اتصال من قصور الخليفة وبمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقي ، وهو يجلس به كل يوم سبت ، فشاهدنا مجلس رجل ليس من عَمْرو ولا زَيْد ، وفي جوف الفرا كل الصيد[(٣)] آية الزمان ، وقرة عين الإيمان ، رئيس الحنبلية ، والمخصوص في العلوم

---

(١) مرت ترجمته في الجزء الأول.

(٢) هو محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي (٥٤٠ ـ ٦١٤هـ) سمع من أبيه بشاطبة ، ومن أبي عبد الله الأصيلي وأبي الحسن بن أبي العيش وأخذ عنه القراءات ، وعني بالآداب فبلغ الغاية فيها وتقدم في صناعة القريض وصناعة الكتابة ونال بها دنيا عريضة ثم رفضها وزهد فيها ، وحدث بكتاب الشفاء عن أبي عبد الله محمد بن عيسى التميمي السبتي عن القاضي عياض وتوجه إلى الحج ودخل بغداد والشام وسمع بهما ، وقدم مصر فسمع منه الحافظان أبو محمد المنذري والحافظ أبو الحسين يحيى بن علي القرشي وصنف الرحلة المشهورة وذكر ما شاهده من عجائب البلدان وغرائب المشاهد وبدائع المصانع وهو كتاب مؤنس ممتع.

(٣) مقتبس من المثل السائر «كل الصيد في جوف الفرا» الفرا حمار الوحش. أصل المثل أن ثلاثة رجال خرجوا يصطادون ، فاصطاد أحدهم أرنباً والآخر ظبياً والثالث حمار وحش. فاستبشر الأولان وتطاولا فقال الثالث: كل الصيد في جوف الفرا أي أنه أعظم الصيد فمن ظفر به أغناه عن كل صيد.

بالرتب العلية ، إمام الجماعة ، وفارس حلبة[١] هذه الصناعة ، والمشهود له بالسبق الكرم في البلاغة والبراعة ، مالك أزمّة الكلام في النظم والنثر ، والغائص في بحر فكره على نفائس الدر ، فأما نظمه فرضيُّ الطباع ، مهياري الانطباع[٢] وأما نثره فيصدع بسحر البيان ، ويعطل المثل بقسّ وسحبان[٣] ومن أبهر آياته وأكبر معجزاته أنه يصعد المنبر ويبتدىء القراء بالقرآن وعددهم نيف على العشرين قارئاً فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب وتشويق ، فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية. ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات إلى أن يتكاملوا قراءة وقد أتوا بآيات مشتبهات لا يكاد المتقد الخاطر يحصلها عدداً أو يسميها نسقاً. فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن في إيراد خطبته عجلاً مبتدراً ، وأفرغ في أصداف الأسماع من ألفاظه درراً ، وانتظم أوائل الآيات المقروءات في أثناء خطبته. فقرأ وأتى بها على نسق القراءة لها لا مُقدماً ولا مؤخراً. ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها ، فلو أن أبدع مَنْ في مجلسه تكلّف تسمية ما قرأ القُرّاء آية آية على الترتيب لعجز عن ذلك فكيف بمن ينتظمها مرتجلاً ويورد الخطبة الغراء بها عجلاً ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]. فحدث ولا حرج عن البحر! وهيهات ليس الخَبر عنه كالخُبر[٤]. ثم أنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها

---

(١) الحلبة بالتسكين خيل تجمع للسباق من كل أوب لا تخرج من اصطبل واحد.

(٢) لعله منسوب إلى الشريف الرضي صاحب نهج البلاغة ، ومهياري الانطباع منسوب إلى أبي الحسين مهيار بن مرزويه الكاتب الفارسي الديلمي كان مجوسياً فأسلم ويقال إن إسلامه كان على يد الشريف الرضي وعليه تخرج في نظم الشعر وكان شاعراً جزل القول.

(٣) قس بن ساعدة الأيادي أسقف نجران ، وكان أحد حكماء العرب. وسحبان اسم رجل من وائل كان لسنا بليغاً يضرب به المثل في البيان.

(٤) كالخبر بالضم أي الاختبار بالمشاهدة.

القلوب اشتياقاً ، وذابت بها الأنفس احتراقاً ، إلى أن علا الضجيج ، وتردد بشهقاته النشيج ، وأعلن التائبون بالصياح ، وتساقطوا عليه تساقط الفراش[١] على المصباح . كل يلقي ناصيته بيده فيجزها ويمسح على رأسه داعياً له ، ومنهم من يغشى عليه فيرفع في الأذرع إليه فشاهدنا هولاً يملأ النفوس إنابة وندامة ، ويذكرها هول يوم القيامة ، فلو لم نركب ثبج[٢] البحر ، ونعتسف[٣] مفازات[٤] القفر ، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة ، والوجهة المفلحة الناجحة . والحمد لله على أن منّ بلقاء من يشهد الجمادات بفضله ، ويضيق الوجود عن مثله . وفي أثناء مجلسه ذلك يبتدرون المسائل وتطير إليه الرقاع فيجاوب أسرع من طرفة عين وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل . والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء لا إله سواه .

ثم شاهدنا مجلساً ثانياً له بكرة يوم الخميس الحادي عشر لصفر بباب بدر في ساحة قصور الخليفة ومناظره مشرفة عليه . وهذا الموضع المذكور هو من حرم الخليفة ، وخص بالوصول إليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم ، ويفتح الباب للعامة فيدخلون إلى ذلك الموضع وقد بُسط بالحصر ، وجلوسه بهذا الموضع كل يوم خميس . فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس المذكور ، وقعدنا إلى أن وصل هذا الحبر المتكلم ، فصعد المنبر وأرخى طيلسانه[٥] عن رأسه تواضعاً لحرمة المكان ، وقد تسطر القراء أمامه على كراسي موضوعة . فابتدروا القراءة على الترتيب وشوقوا ما شاؤوا ، وأطربوا ما أرادوا

---

(١) الفراش جمع فراشة طائر صغير يتهافت على السراج فيحترق .
(٢) أي الوسط .
(٣) من الاعتساف وهو الركوب على الطريق من غير هداية ولا دراية .
(٤) جمع مفازة وهي الفلاة .
(٥) كساء أخضر يلبسه الخواص من المشايخ والعلماء وهو من لباس العجم .

وبادرت العيون بإرسال الدموع. فلما فرغوا من القراءة وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات، صدع بخطبته الزهراء الغراء وأتى بأوائل الآيات، في أثنائها منتظمات، ومشى الخطبة على فقرة آخر آية منها في الترتيب إلى أن أكملها. وكانت الآية: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ... ﴾ [غافر: ٦١] فتمادى على هذا السين، وحسن أيّ تحسين، فكان يومه في ذلك أعجب من أمسه. ثم أخذ في الثناء على الخليفة والدعاء له ولوالدته، وكنّى عنها بالستر الأشرف، والجناب الأرأف، ثم سلك سبيله في الوعظ. كل ذلك بديهةً لا روية، ويصل كلامه في ذلك بالآيات المقروءات على النسق مرة أخرى فأرسلت وابلها العيون، وأبدت النفوس سرَّ شوقها المكنون، وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين، وبالتوبة معلنين، وطاشت الألباب والعقول، وكثر الوله[١] والذهول، وصارت النفوس لا تملك تحصيلاً، ولا تميز معقولاً، ولا تجد للصبر سبيلاً.

ثم في أثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب[٢] مبرحة التشويق، بديعة الترقيق، تشعل القلوب وجداً، ويعود موضعها النسيبي زهداً، وكان آخر ما أنشده من ذلك وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام، وأصابت المقاتل[٣] سهام ذلك الكلام:

أيــن فــؤادي أذابــهُ الــوجــدُ وأيـن قلبـي فمـا صحـا[٤] بعـدُ
يـا سَعـدُ زدنـي جـوًى بـذكـرهـم بـالله! قـل لـي فُـديـت يـا سعـدُ

---

(١) الوله أي التحير من شدة الوجد.

(٢) النسيب وهو ذكر الشاعر المرأة بالحسن والإخبار عن تصرف هواها به، وليس هو الغزل وإنما الغزل الاشتهار بمودات النساء والصبوة إليهن، والنسيب ذكر ذلك والخبر عنه.

(٣) جمع مقتل وهو العضو الذي إذا أصيب لا يكاد صاحبه يسلم.

(٤) أفاق.

ولم يزل يردّدها والانفعال قد أثّر فيه ، والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه ، إلى أن خاف الإفحام ، فابتدر القيام ، ونزل عن المنبر دهشاً عجلاً ، وقد أطار القلوب وجلاً ، وترك الناس على أحرّ من الجمر ، يشيّعونه بالمدامع الحمر ، فمن معلن بالانتحاب[١] ، ومن متعفر في التراب ، فيا له من مشهد ما أهول مرآه! وما أسعد من رآه! نفعنا الله ببركته ، وجعلنا ممن فاز به بنصيب من رحمته بمنه وفضله!

وفي أول مجلسه أنشد قصيداً نير القبس ، عراقي النفس ، في الخليفة أوله :

فـي شغـل مـن الغـرام شـاغـل ما هـاجـه البـرق بسفـحِ عـاقـل

يقول فيه عند ذكر الخليفة :

يـا كلمـاتِ اللهِ كـونـي عـوذةً مـن العُيـونِ لـلإمـامِ الكـامـل

ففرغ من إنشاده وقد هزَّ المجلس طرباً. ثم أخذ في شأنه وتمادى في إيراد سحر بيانه وما كنا نحسب أن متكلماً في الدنيا يعطي من ملكة النفوس والتلاعب بها ما أعطى هذا الرجل! فسبحان من يخصّ بالكلام من يشاء من عباده لا إله غيره.

وشاهدنا بعد ذلك مجالس لسواه من وُعّاظ بغداد ممن يستغرب شأنه بالإضافة لما عهدناه من متكلمي الغرب. وكنا قد شاهدنا بمكة والمدينة «شرفهما الله» مجالس من قد ذكرناه في هذا التقييد ، فصغرت بالإضافة لمجلس هذا الرجل الفذ في نفوسنا قدراً ، ولم نستطب لها ذكراً ، وأين تقعان مما أريد وشتان بين اليزيدين[٢]! وهيهات الفتيان كثير ، والمثل

(١) أي البكاء الشديد مع التنفس الشديد.

(٢) إيماء إلى قول الشاعر :

لشتان ما بين اليزيدين في الندى يـزيـد سليـم والأغـرّ بـن حـاتـم

بمالك[١] يسير. ونزلنا بعده بمجلس يطيب سماعه، ويروق استطلاعه. وحضرنا له مجلساً ثالثاً يوم السبت الثالث عشر لصفر بالموضع المذكور، بإزاء داره على الشط الشرقي فأخذت معجزاته البيانية مأخذها فشاهدنا من أمره عجباً صعَّد بوعظه أنفاس الحاضرين سحباً، وأسال من دمعهم وابلاً سكباً[٢]، ثم جعل يردّد في آخر مجلسه أبياتاً من النسيب شوقاً زهدياً وطرباً إلى أن غلبته الرقة فوثب من أعلى منبره والهاً مكتئباً، وغادر الكل متندماً على نفسه منتحباً، لهفان ينادي يا حسرتا! واحربا!. والنادبون يدورون بنحيبهم دور الرحا، وكل منهم بعدُ من سكرته ماصحا[٣]

* * *

(١) هو مالك بن نويرة قتله سيدنا خالد بن الوليد (رضي الله عنه) وكان أخوه متمم شديد الحب له طويل الحزن عليه وكان الناس يعزونه ويذكرون له من قتل من فتيان العرب ويتأسى بهم فيقول: فتى ولا كمالك.

(٢) وابلاً سكباً أي المطر الشديد مع الهطلان الدائم.

(٣) رحلة ابن جبير.

مهـر المحبَّــة وَالجَـنّــة

للعلاّمة ابن القيم[(١)] رحمه الله تعالى

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم ، فقال: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٩٠]. ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة وكان محرماً ، ثم مأذوناً به ، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأموراً به لجميع المشركين؛ إما فرض عين على أحد القولين ، أو فرض كفاية على المشهور. والتحقيق أن جنس الجهاد فرض عين إما بالقلب و إما باللسان وإما بالمال وإما باليد ، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع. أما الجهاد بالنفس ففرض كفاية ، وأما الجهاد بالمال ففي وجوبه قولان والصحيح وجوبه لأن الأمر بالجهاد به وبالنفس في القرآن سواء ، كما قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١]. وعَلَّقَ النجاة من النار به ومغفرة الذنب ودخول الجنة.

---

(١) أبو عبد الله محمد شمس الدين المعروف بابن قيم الجوزية كان آية من آيات الله في غزارة العلم والتنوّع في الفضائل وحسن التأليف وكثرة العبادة. وكان من أجلّ تلامذة الإمام ابن تيمية رحمه الله. له اليد الطولى في جميع العلوم الدينية ، وهو صاحب التصانيف الكثيرة كزاد المعاد ، وأعلام الموقعين ، ومدارج السالكين شرح منازل السائرين ، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ، وكتاب الروح ، وشفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، وغيرها. تمتاز كتابته بالإشراق الروحي والعذوبة والسلاسة. توفي في ٢٣ رجب سنة ٧٩١هـ.

فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٢]. وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم ما يحبون من النصر والفتح القريب. فقال: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ﴾ [الصف: ١٣] أي ولكم خصلة أخرى تحبونها في الجهاد وهي نصر من الله وفتح قريب. وأخبر سبحانه أنه: ﴿ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١] وأعاضهم عليها الجنة، وإن هذا العقد والوعد قد أودعه أفضل كتبه المنزلة من السماء وهي التوراة والإنجيل والقرآن، ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحد أوفى بعهده منه تبارك وتعالى، ثم أكد ذلك بأن أمرهم بأن يستبشروا ببيعهم الذي عاقدوه عليه، ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوز العظيم. فليتأمل العاقد مع ربه عقد هذا التبايع ما أعظمَ خطَره وأجلَّه! فإن الله عز وجل هو المشتري، والثمن جناتُ النعيم والفوزُ برضاه والتمتّعُ برؤيته هناك. والذي جرى على يده هذا العقدُ أشرفُ رسله وأكرمُهم عليه من الملائكة والبشر، وإن سلعةً هذا شأنها لقد هُيئتْ لأمرٍ عظيمٍ وخَطبٍ جسيمٍ:

قَـدْ هَيَّـؤوكَ لأمـرٍ لـو فطِنْـتَ لـه ⁂ فَارْبأْ بنفسكَ أن تَرْعى مع الهَمَلِ

مهر المحبة والجنة بذلُ النفس والمال لمالكهما الذي اشتراهما من المؤمنين فما للجبان المُعرضِ المُفْلسِ وسَوْم هذه السلعة، بالله! ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون. لقد أقيمت للعرض في سوق منْ يزيد فلم يرض ربها لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون وقام المحبون ينتظرون أيهم يصلح أن يكون نفسه الثمن. فدارت السلعة بينهم، ووقعت في يد أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حرقة الشجي فتنوع

المدعون في الشهود فقيل لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]. فتأخر الخلق كلهم وثبت أتباع الرسول في أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه فطولبوا بعدالة البينة، وقيل لا تقبل العدالة إلا بتزكية: ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤] فتأخر أكثر المدعين للمحبة، وقام المجاهدون. فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فسلموا ما وقع عليه العقد، فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وعقد التبايع يوجب التسليم من الجانبين. فلما رأى التجار عظمة المشتري وقدر الثمن، وجلالة قدر من جرى عقدُ التبايع على يديه، ومقدار الكتاب الذي أثبت فيه هذا العقد، عرفوا أن للسلعة قدراً وشأناً ليس لغيرها من السلع، فرأوا من الخسران البين والغبن الفاحش أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة، تذهب لذّاتها وشهوتها، وتبقى تبعتها وحسرتها، فإنَّ فاعل ذلك معدود في جملة السفهاء فعقدوا مع المشتري بيعة الرضوان رضاء واختياراً من غير ثبوت خيار، وقالوا: والله! لا نقيلك[١] ولا نستقيلك، فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم: قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا، والآن فقد رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعاف أموالكم معها. ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٩] لم نبتع منكم نفوسكم وأموالكم طلباً للربح عليكم بل ليظهر أثر الجود والكرم في قبول المعيب والإعطاء عليه أجلَّ الأثمان، ثم جمعنا لكم بين الثمن والمثمَّن. تأمل ههنا قصة جابر رضي الله عنه وقد اشترى منه ﷺ بعيره، ثم وفاه الثمن وزاده ورد عليه البعير، وكان أبوه قد قُتل وهو مع النبي ﷺ في وقعة أُحد فذكَّره بهذا الفعل حال أبيه مع الله وأخبره أن الله أحياه وكلمه كفاحاً[٢] وقال:

(١) من الإقالة.

(٢) مواجهة.

يا عبدي! تمن عليّ. فسبحان من عظم جوده وكرمه أن يحيط به علمُ الخلائق! فقد أعطى السلعة وأعطى الثمن، ووفق لتكميل العقد وقبل المبيعَ على عيبه، وأعاض عليه أجلَّ الأثمانِ، واشترى عبده من نفسه بماله وجمع له بين الثمن والمثمَّن، وأثنى عليه، ومدحه بهذا العقد، وهو ـ سبحانه ـ الذي وفقه الله له وشاءه منه:

فَحَيّهَـلا إنْ كنـتَ ذا همـةٍ فقـد ... حدا بك حادي الشوقِ فاطوِ المراحلا
وقُـلْ لمنـادي حبّهـم ورضـاهُـمُ ... إذا مـا دعـا لَبَّيْـك ألفـا كَـوامـلا
ولا تنظرِ الأطلالَ[1] مِنْ دونهم فإنْ ... نظرتَ إلى الأطلال عُدْنَ هوائلا
ولا تنتظـرْ بـالسيـرِ رِفقـةَ قـاعـدٍ ... وَدَعْهُ فإنَّ الشوقَ يكفيكَ حامِلا
وخُذْ منهمُ زاداً إليهم وسِرْ على ... طريقِ الهُدى والحُب تصبح واصِلا
وأَحْيِ بذكراهم شِراكَ إذا دَنَتْ ... ركابُكَ فالذكرى تُعيدكَ عاملا
وإمّا تَخافَنَّ الكَلالَ[2] فقُلْ لها ... أمامكِ وِرْدُ الوَصْلِ فابغي المَناهِلا
وخُذْ قَبَساً من نورهم ثُمَّ سِرْبهِ ... فنورُهُمْ يهديكَ ليس المشاعلا
وحَيِّ على وادي الأراكِ فقِلْ بهِ ... عَساكَ تَراهُم ثَمَّ إنْ كنتَ قائلا
وإلا ففي نَعْمانَ عندي مُعَرِّفُ الـ ... ـأحبَّةِ فاطلُبْهُمْ إذا كُنْتَ سائلا
وإلا ففـي جَمْـعٍ بليلتِـهِ فـإنْ ... تَفُتْ فمنىً يا وَيْحَ مَنْ كانَ غافلا
وَحَـيِّ علـى جَنّـاتِ عَـدْنٍ فـإنَّهـا ... مَنازِلُكَ الأولى بها كنتَ نازلا
ولكن سباكَ الكاشِحونَ لأجلِ ذا ... وقفتَ على الأطلالِ تَبْكي المنازلا
وحَيّ على يوم المزيد بجَنَّةِ الـ ... ـخُلودِ فجُدْ بالنَّفْسِ إن كنتَ باذلا
فَدَعْها رُسوماً دارساتٍ فما بها ... مَقيلٌ[3] وجاوِزْها فليسَتْ منازِلا

---

(١) جمع طلل وهو ما شخص من آثار الدار.
(٢) التعب والإعياء.
(٣) من القيلولة أي موضع القيلولة.

رُسوماً عَفَتْ [١] ينتابُها [٢] الخلق كم بها قَتيلٌ وكـــم فيها لِذا الـــخلق قاتلا
وخُذْ يمنةً عنهـــا على المنهج الذي عليـــه سرى وَفْـــدُ الأحبَّـــة آهلا
وقُلْ ساعدي يا نفسُ بالصبر ساعة فعند اللقا ذا الكَدُّ يُصبـــحُ زائـــلا
فـــما هي إلا ساعة ثُـــمَّ تنقضي ويصبح ذو الأحزان فرحانَ جاذلاً [٣]

لقد حرَّك الداعي إلى الله وإلى دار السَّلام النفوس الأبيَّة والهمم العالية وأسمع منادي الإيمان من كانت له أذن واعية وأسمع الله من كان حياً فهزَّه السماع إلى منازل الأبرار وحدا به في طريق سيره فما حطت به رحاله إلا بدار القرار فقال : انتدب [٤] الله لمن خرج في سبيله لا يُخرِجُهُ إلا إيمان بي أو تصديق برسلي أن أَرْجِعَه بما نال من أجر أو غنيمة أو أُدْخِلَهُ الجنة ، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ولَوَدِدْتُ أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا . وقال : مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يَتوفَّاه أن يُدْخِلَه الجنة أو يَرْجِعَه سالماً مع أجر وغنيمة ، وقال : غَدوة في سبيل الله أو رَوحة خير من الدنيا وما فيها ، وقال فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : أيما عبد من عبادي خرج مجاهداً في سبيلي ابتغاء مرضاتي ضمنت له أن أَرْجعه بما أصاب من أجر أو غنيمة ، وإن قبضته أن أغفر له وأرحمه وأدخله الجنة — [٥] .

---

(١) درست ومحت .

(٢) يأتيها مرة بعد أخرى .

(٣) فرحاً .

(٤) أجاب .

(٥) زاد المعاد .

آراء في التعليم

لابن خلدون [١]

١- كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل :

اعلم أنه مما أضرَّ الناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التأليف ، واختلافات الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها ، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك . وحينئذٍ يُسَلَّم له منصب التحصيل ، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ، ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد [٢] لها فيقع القصور ــ ولا بد ــ دون رتبة التحصيل .

ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بكتاب المدونة مثلاً وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس ، واللخمي وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية . وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه ثم أنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية [٣] من القرطبية [٤] والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والإحاطة بذلك كله . وحينئذٍ يسلم له منصب الفتيا وهي كلها متكررة

---

(١) تقدمت ترجمته في الجزء الأول .

(٢) أي تفرغ لها وجد فيها .

(٣) منسوبة إلى القيروان مدينة بناها عقبة ابن عامر الصحابي (رضي الله عنه) .

(٤) منسوبة إلى قرطبة .

والمعنى واحد والمتعلِّم مطالَبٌ باستحضار جميعها وتمييز ما بينها ، والعمر ينقضي في واحد منها.

ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر دون ذلك بكثير وكان التعليم سهلاً ومأخذه قريباً ، ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد[١] عليه ، فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها.

ويمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك. وكيف يطالب به المتعلم ، وينقضي عمره دونه ، ولا يطمع أحد في الغاية منه إلا في القليل النادر ، مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تآليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل إلا لسيبويه وابن جني وأهل طبقتهما لعظم ملكته ، وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه.

ودلَّ ذلك على أن الفضل ليس منحصراً في المتقدمين ، سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغب[٢] بتعدد المذاهب والطرق والتآليف. ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء. وهذا نادر من نوادر الوجود وإلا فالظاهر أن المتعلم لو قطع عمره في هذا كله فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلاً الذي هو آلة من الآلات ووسيلة فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة ولكنّ الله يهدي من يشاء.

---

(١) جمع عادة وتجمع أيضاً عادات وعاد وعيد ، والعوائد كأنه جمع عائدة وهي المنفعة.

(٢) جمع شاغبة وهي المهيجة والمؤدية إلى الشر.

٢ ـ كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلّة بالتعليم:

ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم يولعون[١] بها ويدونون منها برنامجاً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن، وصار ذلك مخلاً بالبلاغة وعسِراً على الفهم. وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريباً للحفظ، كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه

، وابن مالك في العربية، والخونجي في المنطق وأمثالهم؛ وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل. وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتدىء بإلقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد. وهو من سوء التعليم كما سيأتي.

ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة[٢] للفهم بتزاحم المعاني عليها، وصعوبة استخراج المسائل من بينها، لأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة فينقطع في فهمها حَظٌّ صالح من الوقت. ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات إذا تمّ على سداده ولم تعقبه آفة فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع في تلك من التكرار والإحالة المفيدين لحصول الملكة التامة. وإذا اقتصر على التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبوهم صعباً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها، ومن يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) أولع به أحبه وعلق به شديداً.

(٢) ما يصعب فهمها.

٣ ـ وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته:

اعلم أن تلقينَ العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلا، يلقى عليه أوّلاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعى في ذلك قوة عقله، واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله.

ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الإجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود[1] ملكته. ثم يرجع به وقد شد فلا يترك عويصاً ولا مبهماً ولا مغلقاً إلاّ وضّحه وفتح له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته. هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكررات وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه.

وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفادته ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك مراناً[2] على التعليم وصواباً فيه ويكلفونه وعي ذلك وتحصيله، ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها، وقبل أن يستعد لفهمها فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجياً، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال وبالأمثال الحسية. ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرّج قليلاً قليلاً بمخالفة

---

(١) تصير جيدة.

(٢) التمرين.

مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن. وإذا ألقيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذٍ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كَلَّ ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه، وإنما أتى ذلك من سوء التعليم.

ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكبّ على التعلم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو منتهياً، ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره، ويحصّل أغراضه، ويستولي منه على ملكة بها ينفذ في غيره، لأن المتعلم إذا حصّل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق حتى يستولي على غايات العلم، وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكَلال[١] وانطمس[٢] فكره، ويئس من التحصيل وهجر العلم والتعليم والله يهدي من يشاء.

وكذلك ينبغي لك أن لا تطوّل على المتعلم في الفنّ الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها، وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم ارتباطاً وأقرب صبغة لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكرره وإذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه والله علمكم ما لم تكونوا تعلمون!.

ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يُخلط على

---

(١) أي التعب والإعياء.

(٢) أي انمحى واندرس (القاموس: طمس).

المتعلم علمان معاً فإنه حينئذٍ قلّ أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر ، فيستغلقان معاً ويستصعبان ويعود منهما بالخيبة ، وإذا تفرّغ الفكر لتعلّم ما هو بسبيله مقتصراً عليه فربما كان ذلك أجدر بتحصيله والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب[١] .

* * *

(١) مقدمة ابن خلدون .

تأثير البِيئــةَ والصّناعَـة فــي الأدَب

لمحمود بن محمَّد الجونفوري[١]

والارتباطات الخياليات بالأسباب الخارجية الاتفاقية من صناعة أو عرف عام ، فتتفاوت بالأمم وليست منضبطة انضباط الارتباط العقلي والوهمي بل كثيراً ما تقارن صورة صورة في خيال أرباب صناعة خاصة أو أهل عرف لكون صناعتهم أو عرفهم جامعاً بينهما ولا تقارنهما في خيال أصحاب صناعة أخرى أو أهل عرف عام آخر كالثوب يقارب الدن[٢] ،

---

(١) الشيخ الإمام العالم الكبير محمود بن محمد العمري الجونفوري أحد نوابغ الهند ، لم يكن في زمانه مثله في العلوم الحكمية والمعارف الأدبية. وُلد بجونفور سنة ثلاث وتسعين وتسعمئة ، ونشأ في مهد جده شاه محمد ، وقرأ عليه الكتب الدرسية ثم لازم الشيخ الأستاذ محمد أفضل بن حمزة العثماني الجونفوري وأخذ عنه وأقبل على المنطق والحكمة إقبالاً كلياً حتى برز فيها وبرع أقرانه وله سبع عشرة سنة. وكان غاية في الذكاء والفطنة وسيلان الذهن وقوة الحفظ والإدراك. كان يحضر المجالس والمحافل في صغره فيتكلم ويناظر ويفحم الكبار ويأتي بما يتحير منه أعيان البلدة في العلم. قال السيد غلام علي البلجرامي في سبحة المرجان: لا ريب أنه لم يظهر بالهند مثل فاروقيين: أحدهما في الحقائق وهو مولانا الشيخ أحمد السرهندي رحمه الله ، والثاني في العلوم الحكمية والأدبية وهو الملا محمود الجونفوري. وله مصنفات عديدة أشهرها: الشمس البازغة في الحكمة ، والفرائد شرح الفوائد؛ وهذا الفصل مأخوذ منه. وتوفي لتسع خلون من ربيع الأول سنة اثنتين وستين وألف بمدينة جونفور.

(٢) الراقود العظيم لا يقعد إلا أن يحفر له ج دنان.

والعفص[١] في خيال الصباغ دون الخياط ، والتمر قد يقارن الجراد في خيال العرب دون الهند. فربما يجيء الوصل لوجود الجامع الخيالي بحسب صناعة المتكلم أو المخاطب أو عرفه فيتلقاه العارف بالقبول وإن وقف له الجاهل موقف النكير فلا يستنكر قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧] ، إلاّ من يجهل أن الخطاب مع العرب وما في خيالهم إلا الإبل ، وأرض ترعاها ، وسماء تسقيهم وإياها ، وجبال هي معاقلهم[٢] عند شن الغارات. فإن العرب أعني أهل الوبر منهم لما لم يكونوا متمدنين حتى تتيسر لهم التجارات التي إنما تربح وتروج في المدن،والصناعات التي إنما تتعلم وتنتفع بها غالباً فيها ولا كانت أراضيهم جيدة الإنبات ، طيبة النبات ، غزيرة[٣] الحياض والآبار ، كثيرة العيون والأنهار حتى يتمكنوا من الزراعة والفلاحة،لا جرم نيطت معيشتهم بالمواشي. ولما كانت الإبل أجلها منفعة وأقلها مؤنة عقدت بها هممهم فهي أول ما هو مركوز في ضمائرهم مستحضر في خواطرهم. ثم لما كان بقاؤها والانتفاع بها لا يتحصّل إلا بأن ترعى وتشرب كان جل مرمى غرضهم نزول المطر،وأهم مسارح[٤] نظرهم السماء،ثم لاضطرارهم إلى التحصن لشن الغارات بينهم وشيوع الواقعات فيهم إذ لم يكونوا متدينين في الجاهلية بشريعة تزجرهم عن المفسدة ، ولا منقادين لسياسة تحجز[٥] عن الفتنة كانت أعناق قلوبهم ممتدة إلى الجبال التي هي معاقلهم وحصونهم. وإذ تعذر طول مكثهم بمواشيهم في منزل كان التنقل من أرض تمتعوا بمائها ومرعاها إلى أرض معشبة[٦] سواها من عزم الأمور

---

(١) دواء معروف يقال له بالفارسية مازو.
(٢) جمع معقل الملجأ.
(٣) كثيرة.
(٤) هي المواضع التي يجول فيها النظر.
(٥) تمنع.
(٦) كثيرة العشب.

عندهم. فلذلك أمروا في مقام الاستدلال بالأثر على المؤثر بالنظر في أقرب الصور حضوراً عندهم فالأقرب على الترتيب ، ولك أن تقول أقرب الصور عندهم هي الإبل. ثم لما كانت السماء والجبال والأرض مستحضرة عندهم بعدها انتقل إليها من أعلاها إلى أسفلها بالترتيب ، وإذ قد عرفت عدم انضباط الخيالات واختلافها باختلاف العادات مع ابتناء ما هو من معضلات[1] مباحث الفن أعني معرفة حسن الوصل وقبحه على معرفتها جداً علمت احتياج صاحب المعاني إلى بذل الجهد في التدرب[2] فيها ، ولها في فن البلاغة منافع أخرى مهمة فإن التبحر في التشبيهات والاستعارات وغيرها من شعوب الكلام أيضاً مبني على معرفة الصور الخيالية ووضوحها وخفائها وتناسبها وتجانبها.

ولا بأس في أن نملي عليك من ملح الأخبار والأشعار ما يفيدك زيادة في الاستبصار:

يحكى أن صاحبَ سلاحِ ملكٍ وصائغاً وصاحب بقرة ومعلم صبية[3] انتظمهم سلك طريق فركبوا مركب الجد ووصلوا سير النهار بسير الليل الأليل[4]. فبينا هم في وحشة الظلام ومقاساة خوف الضلال والزلل آنسهم البدر بوجهه الكريم وأضاءت لهم أنواره كل مظلم بهيم[5] ، فأفاض كل منهم في ثنائه وترشيح بأحلى ما في إنائه فشبهه السلاحي بالترس المذهب يرفع عند الملك ، والصائغ بالسبيكة من الإبريز تفتر عن وجهها البوتقة[6] ، والبقار بالجبن الأبيض يخرج من قالبه

(١) مشكلات.

(٢) أي التعود.

(٣) جمع صبي.

(٤) أي الطويل الشديد السواد.

(٥) أي الأسود.

(٦) الوعاء الذي يذيب فيه الصائغ المعدن.

طرياً[١] والمعلم برغيف أحمر يصل إليه من بيت ذي مروءة.

ويحكى عن وراق يصف حاله: عيشي أضيق من محبرة[٢]، وجسمي أدق من مسطرة[٣]، وجاهي أرق من الزجاج، وحظي أخفى من شق القلم، وبدني أضعف من قصبة، وطعامي أمر من العفص، وشرابي أشد سواداً من الحبر[٤].

وسوء الحال ألزم بي من الصمغ، وروى لحداد:

مطارق[٥] الشوق في قلبي لها أثرٌ يطرقْنَ سندانَ قلبٍ حشوُهُ فِكَرُ
ونارُ كيرِ الهوى في القلب مضرمةٌ ومبردُ[٦] الشوقِ لا يُبقي ولا يَذَرُ

ولطبيب:

شربتُ لكم في القلبِ منّيَ شَرْبةً لتُطْفي بها ناري وَيهْدَا[٧] وساوسي
بعنـاب بيـن مـع سبستـان سلـوة وإجـاص هجـران وتـربـد آنـس
وصَفَّيْتُـهُ حتـى إذا عمـل الـدواء طرحت هواكم بين خمس مجالس[٨]

---

(١) غضّاً ليناً.
(٢) الدواة.
(٣) ما يسطُر به الكُتّاب.
(٤) المداد.
(٥) جمع مطرقة آلة معروفة للحدادين يضربون بها على السندان، السندان هو ما يطرق عليه الحديد.
(٦) آلة للحدادين يقال له بالفارسية سوهان.
(٧) يسكن.
(٨) قال صاحب الفرائد في حاشيته عليها يخاطب الأحبة ويخبرهم عن ذهاب هواهم عن قلبه وتسليه عن حبهم فيقول: إني عالجت قلبي بدواء مسهل يسهل الأخلاط الرديئة والمواد الفاسدة من وساوس الهوى وهواجس الصبى فركب الدواء من العناب والسبستان والإجاص والتربد فإن ذلك دواء معروف لتليين الطبيعة وإسهال المواد الردية من غير عنف، وفسر العناب بالبين أي الفراق وأراد به بعد المسافة فأضاف العناب إلى البين إضافة بيان على نحو لجين الماء وذلك لأن البين يورث فتوراً في الحب وسلواً عن الحبيب، وكذلك أضاف السبستان إلى السلوة =

وقال بعضهم بعد ما أنشد للأمير سيف الدولة في وصف قوس قزح:

وساق صبيح الصبوح دعوته فقام وفي أجفانه سنة الغمض[١]

يطوف بكأسات العقار[٢] كأنجم فما بين منقض علينا ومنفض

وقد نشرت أيدي الجنوب[٣] مطارفاً[٤] على الجود كنا[٥] والحواشي على الأرض

يطرزها قوس السحاب بأحمر على أصفر في أخضر تحت مبيض

كأذيال خود[٦] أقبلت في غلائل[٧] مصبغة والبعض أقصر من بعض[٨]

إن هذا من التشبيهات الملوكية التي لا يكاد يحضر مثلها للسوقة[٩]

= والإجاص إلى الهجران وأراد به قطع الألفة وترك الصحبة لا بعد المسافة حتى لا يلزم التكرار، وأضاف التربد إلى الآنس أي المصاحب الذي هو غيرهم يؤنسه ويتسلى بصحبته عنهم؛ ثم قال: لما عمل الدواء طرحت هواهم بين خمس مجالس كما يطرح الثقل والأخلاط بعد المسهل بين خمس مجالس في الخلاء أي خمس مرات.

(١) النوم.

(٢) الخمر.

(٣) بالفتح الريح التي تقابل الشمال.

(٤) جمع مطرف بكسر الميم وضمها رداء من خز ذو أعلام.

(٥) جمع أدكن من الدكنة وهو لون يضرب إلى السواد.

(٦) المرأة الشابة.

(٧) جمع غلالة شعار يلبس تحت الثوب.

(٨) يقول إن الساقي لما كان في سنة الغمض وطاف بكأسات العقار في تلك الحالة لم يتمالك عن كأسات العقار المتلألئة كالأنجم فمنها ما كانت ساقطة من يده كالكوكب المنقض من السماء مجتمعاً ومنها ما كانت متفرقة رشحاتها كالكوكب المتفرق نوره في الجو.

(٩) الرعية.

وبالجملة فإن تخالف الأنام في شجون[١] الكلام يبتنى غالباً على اختلاف الصور في خزائن خيالاتهم غيبة وحضوراً وخفاء وظهوراً وائتلافاً واختلافاً لتباين مذاهبهم واختلاف مشاربهم.

ومن ههنا ترى الشعراء من العرب العرباء قلما يجاوزون ذكر النوق والجمال والأدوية والجبال والبطائح[٢] والرمال والدمن[٣] والأطلال[٤] ويلوح من أشعارهم آثار الجدب والجوع وحرش الضب واليربوع واستيطان المفازة والبوادي والاستئناس بالوحوش الصوادي[٥] لكن الله تعالى لَيّنَ لهم الحديد وهون عليهم الشديد فترى كلامهم أسهل من الماء مع أنه أجزل من الصخرة الصماء وتخاله مع صعوبة أسلوبه ووعورة شعوبه أرق من دمع المستهام[٦] وأروق من راح رقرق بماء الغمام.

وأما المولدون فلما نشؤوا في الحضارة ونادموا أولي الإمارة وذاقوا حلاوة العيشة وغطفها وشاهدوا زهرة الدنيا وخرفها وَشّحوا عباراتهم بالجواهر والدرر وضمخوا استعاراتهم بالمسك والعنبر وتفرجت في حدائق أشاعرهم الأنوار والأزهار وتجثجثت[٧] في رياض حوارهم العيون والأنهار وحسنت أبيات قصائدهم بالديباج والوشي وزينت خرائد مقاصدهم بالحرير والحلي ولذلك راجت بضاعتهم عند المتأخرين من الرواة والأدباء فأحلوها المقام العالي وربحت لدى المتظرفين من الولاة والأمراء فشروها بكل ثمن غالٍ وأما الناقد البصير الماهر النحرير فلا يغتر

(١) جمع شجن بالتحريك الغصن ومنه الحديث ذو شجون.
(٢) جمع بطحاء مسيل واسع فيه رمل ودقاق الحصى.
(٣) جمع دمنة وهي آثار الدار.
(٤) جمع طَلَل وهو الشاخص من الآثار.
(٥) جمع صادية من الصدى وهو العطش.
(٦) أي الهائم.
(٧) أي تسلسلت.

بزبرجهم ولا ينخدع ببهرجهم ولقد أنطق الله تعالى المتنبي بالحق حيث قال:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب[١]

* * *

(١) الفرائد.

المَدنيَّــة الغربيَّــة

للسيد مصطفى لطفي المنفلوطي[١]

سأودّع في هذه النظرة الخيال والشعر وَداع من يعلم أن الأمر أعظم شأناً وأجل خطراً من أن يعبث فيه العابث بأمثال هذه الطرائف التي هي بالهزل أشبه منها بالجدّ. والتي إنما يلهو بها الكاتب في مواطن فراغه ولعبه لا في مواطن جدّه وعمله.

إن في أيدينا معشر الكتاب من نفوس هذه الأمة وديعة يجب علينا تعهّدها، والاحتفاظ بها، والحدب[٢] عليها حتى نؤديها إلى أخلافنا من بعدنا كما أدّاها إلينا أسلافنا سالمة غير مأروضة[٣]. ولا متأكّلة[٤]، فإن فعلنا فذاك وإلا فرحمة الله على الصدق والوفاء، وسلام على الكتاب الأمناء!

الأمة المصرية أمة مسلمة شرقية، فيجب أن يبقى لها دينها وشرقيتها ما جرى نيلها في أرضها، وذهبت أهرامها[٥] في سمائها، حتى تبدّل

---

(١) تقدمت ترجمته في الجزء الأول.

(٢) الحدب على الشيء التعطف عليه والعناية به.

(٣) التي أكلتها الأرضة.

(٤) المنخورة.

(٥) جمع هرم وهو المخروط المضلع الذي تكون قاعدته مثلثة أو مربعة أو كثيرة الأضلاع وهي مقابر الملوك المشهورة في مصر.

الأرض غير الأرض والسماوات. إن خطوة واحدة يخطوها المصري إلى الغرب تدني إليه أجله، وتدنيه من مهوى[١] سحيق[٢] يقبر فيه قبراً لا حياة من بعده إلى يوم يبعثون.

لا يستطيع المصري ـ وهو ذلك الضعيف المستسلم ـ أن يكون من المدنية الغربية إن داناها إلا كالغربال[٣] من دقيق الخبز يمسك خشارة[٤]، ويفلت لبابه، أو الراووق[٥] من الخمر يحتفظ بعقاره، ويستهين برحيقه، فخير له أن يتجنبها جهده، وأن يفر منها فرار السليم من الأجرب[٦].

يريد المصري أن يقلّد الغربي في نشاطه وخفته، فلا ينشط إلا في غدواته وروحاته وقعدته وقومته، فإذا جد الجدّ وأراد نفسه على أن يعمل عملاً من الأعمال المحتاجة إلى قليل من الصبر والجلد[٧] دب الملل إلى نفسه دبيب الصهباء[٨] في الأعضاء، والكرى[٩] بين أهداب[١٠] الجفون.

يريد أن يقلّده في رفاهيته ونعمته فلا يفهم منهما إلا أن الأولى التأنث في الحركات والثانية الاختلاف إلى مواطن الفسق ومخابىء[١١] الفجور.

---

(١) ما بين الجبلين ونحو ذلك ج مهاوٍ.
(٢) البعيد.
(٣) المنخل ج غرابيل.
(٤) الرديء من كل شيء، ما لا لب له من الشعير.
(٥) المصفاة.
(٦) من أصابه الجرب.
(٧) الصبر والقوة.
(٨) الخمر.
(٩) النوم.
(١٠) جمع هدب وهو شعر أشفار العينين.
(١١) جمع مخبأ وهو موضع الاختباء.

يريد أن يقلّده في الوطنية فلا يأخذ منها إلا نعيقها[١] ونعيبها ، وضجيجها[٢] وصفيرها ، فإذا قيل له : هذه المقدمات فأين النتائج؟ أسلم رجليه إلى الرياح الأربع واستن[٣] في فراره استنان المهر[٤] الأرن[٥] فإذا سمع صفير الصافر مات وجلاً ، وإذا رأى غير شيء ظنه رجلاً .

يريد أن يقلّده في السياحة فلا يزال يترقب فصل الصيف ترقُّبَ الأرض الميتة فصل الربيع ، حتى إذا حان حينه طار إلى مدن أوربا طيران حمام الزاجل[٦] لا يبصر شيئاً مما حوله ، ولا يلوي على شيء مما وراءه ، حتى يقع على مجامع اللهو ومكامن الفجور وملاعب القمار ، وهنا يبذل من عقله وماله ما يعود فقير الرأس والجيب ، لا يملك من الأول ما يقوده إلى طريق السفينة التي تحمله في أوبته ، ولا من الثاني أكثر من الجعالة[٧] التي يجتعلها[٨] منه صاحب الجريدة ليكتب له بين حوادث صحيفته حادثة عودته موشاة[٩] بجمل الإجلال والاحترام مطرزة[١٠] بوشائح[١١] الإكرام والإعظام .

يريد أن يقلّده في العلم فلا يعرف منه إلا كلمات يرددها بين شدقيه

---

(١) صوت الغراب وكذا النعيب .
(٢) الصياح .
(٣) استن الفرس في جريه أي عدا إقبالاً وإدباراً .
(٤) ولد الفرس ج مِهار وأمهار ومِهارة .
(٥) النشيط .
(٦) هو الذي يعودونه الطيران برسالة يعلقونها بعنقه إلى حيث عودوه أن يطير .
(٧) بتثليث الجيم أجر العامل .
(٨) أي يأخذها .
(٩) المُنَقَّشَة يقال وشّى الثوب أي حسّنه بالألوان ونمنمه ونقشه .
(١٠) المزينة بالخيوط الملونة والرسوم وما شاكلها .
(١١) جمع وشاح بضم الواو وكسرها شبه قلادة من نسيج عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها ويجمع أيضاً على وُشح وأوشحة .

ترديداً لا يلجأ فيه إلى ركن من العلم وثيق ، ولا يعتصم به من جهل شائن .

يريد أن يقلّده في الإحسان والبرّ فيترك جيرانه وجاراته يطوون حنا الضلوع على أمعاء تلتهب فيها نار الجوع التهاباً حتى إذا سمع دعوة إلى اكتتاب في فاجعة نزلت في القطب الشمالي أو كارثة ألمّت بسدّ يأجوج ومأجوج سجّل اسمه في فاتحة الكتاب ، ورصد هبته في مستهلّ جريدة الحساب .

يريد أن يقلّده في تعليم المرأة وتربيتها فيقنعه من علمها مقالة تكتبها في جريدة أو خطبة تخطبها في محفل ، ومن تربيتها التفنن في الأزياء والمقدرة على استهواء النفوس ، واستلاب الألباب .

هذا شأنه في الفضائل الغربية يأخذها صورة مشوهة وقضية معكوسة ، لا يعرف لها مغزى ، ولا ينتحي بها مقصداً ، ولا يذهب فيها إلى مذهب فيكون مثله كمثل جهلة المتدينين الذين يقلدون السلف الصالح في تطهير الثياب وقلوبهم ملأى بالأقذار والأكدار ويجارونهم في أداء صور العبادات وإن كانوا لا ينتهون عن فحشاء ولا عن منكر ، أو كمثل الذين يتشبهون بعمر رضي الله عنه في ترقيع الثياب وإن كانوا أحرص على الدنيا من صيارفة اليهود .

أما شأنه في رذائلها فإنه أقدر الناس على أخذها كما هي فينتحر كما ينتحر الغربي ويلحد كما يلحد ويستهتر في الفسوق استهتاره ويترسم في الفجور آثاره .

إن في المصريين عيوباً جمة ، في أخلاقهم وطباعهم ومذاهبهم وعاداتهم ، فإن كان لا بدّ لنا من الدعوة إلى إصلاحها فلندع إلى ذلك باسم المدنية الشرقية لا باسم المدنية الغربية .

إن دعوناهم إلى الحضارة فلنضرب لهم مثلاً بحضارة بغداد وقرطبة

وثيبة وفينيقيا ، لا بباريس ورومة وسويسرة[١] ونيويورك. وإن دعوناهم إلى مكرمة فلنَتلُ عليهم آيات الكتب المُنَزَّلَة وأقوال أنبياء الشرق وحكمائه ، لا آيات روسو وباكون ونيوتن وسبنسر[٢]. وإن دعوناهم إلى حرب ففي تاريخ خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وموسى بن نصير وصلاح الدين ما يغنينا عن تاريخ نابليون وولنجتون وواشنطون ونلسن وبلوخر[٣] ، وفي وقائع القادسية وعمورية وإفريقية والحروب الصليبية

---

(١) Thebes مدينة قديمة في مصر ، كانت عاصمة الشمال ، يقال إن مدة حكمها بين ١٦٠٠ قبل الميلاد وبين ١١٠٠ قبل الميلاد ولا تزال آثارها وأطلالها موجودة على بعد ٣٠٠ ميل من القاهرة في الجهة الشمالية الشرقية.

- فينيقيا(Phoenicia) منطقة ممتدة من ساحل البحر إلى جبل لبنان ، نهض فيها الساميون في عام ١٥٠٠ ق.م ودام حكمهم إلى ٧٥٠ ق.م ، وكانت منطقة مشهورة في الحرف والصناعات.

- سويسرة (Suisse) جمهورية اتحادية واقعة في أوربا الوسطى ، عاصمتها برن ، تتكلم أربع لغات: الفرنسية ، الألمانية ، الإيطالية ، الرومانشية.

(٢) روسو (Rousseau) (١٧١٢ ـ ١٧٧٨م) فيلسوف فرنسي وكاتب ، نال كتابه: (Social Gontract) قسطاً أوفر من الشهرة والقبول بالنسبة إلى أعماله الأدبية الأخرى ، فقد كان هذا الكتاب هو الدافع الأكبر وراء الحركات الثورية في أوربا.

- باكون (Roger Bacon) (١٢١٤ ـ ١٢٩٤م) راهب فرنسي حبس في السجن بتهمة السحر لعدة سنوات ، ودعا بدعوة البحث عن الحق والحرية في العلوم ، واخترع أشياء ، منها المجهرة ، والمضخة الهوائية ، وكتب مقالات في العلوم الطبيعية.

- نيوتن (Sir Isaac Newton) (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧م) فيلسوف إنجليزي ، اكتشف جاذبية الأرض لأول مرة.

- سبنسر (Herbert Spencer) (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣م) فيلسوف إنجليزي له مؤلفات ومقالات في علم الحياة ، وعلم الأخلاق ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس. أهم مؤلفاته: (Synthetic Philosophy) الذي قدم فيه فلسفة جديدة على أساس الربط والجمع بين نظريات مختلفة تسمى «فلسفة النفعية» (Utilitarianism).

(٣) ـ نابليون (Napoleun) (١٧٦٩ ـ ١٨٢٤) قائد فرنسي معروف ، احتلّ عرش =

ما يغنينا عن وقائع واترلو وترافلغار وأوستر ليتز والسبعين[١].

إن عاراً على التاريخ المصري أن يعرف المسلم الشرقي في مصر من تاريخ بونابارت ما لا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص ، ويحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسية ما لا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية ، ومن مبادىء ديكارت وأبحاث داروين[٢]. مالا يحفظ من حكم الغزالي

= فرنسا وفتح أكثر البلدان الأوربية ، حتى لاقى هزيمة نكراء في «واترلو» (Waterloo) وتخلّى عن عرش الحكم.

ـ ولنجتون (Wellington) (١٧٦٩ ـ ١٨٥٢م) قائد إنجليزي معروف ، والفضل في شهرته يعود إلى كسره لـ«نابليون» وحبسه له.

ـ واشنطون (George Washington) (١٧٣٢ ـ ١٧٩٩م) مؤسس الولايات المتحدة الأمريكية ورئيسها الأول ، خاض حرباً لتحرير أمريكا من ربقة الاستعمار البريطاني.

ـ نلسن (Horatio Nelson) (١٧٥٨ ـ ١٨٠٥م) أمير البحر البريطاني ، إنه هزم القوة البحرية المتحدة لفرنسا وإسبانيا في معركة «ترافلغار» (Trafalgar) (وأصله «طرف الغار») في ٢٧ أكتوبر عام ١٨٠٥م ، ولكنه جرح في نفس المعركة ومات.

ـ بلوخر (Bluicher) قائد روسي ، دحر حملة نابليون على روسيا في عام ١٨١٥م ، وردّها على أعقابها.

(١) ـ أوسترليتز (Austerlitz) مدينة في «تشيكو سلوفاكيا» حيث هزم «نابليون» القوات المتحدة لكل من روسيا والنمسا.

ـ «السبعين» (Seven Years) عنوان حرب دارت بين إمبراطور روسيا «فريدرك» (Fredrick The Great) و«ماريا تريزا» (Maria Theresa) ملكة النمسا ، سبع سنين ، وذلك من سنة ١٧٥٦م إلى سنة ١٧٦٣م ، واكتوت بنارها الدول الأوربية كلها ، وكانت صدمة عنيفة لسياسة المستعمرات للحكومة الفرنسية واشتدت قبضة الحكم الإنجليزي على أمريكا الشمالية والهند.

(٢) ـ «بونابارت» هو «نابليون» نفسه ، وقد تقدّم ذكره.

ـ «ديكارت» (Rene Descartes) مؤسس فلسفة جديدة جعل التشكيك أساسها ، كما أنّه وضع نظرية (Algebraic Geometry).

ـ «داروين» (Charles Robert Darwin) (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢م) عالم بريطاني =

وأبحاث ابن رشد ، ويروي من الشعر لشكسبير وهوجو[١] ما لا يروي للمتنبي والمعرّي .

لا مانع من أن يعرّب لنا المعرّبون المفيد النافع من مؤلفات علماء الغرب والجيد الممتع من أدب كتّابهم وشعرائهم على أن ننظر فيه نظر الباحث المنتقد لا الضعيف المستسلم ، فلا نأخذ كل قضية علمية مسلّمة ولا نطرب لكل معنى أدبي طرباً متهوّراً ، ولا مانع من أن ينقل إلينا الناقلون شيئاً من عادات الغربيين ومصطلحاتهم في مدنيتهم على أن ننظر إليه نظر مَنْ يريد التبسط في العلم والتوسع في التجربة والاختبار ، لا على أن نتقلّدها وننتحلها ونتخذها قاعدتنا في استحسان ما نستحسن من شؤوننا واستهجان ما نستهجن من عاداتنا .

وبعد: فليعلم كُتَّابُ هذه الأمة وقادتها أنه ليس في عادات الغربيين وأخلاقهم الشخصية الخاصة بهم ما نحسدهم عليه كثيراً ، فلا يخدعوا أمتهم عن نفسها ولا يفسدوا عليها دينها وشرقيتها. ولا يزينّوا لها تلك المدنيّة تزييناً يرزؤها في استقلالها النفسي ، بعد ما رزأتها السياسة في استقلالها الشخصي[٢] .

* * *

= شهير في علم الأحياء وهو صاحب نظرية «النشوء والارتقاء» المشهورة.

(١) ـ «شكسبير» (William Shakespeare) (١٥٦٤ ـ ١٦٢٦م) شاعر إنجليزي وكاتب مسرحي شهير ، وكان يمارس التمثيل أيضاً ، له مسرحيات تُعَدُّ من روائع الأدب الإنجليزي ومفاخره.
ـ «هوجو» (Victor-Marie Hugo) (١٨٠٢ ـ ١٨٨٥م) شاعر فرنسي وروائي ، بدأ الكتابة وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وأنتج عدداً ضخماً من المسرحيات والقصص والمقالات والدواوين.

(٢) النظرات .

وحيُ الهِجْرَة

للسيد مصطفى صادق الرافعي[1]

نشأ النبي ﷺ في مكة ، واستنبىء على رأس الأربعين من سنّه ، وغبر[2] ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله قبل أن يهاجر إلى المدينة ، فلم يكن في الإسلام أول بدأته إلاّ رجل وامرأة وغلام ، أما الرجل فهو ﷺ ، وأما المرأة فزوجه خديجة ، وأما الغلام فعليّ ابن عمه أبي طالب .

ثم كان أول النموّ في الإسلام بحرّ وعبد! أما الحر فأبو بكر ، وأما العبد فبلال . ثم اتسق[3] النموّ قليلاً قليلاً ببطء الهموم في سيرها ، وصبر

---

(١) السيد مصطفى صادق الرافعي أديب راسخ لا يزلّ ولا ينحرف ، وصَيْرَفي حاذق. كأن كلماته دنانير مصقولة ، يلفظ الدر وينفث السحر وإذا حكى حادثة قديمة أو بنى على أساس رواية تاريخية أو جملة فكأنما ردَّ التاريخ على أعقابه ، وإذا قلد ابن المقفع أو تنكّر به فكأنما أبرز نسخة خطية لكتاب «كليلة ودمنة» وناهيك بما قال الأمير شكيب أرسلان ما معناه أن العربية لم تنجب مثله من عدة قرون ، إلا أنه قد يغلو في التفلسف في الأدب ويُعقّد. توفي في العاشر من مايو سنة ١٩٣٧ م. له إعجاز القرآن ، ووحي القلم مجموع مقالات له ، ورسائل أدبية عديدة .

(٢) مكث بابه نصر .

(٣) انتظم .

الحر في تجلّده ، وكأن التاريخ واقف لا يتزحزح[١] ضيق لا يتسع ، جامد لا ينمو! وكأن النبي ﷺ أخو الشمس يطلع كلاهما وحده كل يوم ، حتى إذا كانت الهجرة من بعد فانتقل الرسول إلى المدينة ، بدأت الدنيا تتقلقل[٢] كأنما مرّ بقدمه على مركزها فحرّكها ، وكانت خطواته في هجرته تخط في الأرض ، ومعانيها تخط في التاريخ ، وكانت المسافة بين مكة والمدينة ، ومعناها بين المشرق والمغرب.

لقد كان في مكة يعرض الإسلام على العرب كما يعرض الذهب على المتوحشين يرونه بريقاً وشعاعاً ثم لا قيمة له. وما بهم حاجة إليه وهو حاجة بني آدم إلا المتوحشين وكانوا في المحادة[٣] والمخالفة الحمقاء. والبلوغ بدعوته مبلغ الأوهام والأساطير ، كما يكون المريض بذات صدره مع الذي يدعوه في ليلة قارّة[٤] إلى مداواة جسمه بأشعة الكواكب ، وكانت مكة هذه صخراً جغرافياً يتحطم[٥] ولا يلين. وكأنّ الشيطان نفسه وضع هذا الصخر في مجرى الزمن ليصدَّ به التاريخ الإسلامي عن الدنيا وأهلها.

وأُوذِيَ رسول الله ﷺ وكُذِّب وأُهين ، ورجف به الوادي يخطو فيه على زلازل تتقلب ،ونابذه[٦] قومه ، وتذامروا[٧] فيه ، وحضّ بعضهم بعضاً عليه ، وانصفق[٨] عنه عامة الناس ، وتركوه إلا من حفظ الله منهم. فأُصيب كبيراً باليتم من قومه ، كما أُصيب صغيراً باليتم من أبويه. وكان

---

(١) لا يتنحّى.
(٢) تتحرك.
(٣) المعاداة.
(٤) الباردة.
(٥) ينكسر.
(٦) خالفه وفارقه عن عداوة.
(٧) تحاضوا على القتال.
(٨) انصرف وارتد وردع.

لا يسمع بقادم يقدُمُ من العرب له اسم وشرف إلاّ تصدّى[١] له. فدعاه إلى الله وعرض نفسه عليه، ومع ذلك بقيت الدعوة تلوح وتختفي كما يشق البرق من سحابة على السماء: ليس إلاّ أن يرى ثم لا شيء بعد أن يرى.

فهذا تاريخ ما قبل الهجرة في جملة معناه، غير أني لم أقرأه تاريخاً، بل قرأت فيه فصلاً رائعاً من حكمة إلهية. وضعه الله كالمقدمة لتاريخ الإسلام في الأرض، مقدمة من الحوادث والأيام تحيا وتمرّ في نسق الرواية الإلهية المنطوية على رموزها وأسرارها، وتظهر فيها رحمة الله تعلم بقسوة، وحكمة الله تتجلى في غموض. فلو أنت حققت النظر لرأيت تاريخ الإسلام يتألّه في هذه الحقبة[٢]، بحيث لا تقرأه النفس المؤمنة إلا خاشعة كأنّها تصلي، ولا تتدبره إلا خاضعة كأنها تتعبد.

بدأ الإسلام في رجل وامرأة وغلام ثم زاد حرّاً وعبداً، أليست هذه الخمس هي كل أطوار البشرية في وجودها، مخلوقة في الإنسانية والطبيعة ومصنوعة في السياسة والاجتماع؟ فههنا مطلع القصيدة، وأول الرمز في شعر التاريخ.

ولبث النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة لا يبغيه قومه إلا شراً على أنه دائب[٣] يطلب ثم لا يجد، ويعرض ثم لا يُقبلُ منه، ويخفق[٤] ثم لا يعتريه اليأس، ويجهد ثم لا يتخونه[٥] الملل، ويستمر ماضياً لا يتحرف[٦]، ومعتزماً لا يتحول. أليس هذه هي أسمى معاني التربية الإنسانية أظهرها الله كلها في نبيه فعمل بها وثبت عليها؟ وكانت ثلاث عشرة سنة في هذا

---

(١) تعرض له.
(٢) المدة من الوقت ج حقب وحقوب.
(٣) المجتهد في العمل.
(٤) أخفق الرجل طلب حاجة فلم يدركها.
(٥) لايتنقصه.
(٦) لا ينحرف.

المعنى كعمر طفل وُلد ونشأ وأحكم تهذيبه بالحوادث حتى تسلمته[١] الرجولة الكاملة بمعانيها من الطفولة الكاملة بوسائلها.

أفليس هذا فصلاً فلسفياً دقيقاً يعلّم المسلمين كيف يجب أن ينشأ المسلم غناه في قلبه، وقوته في إيمانه، وموضعه في الحياة موضع النافع قبل المنتفع، والمصلح قبل المقلّد، وفي نفسه من قوة الحياة ما يموت به في هذه النفس أكثر ما في الأرض والناس من شهوات ومطامع؟

ثم أليست تلك العوامل الأخلاقية هي هي التي ألقيت في منبع التاريخ الإسلامي ليعبّ[٢] منها تيّاره[٣]، فتدفعه في مجراه بين الأمم، وتجعل من أخص الخصائص الإسلامية في هذه الدنيا ـ الثبات على الخطوة المتقدمة وإن لم تتقدم، وعلى الحق وإن لم يتحقق، والتبرؤ من الأَثَرة[٤] وإن شحّت عليها النفس، واحتقار الضعف وإن حكم وتسلط، ومقاومة الباطل وإن ساد وغلب، وحمل الناس على محض الخير وإن ردّوا بالشر، والعمل للعمل وإن لم يأت بشيء، والواجب للواجب وإن لم يكن فيه كبير فائدة، وبقاء الرجل رجلاً وإن حطّمه كل ما حوله؟

ثم هي هي البرهانات القائمة للدهر قيامَ المنارة في الساحل ـ على نبوة محمد ﷺ ـ تثبت ببرهان الفلسفة وعلوم النفس أنه روح، وغاياتها المحتومة بالقدر لا جسمٌ، ووسائله المتغلبة بالطبيعة، ولو كان رجلاً ابتعثته نفسه، لتمحّل[٥] الحيل لسياسته، ولأحدث طمعاً من كل مطمع ولركد مع الحوادث وهبّ، ولما استمر طوال هذه المدّة لا يتجه وهو فرد إلا اتجاه الإنسانية كلها كأنما هو هي.

---

(١) قبضته.

(٢) عب البحر عُباباً كثر موجه وارتفع بابه نصر.

(٣) موج البحر الهائج.

(٤) اختصاص المرء نفسه بأحسن الشيء دون غيره.

(٥) احتال في الطلب.

ولو هو كان رجل الملك أو رجل السياسة لاستقام والتوى[1] ولأدرك ما يبتغي في سنوات قليلة ولأوجد الحوادث يتعلق عليها ، ولما أفلت[2] ما كان موجوداً منه يتعلق به ، ولما انتزع نفسه من محله في قومه وكان واسطة فيهم ، ولا تركَ عوامل الزمن تبعده وهي كانت تُدنيه .

قالوا : إن عمه أبا طالب بعث إليه حين كلَّمَتْه قريش فقال له: يا بن أخي ! إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا فأبق[3] عليّ وعلى نفسك ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق . فظنّ رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء[4] وأنه خاذِلُه ومُسْلِمُه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال : يا عماه ! لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . ثم استعبر[5] ﷺ فبكى .

يا دموعَ النبوة ! لقد أثبتِّ أن النفس العظيمةَ لن تتعزّى[6] عن شيء منها بشيء من غيرها ، كائناً ما كان لا من ذهبِ الأرضِ وفضّتها ، ولا من ذهبِ السماء وفضّتها إذا وُضعتِ الشمس في يدٍ والقمرُ في الأخرى .

وكل حوادث المدة قبل الهجرة على طولها ليست إلا دليلَ ذلك الزمن على أنه زمنُ نبيّ ، لا زمنُ ملك أو سياسيّ أو زعيم . ودليل الحقيقة على أن هذا اليقين الثابت ليس يقين الإنسان الاجتماعي من جهة قوته بل يقين الإنسان الإلهي من جهة قلبه ، ودليل الحكمة على أن هذا الدين ليس من العقائد الموضوعة التي تنشرها عدوى النفس للنفس ، فها هو ذا لا يبلغ

---

(١) انعطف .

(٢) فات وسبق .

(٣) أبقي عليه رحمه وشفق عليه .

(٤) أي نشأ له رأي جديد فيه وهذا كما يقولون : رجع عن رأيه .

(٥) أي جرت عبرته .

(٦) لن تتصبر .

أهله في ثلاث عشرة سنة أكثر مما تبلغ أسرة تتوالد في هذه الحقبة ، ودليل الإنسانية على أنه وحي الله بإيجاد الإخاء العالميّ والوحدة الإنسانية ، أفلم يكن خروجه عن موطنه هو تحققه في العالم؟

ثلاث عشرة سنة ، كانت ثلاثة عشر دليلاً تثبت أن النبي ﷺ ليس رجل ملك ، ولا سياسة ، ولا زعامة ، ولو كان واحداً من هؤلاء لأدرك في قليل ، وليس مبتدع شريعة من نفسه وإلا لما غبر في قومه وكأنه لم يجدهم وهم حوله. وليس صاحب فكرة تعمل أساليب النفس في انتشارها ، ولو كان لحملهم على محضها[1] وممزوجها ، وليس رجلاً متعلقاً بالمصادفات الاجتماعية ، ولو هو كان لجعل إيمان يوم كفر يوم ، وليس مُصلح عشيرة يهذّب منها على قدر ما تقبل منه سياسة ومخادعة ، ولا رجل وطنه تكون غايته أن يشمخ[2] في أرضه شموخَ جبلٍ فيها دون أن يحاول ما بلغ إليه من إطلاله[3] على الدنيا إطلال السماء على الأرض ، ولا رجل حاضره إذ كان واثقاً دائماً أن معه الغد وآتيه ، وإن أدبر عنه اليوم وذاهبه ، ولا رجل طبيعته البشرية يلتمس لها ما يلتمس الجائع لبطنه ، ولا رجل شخصيته يستهوي بها ويسحر ، ولا رجل بطشه يغلب به ويتسلط ، ولا رجل الأرض في الأرض ولكن رجل السماء في الأرض.

هذه هي حكمة الله في تدبيره لنبيه قبل الهجرة! قبض عنه أطراف الزمن وحصره من ثلاث عشرة سنة في مثل سنة واحدة ، لا تصدر به الأمور مصادرَها كي تثبت أنها لا تصدر به ، ولا تستحق به الحقيقة على أنها ليست من قوته وعمله.

وكان ﷺ على ذلك هو في حدود نفسه وضيق مكانه يتسع في الزمن

(١) الخالص الذي لم يخالطه غيره ج مِحاض.

(٢) يعلو بابه فتح.

(٣) اشرافه.

من حيث لا يرى ذلك أحد ولا يعلمه ، وكأنما كانت شمس اليوم الذي سينتصر فيه قبل أن تشرق[١] على الدنيا بثلاث عشرة سنة مشرقة في قلبه ﷺ.

والفصل من السنة لا يقدّمه الناس ولا يؤخرونه لأنه من سَيْر الكون كله ، والسحابة لا يشعلون برقها بالمصابيح ومع النبي من مثل ذلك برهان الله على رسالته إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩] فحلّ الفصل وانطلقت الصاعقة وكانت الهجرة.

تلك هي المقدمة الإلهية للتاريخ ، وكان طبيعياً أن يطّرد التاريخ بعدها حتى قال الرشيد للسحابة ، وقد مرت به: أمطري حيث شئتِ فسيأتيني خراجك[٢]

* * *

(١) تضيء.

(٢) وحي القلم للرافعي

تحيَّــة الأنــدلُس

للأستاذ محمد كرد علي[(١)]

عشقتهـا ولـم تسعـدنـي[(٢)] الأيـام بـإمتـاع[(٣)] النظـر فـي جمـالهـا ، واستطلعت[(٤)] طلع أخبارها فروى الرواة عنها عجائب أقلها ممايستهوي

---

(١) هو محمد كرد علي بن عبد الرزاق التاجر. أصله من أكراد الأيوبية. وُلِد سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) ، أتم الدراسة الرشدية ودراسة الثانوية وأفاد من العلامة الشيخ طاهر الجزائري والسيد سليم البخاري والشيخ محمد المبارك وتعلم الفرنسية. وكتب وهو في السادسة عشرة من عمره وحرّر أول جريدة ظهرت في دمشق وكتب في مجلة «المقتطف» وبذلك امتدّت شهرته؛ وسافر إلى مصر وحضر دروس الشيخ محمد عبده ، وتولّى تحرير جرائد ومجلات في مصر ، وأصدر «المقتبس» اليومي من دمشق ، وزار باريس سنة ١٩٠٩م وبعد انتهاء الحرب العمومية الأولى دخل في رئاسة ديوان المعارف ، وفي سنة ١٩١٩م اقترح إنشاء مجمع علمي عربي واختير أول رئيس له ، واختير مرتين للوزارة طاف في خلالهما الأقطار الأوربية وتوفي في ٢ نيسان ١٩٥٣م وهو في السابعة والسبعين ، ودفن في مقبرة الباب الصغير بجوار قبر معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما.
كان الأستاذ محمد كرد علي صحفياً ومنشئاً مترسلاً بعمل الثقافة الغربية الجديدة ، والثقافة العربية القديمة ، يمتاز أسلوبه بالرقة من غير تفخيم وسهولة في التعبير من غير تكليف ويرسل النفس على سجيتها. ومن أعظم كتبه «خطط الشام» في ستة أجزاء واسعة ، و«الإسلام والحضارة العربية» في جزأين ، وهو كتاب يرجو به من الله خيراً للدفاع عن الإسلام وبيان محاسنه ، و«أمراء البيان» في جزأين و«كنوز الأجداد» وحقق كتباً كثيرة ونشرها مصححة ومنقحة.

(٢) أسعده على الأمر عاونه وأسعده الله جعله سعيداً.

(٣) التمتع.

(٤) استطلع رأي فلان واستطلعه رأيه نظر ما عنده من رأي والطِلْع بكسر الطاء الاسم من اطّلع. =

النفوس المتمردة ويأخذ بمجامع القلوب الجافة العاصية، تفردت بين بنات جيلها[١] بما خصّت به من معاني الحسن والإحسان فكثر الخطاب والطلاب، وهي لا تفتأ تبدي لمن أم حماها صنوفاً من اللطف والظرف وتخاطب البعيد والقريب بثغر باسم وترشقهم[٢] بنظرات ، لا تخلوا من غمزات تريد بها الهزوءبنكبات الزمان، والاستخفاف بسخافة[٣] الإنسان.

عشقتها منذ عهد الصبا ، وعشق الصبا شديد ، لما قرأته الباصرة من وصف سجاياها وحملته إلى البصيرة ففكرت فيه ، وتدبرت خوافيه وحواشيه ، وزادني غراماً بها ما سمعت من أن أناساً قبلي أصيبوا بما أصبت به ، وعدّوا النزول في حماها ولو ساعة سعادة العمر ، وحسنة الدهر. العشق فنون وعشقي كان لأرض الأندلس عليها من كل عربي ألف ألف سلام على مر العصور والأيام.

عشقتها لكثرة ما تلوت من آثار من درجوا[٤] على أديمها[٥] من أبنائها وغير أبنائها ، وكانت المخيّلة تتصورها في مظاهر صح بعضها يوم اللقاء، وآخر كان بالطبع كالخيال ، في الأندلس تمّ نحو نصف مدنيّة العرب الباهرة، وقضوا في أرجائهـا نحو ثمانية قرون كانت بجملتها وتفصيلها عهد السعادة والغبطة[٦]، ودور ظهور النوابغ[٧] وأرباب الإبداع[٨] والقرائح[٩]. وكم من أمة من أمم الحضارة الحديثة على كثرة ما اقتبست

---

(١) الصنف من الناس ج أجيال وجيلان.
(٢) تحد النظر إليهم بابه نصر.
(٣) الضعف.
(٤) مشوا.
(٥) سطح الأرض وظهرها.
(٦) حسن الحال ، المسرة.
(٧) جمع نابغة أي الرجل العظيم الشأن.
(٨) الإجادة في العمل.
(٩) جمع قريحة وهي ملكة يقتدر بها الإنسان على الإجادة في نظم الشعر أو الكتابة.

وأوجدت ، لم يتيسر لها حتى يوم الناس هذا أن تبلغ مكانة الأندلس ، فكان هذا الصقع [١] في منقطع أرض المغرب وآخر أرض العرب بين البحرين المحيط والمتوسط برهانا أزليا على فرط استعداد العرب للعلوم والصناعات وناعياً على من أنكروا لإفراطهم في الشعوبية [٢] فضل هذه الأمة على الحضارة .

أقام الغربيون ضروباً من المصانع من بيع [٣] وأديار ومتاحف [٤] ومكاتب ومدارس وجسور وسددو وطرق ومعابر وتماثيل ونصب [٥] وبرك ، لكنهم لم يضعوا على كثرة تفننهم في هذا الشأن منذ عهد اليونان والرومان طرزاً من البناء يكلمك ولا لسان له فيقول ، وينظر إليك فيعمل في شغاف [٦] قلبك ولا عين له فينظر ، ويطربك بتساوق [٧] نغماته من دون ما صنّاجة [٨] ولا وتر ولا ألحان .

مصانع كثيرة بقيت بقاياها في طليطلة وقرطبة وإشبيلية وغرناطة سلبتها الفتن والجهل تارة شطراً من بهائها ، وسالمتها حيناً فأبقت عليها ، أو رممت شيئاً مما أضرت به عوامل الأيام وإن لم تعد إليها نضرتها الأولى .

سلام على أرض طيبة خصها الخالق بأجمل الهبات الطبيعية ، فلم ينقصها زكاء تربة في نجادها [٩] ووهادها [١٠] ، ولا مياها عذبة دافقة من

---

(١) بالضم الناحية ج أصقاع .

(٢) العصبية للجنسية والقومية وغالباً يستعملون هذه الكلمة لتصغير شأن العرب وعدم تفضيلهم على العجم .

(٣) جمع بيعة معبد للنصارى واليهود ويجمع أيضاً على بِيْعات وبِيَعات .

(٤) جمع متحف وهو المكان الذي يوضع فيه الأشياء النادرة والنفيسة والمراد به دار الآثار .

(٥) كل ما جعل علماً .

(٦) بالفتح غلاف القلب ، حبة القلب ج شُغُف وأشغفة .

(٧) التتابع .

(٨) آلة غناء .

(٩) جمع نجد ما أشرف من الأرض وارتفع .

(١٠) جمع وهدة الأرض المنخفضة .

هضابها [١] على شعابها [٢] ولا أشجاراً باسقة وزروعاً خصبة في سهلها ووعرها [٣] ، ولا اعتدال مواسم وجمال إقليم ، ومصحة [٤] أبدان ، زانها الصانع السماوي بإيجاده كما زانها الصانع الأرضي بإبداعه ، وما أجمل الطبيعي والصناعي ، إذا تواعدا إلى الاجتماع في خير البقاع .

ليالي الأنس . في جزيرة الأندلس ، وأيامها الغرّ ، في سالف الدهر ، فيك قامت سوق الآداب ، بما ارتفعت به رؤوس العرب على غابر الأحقاب ، وكمل في ربوعك [٥] الذوق العربي حتى ظن بعضهم أنك نسيت كل شيء ما عدا الأدب ، وما هذه الآثار الأبدية إلا ثمرة علمك وصناعاتك وزراعاتك .

سلام على أرواح علمائك . وفلاسفتك ونوابغك وأدبائك وأمرائك ، ما كان أرجح أحلامهم ، يوم سنوا للعرب سنة الأخذ من السعادتين ، وشرعوا لهم شرعة المدنية المثلى [٦] ، حملوا فأجملوا من الشرق إلى الغرب تعاليم في الدين والدنيا ، كانت صفوة العقول إلى عهدهم فأدهشوا من عاصرهم ، وخلفوا من الأجيال ، ونسجوا لهم على غير مثال نسيجاً رقيقاً ، كتبوا لهم فيه سجلاً رقت حواشيه ، ونظاماً متقناً في حكم الإنسان للإنسان ، يطبع في تالية إذا تدبره طبيعة حسن الذوق والطبع ، وينشئه

---

(١) جمع هضبة ما ارتفع من الأرض ويجمع أيضاً على هِضَب وهَضْب وجج أهاضيب

(٢) جمع شِعب ما انفرج بين الجبلين .

(٣) المكان الصلب ضد السهل ج أوعُر ووعور وأوعار ووُعورة .

(٤) بفتح الصاد وكسرها ما يجلب الصحة ويحفظها وأرض مصحة بريئة من الوباء .

(٥) جمع ربع الدار ويجمع أيضاً على رباع وأربع وأرباع .

(٦) مؤنث الأمثل وهو الأفضل .

على أرق مثال من الخيال في الكمال والجمال ، مثال حيّ من حضارة العرب في القارة الأوربية عامة ، وفي شبه جزيرة إسبانيا خاصة ، يفتخر به العرب على اختلاف أصقاعهم وحق لهم الفخر ، لأن الأندلس العربية الإسلامية كانت وما زالت مدرسة الغرب المسيحي ، نزل طلابه في قرونهم المظلمة على علماء العرب فأوسعوهم من مكارم أخلاقهم، وأكرموا مثواهم بما علموهم ، وما أسخى العربي على طالب قراه[١] والمعتصم بحماه.

فلما جاء دور الانحطاط ، وأزف[٢] رحيل ذلك الرعيل[٣] من أرض كان الغرب كله يعدهم فيها أثقل دخيل ، أبقوا لهم تلك المصانع ناطقة بفضلهم معلمة لهم معاني ليست في معاجم[٤] نفائسهم ، ومكذّبة على غابر الأيام من ينكر المحسوس ، ويغمط[٥] الحق لصاحبه ، ويستهويه الغرض ، فيشوّه وجه الحق الجميل.

إلى اليوم لم يزل في الغربيين أناس يصعب عليهم الاعتراف بمزية للعرب بباعث من بواعث النفوس اللئيمة ، فلا يكادون يصدقون حتى بما ورد عن هذه الأمة في كتبهم دَع كتبها من أعمال هذه الحضارة العربية ، وما ذاك الأثر الضئيل الباقي من عاديات[٦] الأندلس العربية إلا برهان جلي على ما هناك من عدل شامل ، وعقل كامل ، ونظر نافذ ، ويد صَناع ، أربت[٧] على ما عمل من مثلها في سائر البقاع والأصقاع[٨]

* * *

---

(١) بالكسر النزل والضيافة.
(٢) قرب بابه سمع.
(٣) اسم كل قطعة متقدمة من خيل أو طير أو رجال ج رِعال.
(٤) جمع معجم وهو القاموس أي كتاب اللغة.
(٥) غمطه احتقره وازدرى به بابه ضرب وسمع يقال غمط الحق جحده.
(٦) الأشياء القديمة الباقية.
(٧) فاقت وزادت.
(٨) حاضر الأندلس وغابرها للأستاذ كرد علي.

اختلاف أنظار المسلمين في الإسلام والقرآن

للدكتور أحمد أمين [١]

ومسألة أخرى كبيرة الأهمية في عصرنا [٢] الذي نؤرخه تلك هي أن تصور كثير من المسلمين للإسلام في ذلك العصر يختلف عن تصور المسلمين له في العصور الأولى . فحياة العربي الساذجة البسيطة السهلة تعقدت ، والديانات المختلفة تسربت ، والأعاجم الذين كانوا وثنيين [٣] أو مانويين [٤] أو نحوهم دخلوا في الإسلام ولم تُنَقَّ رؤوسهم من كل ما علق بها من الديانات القديمة وقد عاشوا في المدنيات المركّبة المعقدّة ؛ فنظروا إلى الإسلام بعيونهم لا بالعين العربية الأولى . وحق ما يقال : إن الأمم وإن اتحدت ديناً فكل أمة يختلف نظرها في تفاصيل دينها عن الأمم الأخرى ، وهي تنظر إلى الدين من خلال تاريخها ونظمها الاجتماعية ، من خلال أديانها المتعاقبة ، ومن خلال لغاتها وتقاليدها ، ومن خلال ثقافتها وتربيتها ــ إلى غير ذلك . كل المسلمين يقولون : «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ولكن نَظَرُ العالِمِ الواسعِ الثقافةِ إلى الإسلام

(١) تقدمت ترجمته في الجزء الأول .

(٢) العصر العباسي .

(٣) عبدة الأوثان .

(٤) أتباع ماني .

غيرُ نظر العامي الجاهل ، وكلاهما غير نظر الصوفي ، وهكذا . بل نظر المسلمين من المصريين ـ على وجه العموم ـ إلى الإسلام يختلف في تفاصيله عن نظر الهنود المسلمين والأتراك المسلمين ، لأن كل أمة تَدَاولُ [١] عليها من العوامل ما يخالف غيرها . وذلك ـ من غير شك ـ خالف بين أنظارهم وعقلياتهم والناس كانوا ينظرون إلى الإسلام نظراً يختلف باختلاف العصور . يعجبني في ذلك ما رواه البخاري والترمذي عن أنس بن مالك (المتوفى سنة ٩٠هـ) قال : ما أعرف شيئاً مما كان على عهد رسول الله ﷺ ، قيل : الصلاة ؟ قال : أليس صنعتم ما صنعتم فيها [٢] . فأنس رضي الله عنه قد شاهد عصر النبي ﷺ وعصر الأمويين ومع قرب العصرين لاحظ اختلاف الأنظار والأعمال ، فكيف إذا شاهد العباسيين وَمَنْ بعدهم . قد كان الإسلام سهلاً يسيراً ، يقول رسول الله ﷺ : إن هذا الدين يُسرٌ ولن يُشادَّ الدينَ أحد إلا غلبه ، ويقول : لا تُشدِّدوا على أنفسكم فَيُشَدَّدَ عليكم فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشُدِّدَ عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديار رهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم [٣] . وكان القاسم بن محمد يلبس الخزَّ وسالم بن عبد الله يلبس الصوف ويقعدان في مسجد المدينة فلا ينكر هذا على هذا ولا ذا على هذا [٤] . وكان هناك نَزعة لبعض الصحابة في الغلو في الدين فقاومها رسول الله ﷺ كالذي كان ببنه

---

(١) تعاقب

(٢) باب الاعتصام بالسنة

(٣) أخرجه أبو داود .

(٤) العقد الفريد (١/٢٥٠)

وبين عبد الله بن عمر ، فقد بلغه أنه لا ينام ولا يُفْطِر ولا يؤدي حقوق أهله إنهماكاً في العبادة ، فقال له رسول الله ﷺ : يا عبد الله ! إن لك في رسول الله أسوة حسنة ! فرسول الله يصوم ويفطر ويأكل اللحم ويؤدي إلى أهله حقوقهم . يا عبد الله ! إن لله عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقاً .

وبعد هذا رأينا تشدداً في دين ، وابتداعاً لتقاليد ، وغلوا في نواح مختلفة ، منهم من يلبس الصوف ويلتزمه . ومنهم من يغلو في الإنكار على لابسيه . قدم حماد بن سلمة البصرة ، فجاءه فَرْقَدٌ السَّنْجِيُّ وعليه ثياب صوف فقال له حماد : دَعْ عنك نصرانيتك [١] ! وقال ابن السَمَّاك لأصحاب الصوف : والله ! لئن كان لباسكم وفقاً لسرائركم فقد أحببتم أن يطّلع الناس عليها ، وإن كان مخالفاً لقد هلكتم . وكان بعض الموالي يتشدد في الوضوء والطهارة ، ويغلو في ذلك غلواً لا يعرفه العرب فكان العرب يكرهون منهم ذلك [٢] إلى كثير من أمثال هذا .

وهناك ما هو أهم من هذا ، ذلك أن الناس في عصر النبي ﷺ وبعده كانوا يقرأون القرآن أو يسمعونه فيُعنَونَ بتفهم روحه فإن عني علماؤهم بشيء من وراء ذلك فما يُوضِّح الآيةَ من سبب للنـــزول أو استشهاد بأبيات من أشعار العرب تفسر لفظاً غريباً ، أو أسلوباً غامضاً [٣] . وأكثر ما روي لنا في الطبري وغيره عن الصحابة في تفسير القرآن هو من هذا القبيل ، وما عرفنا في العصر الأول انحياز [٤] الصحابة إلى مذاهب دينية وآراء في الملل والنحل . فلما كان في آخر العصر الأموي رأينا الكلام في القدر ،

---

(١) العقد الفريد (١/٢٥٠) .

(٢) انظر العقد (٢/٩١) .

(٣) أي خفياً .

(٤) أي ميلان الصحابة .

ورأينا المتكلمين فيه ينظرون إلى القرآن من خلال عقيدتهم . فمن قال بالجبر أوَّل كل آيات الاختيار ، ومن قال بالاختيار أوَّل كل آيات الجبر . وسال بعد ذلك السيل في العصر العباسي فصارت كل طائفة وأصحاب كل مذهب ينظرون إليه من خلال مذاهبهم . ولئن كان هذا النظر أفاد من ناحية الجدال بين المسلمين وغيرهم والدعوة إلى الإسلام _ كما بينا في موقف المعتزلة _ فقد أساء بإضعاف الروح الدينية وما كانت توحيه من إحياء القلب . أصبح علماء الكلام والمذاهب الدينية ينظرون إلى القرآن من خلال الفلسفة اليونانية ، وذلك إن كان فيه مران عقلي وتوسيع لبعض مناحي الفكر ؛ ففيه إضعاف لقوة الروح وحماسة القلب ، سواء في ذلك المعتزلة والأشعرية [١] والماتريدية [٢] فكلهم استخدموا الأدلة اليونانية في العقائد الدينية ، وهي غير الطريقة التي نحاها القرآن الكريم في الدعوة إلى الدين . لقد كادوا بعملهم هذا يقطعون الصلة بين العقل والقلب . وينمّون الناحية العقلية على حساب القوة العاطفية . إن شئت فاقرأ _ لإثبات قدرة الله — قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة النحل : ٦٧-٦٩) . ثم اقرأ في كتب علم الكلام — الجدل بين الأشعرية والماتريدية في أن القدرة صفة أزلية تتعلق وفق الإرادة ، بمعنى صحة صدور الأثر والتمكن من الترك كما يقول الماتريدية ، أو هي صفة تؤثر في المقدورات عند تعلقها بها كما يقول الأشاعرة ، فكم من الفرق

---

(١) أتباع الامام أبي الحسن الأشعري رحمه الله .

(٢) أتباع الإمام أبي المنصور الماتريدي رحمه الله .

بين المنهجين والروحين . أهم غرض للقرآن الكريم أن يحيي الشعور ببيان علاقة الإنسان القوية بالله والعالم ، وأن يعمل على ذلك بتغذية الحياة الروحية ؛ أما المتكلمون فأرادوا أن يصلوا إلى ذلك من طريق المنطق ، وشتان بين الطريقين ! فحياة المنطق لا تملأ القلب حماسةً ، ولا تبعث في النفس حرارة إيمان ، إنما تفعل ذلك الحياةُ الروحيَّةُ .

لقد كثرت المذاهب والنحل في ذلك العصر كثرةً مُدْهِشةً ، حتى يصفهم المأمون فيقول : وطائفةٍ قد اتخذ كل رجل منهم مجلساً ، اعتقد به رئاسةً ، لعله يدعو فئة إلى ضرب من البدعة ، ثم لعل كل رجل منهم يعادي من خالفه في الأمر الذي عقد به رئاسة بدعةً ويشيط بدمه ، وهو قد خالفه من أمر الدين بما هو أعظم من ذلك إلا أن ذلك أمر لا رئاسة له فيه فسالمه عليه ... إلخ . ونستعرض أسماء الفرق والمذاهب في كتاب «الملل والنحل» للشهرستاني فندهش لكثرتها واختلافاتها . وهذه كلها كانت تنظر إلى القرآن الكريم بعين مذهبها وتفسره بما يلائمه فالمعتزلي يُطَبِّق القرآن على مذهبه في الاختيار والصفات والتحسين والتقبيح العقليين ، ويؤول ما لا يتفق ومذهبه ، وكذلك يفعل الشيعي . وذلك يختلف كل الاختلاف عن نظر المسلمين الأولين إلى القرآن .

كان القرآن يدعو إلى الإيمان من طريقين . طريق النظر إلى العالم نفسه وطريق التاريخ . فهو يرى أن نظر الإنسان إلى العالم يدعم [١] إيمانه ويقوي يقينه ، ففي الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، والإبل كيف خلقت ، والسماء كيف رفعت ،

---

(١) يعين ويقوي .

والجبال كيف نصبت ، والأرض كيف سطحت ، آيات على الله كما أن في الأحاديث التاريخية عن الأنبياء وأممهم ما يدعو إلى الإيمان ، وهذا النظر يناسب الناس على اختلافهم . ففي استطاعة العالم والجاهل أن ينال الإيمان من هذا الطريق ، والدعوةُ إلى الحياة الروحية وحدَها هي الدعوة التي يمكن أن تُوجَّه إلى الناس كافة . فلما أُولِع [١] العلماء بالفلسفة اليونانية في العصر العباسي حولوا اتجاه القرآن نفسه إلى نوع من الثقافة العقلية والبراهين المنطقية ودرسوا القرآن على النحو الذي يدرسون به الحساب والهندسة والهيئة فكان في ذلك إضرار بالدين من ناحيته القلبية . ونتج عن ذلك تعقيد العقيدة الإسلامية السهلة السمحة ، حتى صار يمثِّلها تعاليم المتكلمين من المعتزلة والأشعرية ، وأصبح أخيراً يمثلها «العقائد النَّسَفية» و «متن السُّنُوسية» وشعر بهذا النقص قوم من الصوفية المخلصين فدعوا إلى الإسلام من منهجه الأول ، ولكن سرعان ما تحول بعضهم أيضاً إلى الفلسفة يستمد منها ، كما سنبينه إن شاء الله .

وكان كلما تعمق المسلمون في العلوم والفلسفة نظروا إلى القرآن من خلالها ، فإذا أتت آية الرعد والبرق شرحوها بكل ما وصل إليه علمهم في الظواهر الجَوِّية ، وإذا أتت آية في النجوم والسماء طبَّقوا ما علموا من علم الهيئة ، وإذا أتت إشارة في آية إلى جبر أو اختيار عدَّدوا مذاهب المتكلمين فيها ، وإذا أتت مسألة نحوية أفاضوا في الخلافات النحوية بين البصرين والكوفيين . وعلى الجملة فقد كدّسوا [٢] كل ما عرفوا من علوم حول الآيات القرآنية ،

---

(١) أي أحبوا واشتغلوا .

(٢) جمعوا وجعلوا بعضها على بعض .

وتضخَّم ذلك على توالي الأزمان ، كما ترى بعد في تفسير الفخر الرازي ، ففيه كل شيء وصل إليه المسلمون إلا شيئاً واحداً ، هو شرح روح القرآن .

ولكن إن كانت هذه نقطة ضعف في الفلسفة والعلوم من ناحية الدين فقد كان لها فضل كبير من الناحية الدينية أيضاً ؛ ذلك أن الناس واجهوا مشكلة كبرى في العصر العباسي ، رأوا مدنيات عظيمة لأمم مختلفة . ورثتها المملكة الإسلامية ، ورأوا عادات مختلفة لأمم متعددة في جميع مناحي الحياة . ورأوا معاملات تجارية ونُظُماً للأحوال الشخصية تأثرت بديانات الأمم المختلفة . وهكذا في كل ناحية من النواحي الاجتماعية ، سواء كانت نواحي اقتصاديةً أم سياسيةً أم قانونيةً . ورأوا _ من ناحية أخرى _ أن الإسلام أتى بأصول يجب المحافظة عليها ، وأتت فيه نصوص كذلك على جزئيات يجب مراعاتها ، ولكن في كل عصر تحدث من الأقضية والأحداث ما لم يكن حدث من قبل ، لم يرد فيه نص . فكان أمام العلماء أن ينظروا بإحدى العينين إلى قواعد الإسلام وتعاليمه ، وبالعين الأخرى إلى المدينة العباسية ، وما جدّ فيها من مظاهر وأحداث شتى وكان لا بد من أن يطبقوا قواعد الإسلام على تلك الأحداث _ ولم يكن هذا بالأمر الهيِّن _ نعم عرضت هذه المشكلة في تاريخ الإسلام من قبل العباسيين ، قد واجهها عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن فُتِحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار ، ودخلت أمم مختلفة العقائد والنظم واللغات تحت حكم الإسلام ، وبذل من الجهد هو ومن حوله من العلماء ما لا يُقدَّر ، وضرب مثلاً صالحاً لمن يأتي بعده . ولذلك نصَّ المشترعون [1] على

(١) أي المقننون .

العمل برأيه في كثير من نظام الفتح والجهاد والضرائب [١] ونحو ذلك وعَدُّوه مثلهم الذي يحتذى . وواجه هذه المشكلة الأمويون ، فحوَّروا في نظم الدواوين والنقود ونحوها ، فخطوا بذلك خطوة ثانية . ولكن المشكلة أمام العباسيين كانت أعقد لأن دهشة الفتح قد زالت ، والأمم التي دخلت في الإسلام استقرَّت ونسلت جيلاً جديداً ، ورث من آبائه وورث من المسلمين ، والعباسيون ـ كما رأينا قبل ـ لم يشاءوا أن يعيشوا عيشة ساذجة كمن قبلهم من الأمويين وتغلّبت العناصر الأخرى كالفُرْسِ ذَاتِ الحضارة المركبة ، فكان من ذلك كله أن أرادوا أن يضعوا نظماً كاملة شاملة وأن يواجهوا هذه المشاكل ويحلوها حلاً بقوانين ومبادئ ، لا بأمر جزئي ولا برأي فرعي . فأعانتهم العلوم في ذلك العصر على هذا كله ، ولولا العلوم ما استطاعوا . فرأينا أبا يوسف في كتابه «الخراج» يضع النظام المالي لدولة الرشيد . فيقرِّر نظامَ الأرضِ ومسحِها [٢] وما يؤخذ منها ، وكيف يكون ذلك ، ويضع نظام الضرائب غير الأرض مما يُخرِج البحرُ ونحوه ، ويضع نظام الريّ من الآبار والأنهار . ونجد الأئمة الأربعة وغير الأربعة يجتهدون في وضع القوانين من مالية وجنائية وما يسمى بالأحوال الشخصية ، وغير الفقهاء يضعون نظماً إدارية كنظام الشرطة والجند والجيش . وقد تتعارض نظم الفقهاء مع نظم الإداريين فيُنظَر في التوفيق بينهما ، ويوضع نظام البريد والمصانع والتجارة ونحوها . كل هذه حركاتٌ كانت في الدولة العباسية نشيطة قوية وكانت خاضعة في مبادئها

---

(١) جمع ضريبة وهي الجزية .

(٢) أي مساحتها .

للقواعد الأساسية للإسلام . وبذلك نستطيع أن نقول : إنه في هذا العصر قُنِّن الإسلام وأصبح هو النظام لحكومة ممدّنة _ بالمعنى العصري _ نعم كان هناك خروج عن الإسلام في بعض التصرفات ، وكان هناك نقص في تنفيذ الأحكام القضائية ، وكان هناك نقص في إعطاء الأحكام الفقهية سُلطةَ القانون ، ولكن هذا لا ينقض ما ذكرنا من أن الروح العامة _ في التشريع ووضع النظم _ كانت تتقيد بأصول الإسلام وأنه لولا اشتغال المسلمين بالعلم في فروعه المختلفة ما كان يمكن ذلك .

وهذا الإسلام بتعاليمه ونظم حكمه أظلّ كل الأمم الإسلامية على اختلاف أنواعها من آريين وساميين وحاميين يخضعون لسلطانه ، ويجرون في نظامهم وقضائهم ومعاملاتهم على ما قنن من أحكامه . ومن أجل هذا أخذت الفروق بين الأمم تتقلّص [1] ويحل محلها وَحدةٌ إسلاميةٌ . ومن أجل ذلك أيضاً كانت هذه الوحدة متجلية في العصر العباسي أكثر مما كان في العهد الأموي ، ودخل الإسلام في الحياة العامة وفي السياسة وفي الإدارة وتأثر التشريع بعادات الناس ، وتأثرت عادات الناس بالتشريع .

كان الإسلام ديناً في مكة ، وكان ديناً وحكماً في المدينة ، وكان ديناً وحكماً ومدنية في بغداد وسائر المملكة الإسلامية في العصر العباسي . ولعل هذا من الأسباب التي دعت إلى دخول كثيرين في الإسلام في ذلك العصر ، فقد كان الناس يتنفسون إسلاماً أينما حلّوا : في البيت ، في الشارع ، في المحكمة ، في المعاملات التجارية ، في الضرائب ، في التعليم ، في كل مرافق الحياة — [2] .

---

(١) تنضم وتتزوي .

(٢) ضحى الإسلام .

الصِّـدِّيـق

للأستـاذ عباس محمود العقاد[١]

أقبل الصدِّيق رضي الله عنه على الإسلام وهو عالم بالذي هو مقبل عليه. لم يقل له أحد ولا قال هو لنفسه إن الأمر أهون مما توقع ، وإن البلاء بعقيدته التي تحول إليها أخف مما وجد ، فلم يجد نصباً وكان يرجو الراحة ، ولم يجد غرماً وكان يرجو المنفعة ، ولم يجد عداءً من قومه وكان يرجو منهم المودة ، ولم يجد خطراً وكان يرجو السلامة ، وإنما دخل في شيء يتوقع ما هو ملاقيه فيه ، ويراه دون حقه من المصابرة والحفاظ والاحتمال لأنه الدين ، لأنه الحياة الفانية والحياة الباقية ، لأنه الحق ودونه الباطل ، والهدى ودونه الضلال.

---

(١) وُلِدَ الأستاذ عباس محمود العقّاد بأسوان سنة ١٨٨٩م ، ودرس في مدرسة أسوان الابتدائية ثم الثانوية وكان نهماً بالقراءة فتثقف بنفسه واشتغل بالوظائف الحكومية ثم اشتغل بالصحافة ثم بالتعليم ، وانتخب عضواً لمجلس النُّواب ثم عُيّن عضواً لمجلس الشيوخ ، فعضواً لمجمع اللغة العربية.
كان العقاد محباً للعزلة ، كثير القراءة ، كثير الكتابة ، يكتب في كل موضوع وفي كل غرض ، شديد الكراهية للإشتراكية بأنواعها ، حسن الرد على شبهات المستشرقين ، مُجيد الكتابة في الشخصيات وتحليلها ، له ما يزيد على ستين مؤلفاً في الأدب والنقد والتاريخ والفلسفة ، وقد استن طريقة جديدة في كتابة التاريخ والسير بعبقرياته المعروفة. يمتاز العقاد بالعمق وسعة الدراسة والثقافة والتحليل العلمي ، يكاد يكون صاحب مدرسة في الأدب الحديث ، مات سنة ١٩٦٤م.

فما أقبل إنسان قط أصدق من هذا الإقبال ، وما تأهب[١] إنسان قط لبلاء في سبيل ضميره وربه أعظم من هذه الأهبة[٢] ، وما نفس الصدق عند إنسان قط أغلى من هذه النفاسة. فهي سلامة النفس وسلامة الآباء والأبناء وسلامة المال والعتاد وسلامة الدنيا بأسرها يعلقها بكلمة صدق من رجل صادق وإن أناساً ليصدقون غاية التصديق ثم لا يخاطرون في سبيل الصدق برزق يوم ولا براحة ساعة. إنه الصدِّيق!

وما وصف بكلمة واحدة هي أجمع لخلائقه من كلمة الصدِّيق!

ولقد رأينا أناساً من الناقدين يستنكرون على عربي في الجاهلية أن يُقوِّم الهداية الدينية بهذه القيمة التي لا تعلوها قيمة.

ولكنهم مخطئون! لأن العربي الجاهلي عرف «الحق» وعرف بيع الحياة في سبيل «الحق» كما يراه حق الجوار أو حق العرض أو حق الشرف والذمار.

وأبو بكر خاصة كان ممن يرعون الحقوق ويكفلونها لأهلها ، وكان ممن يكرهون البغي وينقمونه على أهله.

فإذا عرف «الحق» الأكبر فغير عجيب أن يرعاه هذه الرعاية وأن يكفله هذه الكفالة ، وهو مهيأ لعرفانه بكرم الخليقة وطيب النحيزة[٣] واستقامة الفطرة وصفاء القريحة.

وقد عاش أبو بكر في زمن كان عقلاؤه في كل أرض يتطلعون إلى هداية من السماء ، ويخيل إلينا أن انتظار الهداية من السماء لم يطل في زمن من الأزمان ، ولا سيما الزمن الذي يعم فيه الفساد وتعيا به حيلة الإنسان. وحسبنا أننا بعد الإسلام رأينا أناساً يترقبون «المهدي» الذي ينشر

---

(١) تهيأ واستعد.
(٢) أي العُدَّة.
(٣) الطبيعة.

العدل كلما عم الجور ، ويأمر بالعرف كلما فشا المنكر ، ويهدي إلى سواء السبيل كلما استحكم الضلال.

وقبل البعثة المحمدية كان أناس ينتظرون الهدى من نسل داود أو ينتظرونه من نسل إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهم الصلاة والسلام!

وسمع أبو بكر ما سمع من هذا في رحلته إلى اليمن ورحلته إلى الشام وفي حديثه مع ورقة بن نوفل ، وحديثه مع المنكرين لظلام الجاهلية والمستشرفين[١] إلى كل نور جديد.

وهذا محمد بن عبد الله ﷺ يدعوه دعوة إبراهيم ـ دعوة الأب الأكبر الذي يشمل العرب جميعاً ، ومن فوقها دعوة الله التي تعم جميع الناس.

فمن أولى منه بالدعوة! ومن أولى منه بالتصديق!

إنه استشار خلقه القويم فهداه ، وإن مشورة العقل وحدها لتهديه هذه الهداية حيثما وازن وقابل ، فأحسن الموازنة والمقابلة بين جميع ما ينتظم فيها من شؤون ذلك الزمان.

كان أبو بكر في اهتدائه إلى الإسلام هو أبو بكر في نشأته وسليقته وجملة أحواله وأحوال قومه وعهده.

وكان أبو بكر في إسلامه هو أبو بكر فيما وصف به وفيما جد عليه من إيمان المصدق بدينه وحماسة المعجب ببطله.

كان إسلامه إسلام الرجل الكريم السمح الودود ، يستمسك بالصدق والتصديق ويخلص في الإعجاب بالبطل الذي هداه إخلاصاً لاشية[٢] فيه ، فهو يلين في كل حالة ، ويشتد في حالة هو فيها أشد الأشداء: مرجعها إلى كل ما اتصل عنده بقوة التصديق وقوة الإعجاب.

---

(١) المتطلعين.
(٢) كل لون يخالف معظم لون الشيء.

قال بعد مبايعته بالخلافة: «إنما أنا متبع ولست بمبتدع» فجمع إسلامه أجمع صفة وأحسنها في هذه الكلمات.

وربما عرض له من الأمر ما ليس يتضح فيه طريق الاتباع، فيخرج إلى الناس يسألهم ثم يقول: «الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ علينا سنة نبينا».

فلا يبتدع إلا بعد استقصائه[1] كل مرجع من مراجع الاتباع.

وفي هذا هو شديد غاية الشدة، بعيد من اللين والهوادة[2] غاية البعد، وهو الرجل الذي اتسم[3] في حياته كلها باللين والهوادة.

فتصديق المؤمن وإعجاب المعجب ببطله العزيز عليه، هما تفسير كل شدة يشتدها الصديق الحليم الودود.

هو شديد في تسيير جيش أسامة رضي الله عنه، لأن النبي ﷺ ولاّه وأمر بتسييره، وما يكون له أن ينزع رجلاً استعمله رسول الله ﷺ «ولو تخطفته الذئاب ولم يبق في القرى أحد غيره».

هو شديد في حرب الردة، لأنه لا يترك عقالاً[4] كان رسول الله ﷺ يأخذه من المرتدين.

وإذا رأيناه يتردد بين الهوادة والشدة في محاسبة بعض الناس فالشدة التي مرجعها التزام جادة الرسول والاقتداء بقدوته في كل شيء هي أقرب التفسيرين إلى فهم علمه، وهي أغلب في طبعه من اللين والهوادة، على اشتهاره بهما في كل ما عدا ذاك.

ويتبين لنا مناط الشدة واللين عنده في جناية واحدة استصغر فيها

---

(١) المبالغة في الطلب.

(٢) اللين والرفق.

(٣) أي جعل لنفسه سمة يعرف بها.

(٤) حبل يشد به البعير في وسط ذراعه.

العقوبة على امرأة واستكبر العقوبة نفسها على امرأة أخرى. وذلك إذ كتب إليه المهاجر بن أبي أمية المخزومي يقول له إن مغنيتين تغنت إحداهما بثلب رسول الله ﷺ وتغنت الأخرى بثلب المسلمين ، فقطع يديهما ونزع ثناياهما لتكفّا عن الغناء ، فخطأه أبو بكر لأن الأولى كانت أحق بالقتل ، وأن الثانية كانت أحق بالصفح وأوصاه أن يقبل الدية وأن يحذر المثلة «فإنها مأثم ومنفرة إلا في قصاص».

ففي تعظيم النبي ﷺ كل شدة قليلة ، وفي أمر غيره كل صفح جائز بل مستحب محمود ، وليست هي المحبة التي يعوزها التفكير قد فرقت هذه التفرقة بين العقابين ، لأن هجو النبي ﷺ قدح في لباب الدين وأس النظام ، وهجو المسلمين وزر قد يأتيه المسلم في خلاف بينه وبين قومه ، ولكنها على هذا حادثة قد عرضت لنا طبع أبي بكر في حالتيه: لين وهوادة ، وإعظام لا لين فيه ولا هوادة ، وإنما هي الشدة كأشد ما تكون.

وربما تهيب[1] الأمر فيه نفع لا شك فيه إذا لم يسبقه النبي ﷺ إلى صنعه أو صنع مثله ، لفرط اتقائه أن يصنع ما ترك أو يترك ما صنع ، كما تهيب جمع القرآن في المصحف حين أشار به عمر رضي الله عنه ، فقال: «كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟» ثم استصوب جمعه لما فيه خير.

فسماحة أبي بكر رضي الله عنه كانت طبيعة فيه لأنه طبع على الرفق والأناة والأخذ بالحيطة واستبقاء المودة.

وشدة أبي بكر كانت طبيعة فيه ، لأنه طبع على تصديق من هو أهل لتصديقه والإعجاب بمن هو أهل لإعجابه ، ولن ترى شدة في إنسان كشدّة الرجل السمح في تنزيه صفيه وحبيبه وموضع إعجابه ، ولا حرصاً

---

(١) خاف.

في إنسـان كحرصـه علـى القـدوة بذلك الصفـي الحبـيب المعجب بـه ، واجتناب التخلف عنه والحيد عن طريقه.

وفيما عدا هذه الشدة لم يكن أبو بكر إلاّ حلماً غالباً ورحمة غالبة ، ولم تنفرج أمامه طريقان: إحداهما إلى العفو ، والأخرى إلى البطش إلاّ أخذ بالأولى وأعرض عن الثانية.

شاوره النبي ﷺ في أسرى بدر فقال: «يا نبي الله! هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان! فإني أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذنا منهم قوة ، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً»(١).

وشاوره حين اجتمعت قريش لصده وصد المسلمين عن البيت فنادى بالناس: «أشيروا أيها الناس عليّ! أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ، فإن ياتونا كان الله قد قطع عيناً من المشركين ، وإلا تركناهم محروبين».

فقال أبو بكر: «يا رسول الله! خرجت عامداً لهذا البيت ، لا تريد قتال أحد ولا حرباً ، فتوجه له فمن صدنا قاتلناه»... يقاتل من صده عن البيت ولا يقاتل من لم يصده.

وشيع(٢) جيش أسامة فلم ينس أن يوصيه بالضعفاء وهو ذاهب إلى القتال:

«لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتيكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها

---

(١) أي أعواناً.
(٢) خرج ليودع.

شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم[١] بالسيف خفقاً. اندفعوا[٢] باسم الله!».

وليس أكثر من الشواهد التي تشهدها على قوة الدين في نفوس من آمن به إلا أننا لا نعلم بينها شاهداً أصدق في الدلالة على تلك القوة من أن يدين المرء نفسه بالدين أمام أعدائه ، كما يدينها به أمام إخوانه في اعتقاده. ومن شواهد ذلك في إسلام الصديق أنه كره المثلة بأعدى الأعداء في ميدان القتال ، فلما بعث إليه عمرو بن العاص برأس بنان بطريق الشام أنكر فعله أشد إنكار ، ولم يخف من إنكاره قول عقبة بن عامر له: إنّهم يصنعون بنا بل قال: أيستنون بفارس والروم؟ لا يحمل إليّ رأس. إنما يكفي الكتاب والخبر.

فهو مسلم مع من يحب ومع من يكره ولو في قتال. وهذا بلاغ الدين القويم في نفس إنسان[٣]

* * *

(١) اضربوهم.
(٢) امضوا.
(٣) عبقرية الصديق.

ذِكْرَى المَوِلد

للأستاذ أحمد حسن الزيات [١]

ذِكرى مولد الرسول ﷺ هي ذكرى قِيامة الروح وولادة الحرية ونشور الخلق ، فكأن مولده كان البعث الأول طهَّر النفس وعمَّر الدنيا وقرَّر الحقَّ للإنسان ، كما أن البعث سيُخلِّص الروحَ ويبتدئ الآخرة ويعلن الملك لله .

---

(١) ولد في ٢ من أبريل عام ١٨٨٥م في إحدى ضواحي القاهرة ، وانتقل إلى القاهرة والتحق بالجامع الأزهر وتلقى العلوم الأزهرية على أساتذته من أساطين العلم منهم السيد على المرصفي والشيخ محمد عبده ، قرأ على الأول «ديوان الحماسة» «والكامل» للمبرد و«الأمالي» لأبي علي القالي «والمفصل» للزمخشري ، وعلى الثاني كتابي «دلائل الإعجاز» و «أسرار البلاغة» للجرجاني . ثم التحق بالجامعة المصرية القديمة وتلقى تاريخ الأدب العربي والفرنسي على المستشرقين الإيطالين «كويدي» و «فريننو» ودرس الحقوق الفرنسية في مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة وأتم تعليمه العالي للحقوق في جامعة باريس ، وعاد وتقلب في وظائف تدريس الأدب العربي في القاهرة وبغداد ، حتى استقر بالقاهرة وأصدر سنة ١٩٣٣م مجلة «الرسالة» التي بقيت تخدم الأدب العربي عشرين سنة كانت فيها ملتقى الكُتَّاب النابغين ومدرسة الأدباء الناشئين ، وتولى رئاسة تحرير مجلة الأزهر ، وهو عضو في المجمع اللغوي العربي بالقاهرة والمجمع العلمي بدمشق .

وقد أساء الأستاذ الزيات إلى أدبه وشهرته إساءة كبيرة حين قارن بين الوحدة المحمدية والصلاحية والوحدة الناصرية ، وصرح بفضل الأخيرة على الأوليين ، وتنبأ ببقائها وخلودها ، ويا ليته مات قبل أن يصدر عن قلمه هذا المقال المخذول ، ونعوذ بالله من الحور بعد الكور . مات سنة ١٩٦٩م .

كان العالم يومئذ يضطرب في رقِّ المادَّة وعُبودية الشهوة وسلطان القوة ، فلم يكن للمَثَل الأعلى وَجود في ذهنه ، ولا للغرض النبيل أثر في سعيه ، ولا للشعور الإنساني مجرى في حِسِّه ، ولا للسُّمُوِّ الإلهي معنىً في نفسه ، إنما كان حيوانيا شهوته الغَلَب ، مادِّياً غايته اللذة ، أنانياً شريعته الهوى ؛ ثم أسرف في البهيمية حتى جعل كل أنثى مباحة لكل ذكر ، في المادية حتى اتخذ إلهه من خشب أو حجر وفي الأنانية حتى قتل أولاده خشية الإملاق [١] والضرر . فلما أتى النبي العربي فتح في غار حراءٍ باباً إلى السماء ، تنـــزَّلت منه الملائكة والروح على هذا الهيكل المُنحلّ والجسد المعتلّ ، فنفخت فيه سِرَّ الحياة ومعنى الخلود وحقيقة الله . وحينئذ شعر سليل الأرض أن له أسباباً إلى السماوات رثَّت [٢] على طول غفلته ، وأن له حياة خيراً من هذه الحياة استسرّ علمها في جهالته ، فتشوَّف [٣] إلى الأفق البعيد ، واستشرف إلى السمت العالي ، وأرسل نظره وراء النظر النبوي من فوق الجبل في صمت حراء المفكر ، وفي سكون الوادي الملهم ، وفي غيابة الفضاء الرهيب ، يفكر في الملكوت الدائم ، ويُسبِّح للجلال القائم ويفنى في الوجود المطلق .

كانت العقيدة قبل محمد ﷺ أن تموت الروح أو يموت الجسم ، وأن يحكم الله أو يحكم الإنسان ، وأن يظهر الدين أو تظهر الدنيا . أما تقرير الصلة بين المعنى والذات ، وبين المصباح والمشكاة ، وبين الحياة الأولى والحياة الأخرى ، وبين الإرادة السفلى والإرادة العليا ، فذلك هو القصد الإلهي من رسالة محمد ، والتنفيذ المحمدي لإرادة الله — عليه صلوات الله وسلامه .

وكان العالم قبل يوم محمد يرسف [٤] في عبودية عقلية تقتل التفكير ،

---

(١) الإفلاس .

(٢) بليت .

(٣) تطلّع .

(٤) يمشي مشية المقيد .

وعبودية جسمية تعقل التصرف ، فلم يكن للأسرة نظام ، ولا للقبيلة قانون ، ولا للأمة دستور ، ولا للعقيدة شريعة ، إنما هو طغيان عاسف[١] يتحكم في الفرد ويسيطر على الجماعة ؛ فالأب يملك على بنيه الموت والحياة بحكم الطبيعة ، والشيخ يفرض على عشيرته الأمر والنهي بمقتضى العرف ، والملك يخضع نفوس الشعب باسم الدين ، والكاهن ينسخ عقول الناس بقوة الجهل ، والناس أجمعون عدا هؤلاء الأربعة اتباع وأوزاع[٢] وهمل.

فلما بُعث الرسول الكريم رحمة للعالمين بعث الحرية من قبرها ، وأطلق العقول من أسرها ، وجعل التنافس في الخير ، والتعاون على البر ، والتفاضل بالتقوى؛ ثم وصل بين القلوب بالمؤاخاة ، وعدل بين الحقوق بالمساواة ، ودخل بين النفوس بالمحبة ، حتى شعر الضعيف أن جند الله قوته ، والفقير أن بيت المال ثروته ، والوحيد أن المؤمنين جميعاً إخوته ، ثم محا الفروق بين أجناس الإنسان ، وأزال الحدود بين مختلف الأوطان ، فأصبحت الأرض كلها وطناً مشاعاً[٣] ، والعالم كله أسرة متحدة ، لا يهيمن على علائقها إلا الحب ، ولا يقوم على مرافقها إلا الإنصاف ، وليس فيها بين المرء وخليفته حجاب ، ولا بين العبد وربه واسطة.

يا رعى الله ذكراك! المقدسةَ يا غار (ثور)! لقد كنتَ مبعث الحرية كما كان غار (حراء) مبعثَ الروح فأنت في جبل الخلاص هو في جبل التجلي.

وكان العالم قبل مولد محمد ﷺ يعاني تفكك الخلق وتحلل الرجولة

---

(١) شديد.
(٢) الجماعات ولا واحد لها.
(٣) مشتركاً.

وتغلب الأثرة وتحكم السفاهة ، فسطوة اليد تسرف على العدل ، وعصبية الدم تبغي على الحق ، وسلطان المال يجني على الإنسانية ، وسورة الترف[١] تعتدي على المروءة ، فالتجارة بخس وتطفيف[٢] ، والعهود ، نقض وتسويف ، والناس يعيشون عيش الوحش: تنافر وتدابر واحتيال واغتيال[٣] وشهوة!! فلما ظهر البطل العظيم والإنسان الكامل كانت شمائله وأفعاله رسالة أخرى في الخلق كان تطبيقاً لقوانين الدين بالمثل ، وتعليماً لآداب النفس بالعمل ، وتنظيماً لغرائز الحياة بالقدوة ، ثم فعلت شخصيته ودعوته في نفوس رويت بالدماء ونغلت[٤] بالعداء وعاشت على الفرقة فألّفهم على المودة وجمعهم على الوحدة ، ثم جعل لهم من كتاب الله نوراً ومن سنته دستوراً ، ورمى بهم فساد الدنيا فأصلحوا الأرض ومدنوا العالم وهذبوا الأرض.

ذلك ما تلقيه ذكرى مولد الرسول في رُوع[٥] المؤمن العَقول الذاكر! فليت شعري ماذا يجد اليوم في نفسه وفي قومه من روح محمد وحرية محمد وخلق محمد! . . . ألسنا نعيش اليوم صوراً كقطع الشطرنج ، وأتباعاً كعبيد الأرض ، وهمجاً[٦] كهمج الجاهلية؟ وهل كان ذلك يكون لو أننا اتخذنا من أحكام الله منهاجاً ، ومن كلام رسوله علاجاً ، ومن حياة السابقين الأولين قدوة؟

إن ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الإنسانية من أسر الأوهام وطغيان الحكام وسلطان الجهالة ، فما أجدَرَ القلوب الواعية الحرة على

---

(١) التنعم.
(٢) أي نقص لكيل قليلاً.
(٣) إهلاك من حيث لا يدري.
(٤)- أي فسدت.
(٥) القلب.
(٦) الرعاع من الناس الحمقى.

اختلاف منازعها ومشارعها أن تخشع إجلالاً لذكرى رسول التوحيد والوحدة ، ونبي الحرية والديمقراطية وداعية السلام والوئام[١] والمحبة[٢] .

* * *

(١) الموافقة.

(٢) وحي الرسالة.

العَقيدَة وَالحَيَاة

للأستاذ سيد قطب[١]

عمر الفرد الفاني محدود ، وأيامه على الأرض معدودة ، وهو بالقياس إلى هذا الكون الهائل الذي يعيش فيه ذرة تائهة لا مستقر لها ولا قيمة ، وعمره بالقياس إلى الزمن الهائل من الأزل إلى الأبد ومضة[٢] برق أو غمضة عين ولكن هذا الفرد الفاني ، هذه الذرة التائهة ، هذا

---

(١) هو سيد قطب بن الحاج قطب إبراهيم ، هاجر جده السادس الفقير عبيد الله من الهند إلى مصر وتديرها. وُلد في سنة ١٩٠٦م في مديرية أسيوط وحفظ القرآن وانتقل إلى القاهرة والتحق بدار العلوم في سنة ١٩٢٩م ونال منها شهادة في التعليم واشتغل في وزارة المعارف التي أرسلته سنة ١٩٤٩م إلى أمريكا لدراسة نظم التعليم هناك ورجع منها سنة ١٩٥١م وقد رأى إخفاق الحضار الغربية وميلها إلى الإنهيار واعتزل الوظيفة وانقطع إلى التأليف والكتابة. الأستاذ قطب من أركان الأدب الإسلامي الحديث والدعوة الإسلامية العلمية ، كان من أساتذة النقد الأدبي ومن المتجددين من مدرسة الأستاذ العقاد حتى أثرت فيه دراسة القرآن أثناء تأليفه «التصوير الفني في القرآن» و«مشاهد القيامة في القرآن» وأكرمه الله بالإيمان الجديد القوي بدينه وصلاحه للخلود والقيادة والسيادة فدعا إلى ذلك على بصيرة وكتب وألف واتصل بدعوة الإخوان المسلمين حتى اعتقل في سنة ١٩٥٤م على أثر حل الجماعة . له «العدالة الاجتماعية في الإسلام» ، و «معركة الإسلام والرأسمالية» ، و «الإسلام والسلام العالمي» ، و «في ظلال القرآن» . واعتقل في عهد الرئيس جمال عبد الناصر وحوكم وعُذِّبَ . مات شهيداً سنة ١٩٦٦م .

(٢) لمعة.

اللَّقَى[١] الضائع يملك في لحظة أن يتصل بقوة الأزل والأبد وأن يمتد طولاً وعرضاً في ذلك الكون الهائل أن يرتبط به في أعماقه وأمشاجه[٢] بوشائج[٣] من القربى لا تنفصم[٤] أن يشعر أنه من تلك القوى الهائلة وإليها ، أنه يملك أن يصنع أشياء كثيرة وأن ينشىء أحداثاً ضخمة وأن يؤثر في كل شيء ويتأثر ، يملك أن يحس الوجود في الماضي والاستقرار في الحاضر والامتداد في الآتي ، يملك أن يستمد قوته من تلك القوة الكبرى التي لا تنضب ولا تنحسر ولا تضعف وأنه لقادر إذاً على مواجهة الحياة والأحداث والأشياء بمثل قوتها وأقوى ، فما هو باللقى الضائع ولا بالفرد العاجز وهو يستند إلى قوة الأزل والأبد وإلى ما بينه وبينها من وشائج ، تلك وظيفة العقيدة الدينية وذلك أثرها في النفس والحياة وذلك سرقوة العقيدة في النفس وسر قوة النفس بالعقيدة ، سرتلك الخوارق التي صنعتها العقيدة في الأرض وما تزال في كل يوم تصنعها،الخوارق التي تغير وجه الحياة من يوم إلى يوم وتدفع بالفرد وتدفع بالجماعة إلى التضحية بالعمر الفاني المحدود في سبيل الحياة الكبرى التي لا تفنى،وتقف بالفرد القليل الضئيل[٥] أمام قوى السلطان وقوى المال وقوى الحديد والنار. فإذا هي كلها تنهزم أمام العقيدة الدافعة في روح فرد مؤمن وما هو الفرد الفاني المحدود الذي هزم تلك القوى جميعاً ، ولكنها القوة الكبرى الهائلة التي استمدت منها تلك الروح ، والينبوع[٦] المتفجر الذي لا ينضب ولا ينحصر ولا يضعف ، وما تملك عقيدة أخرى غير العقيدة الدينية أن تصل الكائن الفاني بقوة الأزل والأبد وأن تمنح الفرد الضعيف ذلك العون

---

(١) الشيء الملقى المطروح ج ألقاء.

(٢) المشيج المختلط المكوَّن من عناصر مختلفة باختلاف مواد الغذاء.

(٣) الوشيج اشتباك القرابة ج وشائج.

(٤) لا تنكسر.

(٥) الضئيل الحقير.

(٦) عين الماء.

والسند ، وأن تصغر في عينيه قوى الجاه والمال وقوى المركز والسلطان ، وقوى الحديد والنار ، وأن تصبره على الحرمان والأذى ، وتقدره على الصبر والكفاح[1] وتدفعه إلى الموت الذي يخلق الحياة والفناء الذي يمنح الخلود ، والتضحية التي تورث النصر ـ ومن ثم قيمتها الكبرى في حياة الأفراد وحياة الجماعات سواء ومن ثم ذلك الإصرار الذي نصره على مواجهة مشكلاتنا الاجتماعية ومشكلاتنا القومية ومشكلاتنا العالمية بحلول تنبع من عقيدتنا الدينية ، إن هذه العقيدة قوة هائلة في أيدينا وقوة عميقة في كياننا قوة لا يتخلى عنها صاحبها في زحمة الصراع إلا أن يكون به حمق أو سفه.

ونحن نواجه صراعاً ضخماً في الداخل وفي الخارج ، نواجه قوى هائلة متكتلة أكبر من طاقتنا المجردة فإذا كانت عقيدتنا تسعفنا في هذا الصراع الضخم بقوى حقيقية واقعة وبحلول عملية واقعة كذلك؛ فأي ضمير يملك أن يفرط في تلك القوى وأن يتخلى عن هذه الحلول لمجرد أنها نابعة من تلك العقيدة؟

إن بعض النظم الأخرى قد تقدم لنا بعض الحلول لبعض المشكلات في بعض الأحيان ولكن قيمة العقيدة التي ندعو إليها ليست مجرد تقديم الحلول الوقتية للمشكلات الوقتية إن قيمتها أن تقدم هذه الحلول وتقدم معها القوة الضامنة لتحقيقها،وحمايتها قوة الدافع الفطري العميق للعقيدة الدينية ، ذلك الدافع الذي لا تملأ فراغه في النفس الإنسانية فكرة فلسفية ولا مذهب اجتماعي ولا نظرية اقتصادية. ذلك أنه أعمق في النفس البشرية من مستوى الفكر والمذاهب والنظريات ، إنه جوعة فطرية لا يسدها إلا الإيمان جوعة كجوعة الجسد إلى الطعام والشراب وسائر الضرورات ، وكم يخطىء الذين يخدعهم خمود هذا الدافع فترة أو

(١) مواجهة العدو.

تواريه ، فيحسبونه قد مات ، ويحسبون أنهم يستطيعون ملء فراغه في نفوس الأفراد والجماعات ، بمذاهب فلسفية أو نظريات اقتصادية أو أفكار اجتماعية وسرعان ما يتبين لهم خطؤهم حينما تنفض العقيدة الخامدة من حيث لا يحسبون ، فتأتي بالخوارق في حياة الفرد وفي حياة الجماعة هذه العقيدة التي كانت منذ لحظة خامدة هامدة لا توحي بأمل ولا ينبعث منها رجاء وإن هي إلا فترة كموت يحسبها الجاهلون موتاً ، ويدرك العارفون أنها طور من أطوار النفس البشرية المليئة بالمسارب والمداخل وبالمنعرجات والدروب.

تلك الخوارق التي تأتي بها العقيدة الدينية في حياة الأفراد وفي حياة الجماعات لا تقوم على خرافة غامضة ولا تعتمد على التهاويل والرؤى ، إنها تقوم على أسباب مدركة وعلى قواعد ثابتة ، إن العقيدة الدينية فكرة كلية تربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخافية ، وتثبت روحه بالثقة والطمأنينة ، وتمنحه القدرة على مواجهة القوى الزائلة والأوضاع الباطلة بقوة اليقين في النصر وقوة الثقة في الله ، وهي تفسر للفرد علاقاته بما حوله من الناس والأحداث والأشياء وتوضح له غايته واتجاهه وطريقه وتجمع طاقاته وقواه كلها وتدفعها في اتجاه. ومن هنا كذلك قوتها قوة تجميع القوى والطاقات حول محور واحد وتوجيهها في اتجاه واحد تمضي إليه مستنيرة الهدف في قوة وفي ثقة وفي يقين ، والشخصية الإنسانية السوية وحدة متماسكة ، فهي في حاجة إلى عقيدة موحدة تصدر عنها في كل اتجاه وتستلهمها في الشعور والسلوك وتستهديها في مواجهة الكون والحياة وترجع إليها في كل صغيرة وكبيرة. وفضل هذه العقيدة في حياة كل إنسان أن تكون نقطة ارتكاز تتجمع إليها خيوط حياته ونشاطه ، فلا تتمزق شخصيته وتتبعثر ولا يدركها القلق والحيرة والاضطراب وكلما قويت هذه النقطة واشتدت صلاتها بالخيوط المنبثة هنا وهنالك في حياة الفرد ونشاطه كانت شخصيته أقوى لأنها أكثر تجمعاً وكانت خطواته أهدى

لأنها أوحد طريقاً ، والعقيدة التي تتسع لكل ألوان النشاط الإنساني هي عقيدة أفضل وأكمل من العقيدة التي تنظم بعض ألوان النشاط وتقصر عن بعضها ، وكلما ثاب الفرد في نشاطه كله إلى عقيدة واحدة كان ذلك أفضل له وأيسر من أن يرجع في ألوان نشاطه إلى عقائد متفرقة . إن وحدة العقيدة حينئذٍ تحقق وحدة الشخصية دون أن تجور على ألوان نشاطه المتعددة ودون أن تضيق مجال النشاط أو تحده ودون أن تمزقها طرائق قدداً[1] وتوقع بينها الاضطراب أبداً،والعقيدة الروحية التي لا رأي لها في السلوك الاجتماعي والعلاقات الاقتصادية والنظم العالمية كالنظرة الاجتماعية التي لا رأي لها في الاعتقاد الروحي والتنظيم الدولي كالفكرة الفنية التي لا علاقة لها بالسلوك أو الاعتقاد أو النظام،كلها محاولات ناقصة لا تملك أن تنظم للإنسانية حياتها كاملة ولا أن تحقق للشخصية الإنسانية التماسك والاتساق ، إن الفرد كالجماعة في حاجة ملحة إلى عقيدة تتسع لكل ألوان النشاط الحية وتهيمن على اتجاهاتها جميعاً لتدفع بها كلها في طريق الإنشاء والبناء والنماء،والفترات التي يهتدي فيها الفرد أو تهتدي فيها الجماعة إلى مثل هذه العقيدة وتستجيب لها استجابة كاملة وتحققها في واقع الحياة. . . هي الفترات التي تحقق فيها البشرية ما يبدو كأنه معجزات وما يصعب تفسيره إلا على ضوء الوحدة التي تجمع الطاقة وتصونها عن التبدد والتمزق وتدفع بها كلها في اتجاه واحد كالتيار الجارف وكالسيل الجبار.

والعقيدة الإسلامية هي المثال الواحد الذي عرفته الإنسانية في تاريخها الطويل في هذا المجال إنها العقيدة التي تتسع فتشمل كل نشاط الإنسان في كل حقول الحياة فلا تقصر مهمتها على حقل دون حقل ولا على اتجاه دون اتجاه إنها لا تدع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، فما لقيصر وقيصر

---

(١) جمع قِدة بكسر القاف وهي الفرقة.

ذاته في العقيدة الإسلامية كله لله وما لقيصر حق ليس للفرد من رعاياه وأنها لا تتولى روح الفرد وتهمل عقله وجسده أو تتولى شعائره وتهمل شرائعه ، أو تتولى ضميره وتهمل سلوكه وأنها لا تتولاه فرداً وتهمله جماعة ولا تتولاه في حياته الشخصية وتهمل نظام حكمه أو علاقات دولته.

إنها الفكرة الكاملة الشاملة التي تمتد خيوطها في الحياة الإنسانية امتداد الشرايين في الكائن الحي وامتداد الأعصاب[١]

* * *

(١) الإسلام والسلام العالمي.

عَـالِـم

للأستاذ علي الطنطاوي[١]

حدثني بعض مشايخي ممن رأى بعينه وسمع بأذنه. قال:

وقعت الصيحة في «حيّ الميدان» أجل أحياء دمشق وأكبرها، صبيحة يوم من أيام سنة ١٨٣١ بأن إبراهيم باشا قادم لزيارة عالم الشام الشيخ سعيد[٢] الحلبي في مسجده وإبراهيم باشا من قد علمت في بطشه وجبروته. ومَنْ يَدُهُ إلى السيف أسرع من لسانه إلى القول وعينه إلى النظر... ومن كان جبار سورية وفاتحها وسيدها، فطار الفزع بألباب الميدانيين، وهم فرسان دمشق وحماتها، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ماذا يصنعون؟ إنهم يعلمون أن الشيخ لا يقيم وزناً لأحد من أبناء الدينا، فلا يبجل[٣] سلطاناً لسلطانه، ولا يوقر غنياً لغناه، ولا يقيس الناس بما على جسومهم من ثياب، ولا بما في صناديقهم من مال، ولا بما يبتزون[٤] من أسوال الدولة. ولكن يقيسهم بما في نفوسهم من فضائل، وما في قلوبهم من إيمان، وما في رؤوسهم من علم، وإذا نظر

---

(١) تقدمت ترجمته في الجزء الأول.

(٢) كان عالم الشام قبل طبقة الشيخ محمود الحمزاوي والشيخ محمد طنطاوي والشيخ بكر العطار وأصحابهم.

(٣) لا يوقر.

(٤) يستلبون.

الناس من خارج فرأوا الطبل سميناً عظيماً ، نظر من داخل فرآه خالياً حقيراً . . .

وكانوا يخشون أن يسوء ذلك من شأنه الباشا ، ويودون لو رجوا الباشا ، ولكن كيف يصلون إليه وهو في قصره ، حوله الحجاب والأعوان ، والجند بالسلاح ، ومن حوله الموت ألواناً وأشكالاً ، يحمي حماه ، ويحرس أبوابه . . . ويتمنون لو رجوا الشيخ ، ولكن الشيخ أعز من مئة ملك جبار ، تحميه هيبته ، ويحرسه تقواه ، وتحف به الملائكة واضعة له أجنحتها .

ولم يكونوا يخافون أن ينال الشيخ سوء فهذا شيء تحيله عقولهم لما استقر فيها من إجلال الشيخ وإكباره ولا تراه أبصارهم ، لأنهم يقضون عن آخرهم قبل أن تراه أبصارهم ولكنهم كانوا يخشون الشيخ على الباشا ، ويخشون الباشا على نفوسهم .

ومضوا يقيمون معالم الزينة ، ويبنون أقواس النصر ، ويرفعون الرايات على طريق البطل الفاتح ، ويقطفون[١] أزهى أزهار الغوطة لينثروها عليه . . . فما كان الأصيل[٢] حتى تم كل شيء ، وأقبل الباشا في الموكب[٣] الفخم ، والجند والسلاح والدبدبة . . . . حتى انتهى إلى باب المسجد وكان باباً صغيراً ، فاعترض الباشا كأنه يقول له : ارجع أو ارجع دنياك . إنك تدخل بيت الله بشراً خاضعاً ، أما أن تكون تزوير إله . . . بألف عبد ، وألف ثوب ، فلا! إنه لا يجتمع ميراث النبوة التي جاءت بالتوحيد والمساواة ، ببقايا الجاهلية التي قامت على الشرك والتمييز بين الناس ، إلا محى أحدهما . . . . فانظر هل محا باطل حقاً؟

---

(١) يجنون .
(٢) الوقت بين العصر والمغرب .
(٣) الجماعة مشاة وركباناً .

قال الراوي: وتردد الباشا هنيهة[١] يفكر ، ثم أبعد أعوانه وترجل ودخل المسجد منفرداً ، وكان الشيخ جالساً على حصير قد وضعت فوقه حشية وكان مادّاً رجله فسمعته يقول:

. . . والمرء إذا خاف الله ، وصدق في مخافته ، خافه كل شيء ، لأنه لا يرى كبيراً إلا صغّره عنده أن الله أكبر . . . الله أكبر . إن لهذه الكلمة سراً إلهياً ولكن المسلمين استعجموا فلا يرددون منها إلا حروفها فارغة من المعنى ، وما فرض الله على المسلم أن يقولها كل يوم(٨٥) مرة[٢] أقل ما يقولها ويسمعها من المنارة ثلاثين مرة[٣] . . . إلا ليعلم أنه لا كبير في الدنيا وأن من كان مع الله لم يبال شيئاً: لا الملك ولا المرض ولا الوحش ، فلو أن المسلم عرف معنى هذه الكلمة وهو يقولها ما عرف الذل ولا الجبن ولا الكسل.

قال رجل من طرف الحلقة:

فإن قتله الملك يا سيدي الشيخ ، أو أماته المرض؟

فقال الشيخ: سبحان الله! وهل يهاب المسلم القتل؟ أو يبغض الموت؟ إن الموت شديد لأنه انقطاع اللذات ، وخسران الدنيا ، ولكنه لا يكون بهذا المعنى إلا عند الكافر الذي يعيش في الدنيا ، ويستمتع بملاذها ، أما من كان يتهيأ فيها للعيشة الخالدة ويقيم فيها كالمستعد للسفر ، ويرقب ساعته كما يرقب المسافر ساعة القطار ، ويراه حين يمضي ليلقى ربه ، كالآيب إلى وطنه حين يذهب ليلقى أهله وصحبه . . . من كان هذا شأنه لا يرى في الموت موتاً ، وإنما يرى فيه

---

(١) ساعة يسيرة.
(٢) إن صلى الصلوات المفروضة ١٧ ركعة كل يوم وذلك ما لا يكون المسلم مسلماً إلا به.
(٣) في كل أذان ست مرات.

ولادة جديدة ، وابتداء حياة ، وقد حفظنا من مشايخنا : أن أفضل الشهداء رجل يقول كلمة حق عند إمام جائر فيقتله بها . . .

وكان الباشا قد وقف على الحلقة منتفخاً ، مصعِّراً خده ، شامخاً بأنفه ، نظر إليه الشيخ رحمه الله فلم يتغير ولم يبدُ عليه أنه رأى فيه أكثر من رجل وأشار إليه أن اجلس كما كان يفعل بغيره ، فلم يتمالك الباشا أن جلس . . . ونظر في الحاضرين يقلب فيهم بصره ، يفتش عن شيء أضاعه فيهم عن الخضوع والإكبار اللذين تعود أن يراهما حوله دائماً ، ينتظر أن يقوموا له ، وأن يقفوا بين يديه صفاً ، ولم يدر أن القوم كانوا في غير هذا . لم يدر أن الشيخ قد علا بهم ، حتى جعلهم يطلون[1] على الدنيا من شرفة طيارة ، أو من قطع السحاب فيرون الأرض كلها كمفحص قطاة[2] ، ولا يرون في الباشا العظيم إلا نملة . . . فمن ذا الذي يحفل بنملة . . .

وأجال الباشا نظره فيهم حتى علق برجل الشيخ ، وكانت ممدودة نحوه ، فأثار مرآها كبرياءه وسلطانه ، ورأى فيها علامة تعجب أضيفت إلى عظمته وجلاله ، إضافة سخرية وتهكم ورآها كبيرة في عينه ، وحس كأنما هي في عينه ، ونظر في الحاضرين ألم يجرد واحد منهم سيفه يتقرب إلى الباشا بقطّها[3]؟ وكان الباشا ينظر بعين بصره المادية لم تفتح بعد عين بصيرته المعنوية ، فيفاضل بين قصره وسريره ، ومكان الشيخ وحصيره ، وبين جنده وأعوانه ، وتلاميذ الشيخ وإخوانه ، فيوقن أن دنيا الشيخ كلها لا تثبت لحظة لسيفه الذي لم تثبت له دنيا الخليفة العثماني (إمبراطور الشرق) . . .

وكان كالأسد الذي زعموا أنه مر على قنبلة من القنابل

---

(١) يشرفون.

(٢) الموضع الذي تفحص القطاة التراب عنه لتبيض فيه.

(٣) بقطعها.

المدمرة[١]. . . ملقاة في أجمته فعجب منها وحقرها وقال: ويحك أي حيوان أنت؟ يا للضعف والمهانة! أين الأنياب؟ أين المخالب؟ أين. . . أين. . .؟ يا للهوان ماذا يصنع بأهله؟ قالوا ثم ركلها[٢] برجله، فانفجرت القنبلة وانفجرت القنبلة من فم الشيخ فرجع يتكلم.

قال: ومن عجيب صنع الله في الإنسان أن خلقه حيواناً كالحيوان، ولكنه وضع فيه ملكاً ووضع فيه شيطاناً، فمن كان همّه من دنياه لذتا بطنه وفرجه، وابتغاهما من حل ولم يعرف غيرهما لم يكن فيه إلا الحيوان، فهو يرتع كما يرتع الحمار، ويتبع غريزته كما يتبع. ومن كان همه اللذة من حل وحرمة ومن كان لا يبالي ما اجترح من السيئات لم يكن فيه إلا الشيطان، وكان العقرب والخنفساء[٣] خيراً منه، لأن مصيرهما إلى التراب ومصيره إلى النار. ومن كان همه أن يعيش في هذه الحياة كما يعيش في مدرسة يتلقى فيها أساليب الكمال، ليعيش من بعد في أساليب الكمال، فهو الإنسان حقاً. . . .

ومن عجيب صنع الله في الإنسان أنه وضع في نفسه الملَك، فلا يحتاج مهما كان ضالاً فاسقاً ظالماً إلا إلى تنبيه الملك في نفسه، ليطرد الشيطان، ويقود الحيوان، فلست أنت الذي يعظه ولكنه يعظ حينئذٍ نفسه، وهذا معنى قولهم:

لا تنتهي النفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

وذلك ثوابه في الجنة، والجنة لا تكون بالتشهي والأمل، ولكن بالجد والعمل. ولو أن تلميذاً أمضى عامه في لعبه ولهوه، ثم تمنى النجاح، أكان ينجح؟ ولو أن صياداً ألقى بندقيته فلم يضرب بها ورمى شبكته[٤] فلم

---

(١) المهلكة.
(٢) ضربها برجله.
(٣) دويبة سوداء أصغر من الجُعَل كريهة الرائحة.
(٤) شركة الصياد.

ينصبها ، ثم حلم بالقنيصة ، أكانت أحلامه تعدو في أثر الغزال حتى تأتي به مكتوفاً؟ أم كانت السمكة تأتيه وحدها وعلى ظهرها الملح والفلفل تقول له : كُلني؟

قال رجل : ولكن القلوب قست يا سيدي الشيخ! فما علاجها؟

قال : إن الشيطان لا يأتي إلا من إشعاره الكمال ، فأشعر نفسك النقص ، وذكرها في الصحة المرض ، وفي الحياة الموت ، ولقد أدركنا من مشايخنا إذا قسا قلبه أمّ المستشفى أو قصد المقبرة ، فخوف نفسه المرض وذكرها الموت . والمؤمن لا يزال بخير ما زال بين الخوف والرجاء ، فإن لم يخف أو لم يرج فقد هوى . . . ولقد سمعنا أن منهم من كان يدني يده من المصباح ويقول : يا نفس! إن لم تصبري على هذا فكيف ويحك تصبرين على نار جهنم؟ وإن المؤمن ما ثارت في نفسه شهوة إلا أطفأها بأنهار الجنة ، أو أحرقها بنار جهنم فاستراح منها . . . .

وما الإنسان لولا العقل؟ وكيف يكون العقل إن لم يكن معه الإيمان؟ إنه لا يكون إذن إلا كما قالوا : أوله نطفة مذرة[١] ، وآخره جيفة قذرة ، وإن للسلطان لسكرة فمن أسكره سلطانه وعزته على الناس ، فليذكر هوانه على الله ، وأن الله أهلك أشد الملوك : النمرود ، بأضعف الخلق : البعوض .

فيا مَنْ أصله من التراب ، لا تنس أن نهايتك إلى التراب .

وكان الباشا يشعر والشيخ يتكلم ، كأنه كان محبوساً في صندوق ، ثم فتح عينيه فنشق[٢] الهواء الطلق[٣] أو كأنه كان في ظلمة فاحمة[٤] فطلع

(١) أي خبيثة وفاسدة .
(٢) شم .
(٣) أي صاف خال عن الغبار .
(٤) السوداء أي الشديدة .

الشيخ عليه شمساً نيرة فتضاءل[1] حتى جلس على ركبتيه ، ورأى نفسه دون هؤلاء كلهم ، لأنهم ألصق منه بالشيخ وأدنى إليه ، ولم يعد يزعجه مرأى الشيخ وهو ماد رجله . . بل كان يراه الغريق ويراها خشبة النجاة وكان يبصرها عالية كجناح النسر المحلق[2] ، ثم لم يعد يرى فيها شيئاً ، لقد استحال الشيخ في نظره إلى فكرة . . . . لم يعد يرى فيه إلا الحقيقة تمثلت إنساناً .

قال الراوي : فلما ذهب الباشا ، بعث إلى الشيخ بكيس فيه ألف دينار من الذهب العين . فلما جاءه به الرسول وألقاه بين يديه تبسم الشيخ رحمه الله ورده إليه ، وقال له : سلم على سيدك وقل له : إن من يمد رجله لا يمد يده . . . .[3]

❊ ❊ ❊

(١) صغُر وضعُف .
(٢) الذي يرتفع في طيرانه ويستدير كالحلقة .
(٣) قصص من التاريخ .

فهرس الموضوعات

المُترجَمُون في الكِتاب

ہماری مطبوعات

(عمدہ کاغذ - بہترین طباعت)

شمار	اسمائے کتب
۱	قصص النبیین اول
۲	قصص النبیین دوم
۳	قصص النبیین سوم
۴	قصص النبیین چہارم
۵	قصص النبیین پنجم
۶	القراءۃ الراشدہ اول
۷	القراءۃ الراشدہ دوم
۸	القراءۃ الراشدہ سوم
۹	معلم الانشاء اول
۱۰	معلم الانشاء دوم
۱۱	معلم الانشاء سوم
۱۲	مختارات اول
۱۳	مختارات دوم

شمار	اسمائے کتب
۱۴	منثورات
۱۵	الادب العربی
۱۶	شرح شذور الذہب
۱۷	الفقہ المیسر
۱۸	قطر الندی
۱۹	زعیمان لحرکۃ الاصلاح
۲۰	تہذیب الاخلاق
۲۱	شذیٰ العرف
۲۲	مسلم شریف اول
۲۳	مسلم شریف دوم
۲۴	علم التصریف
۲۵	تمرین النحو

ناشر

مجلس صحافت ونشریات

ٹیگور مارگ، ندوۃ العلماء، لکھنؤ

ہماری مطبوعات

(عمدہ کاغذ- بہترین طباعت)

شمار	اسمائے کتب
۱	تمرین الصرف
۲	رسالۃ التوحید
۳	حماسہ اول
۴	حماسہ دوم
۵	حیات عبدالباریؒ
۶	مختار الشعر العربی اول
۷	مختار الشعر العربی دوم
۸	العقیدۃ السنیہ
۹	تاریخ الادب العربی الاسلامی
۱۰	تاریخ الادب العربی الجاہلی
۱۱	مقدمہ عبدالحق دہلویؒ
۱۲	سیرت مولانا محمد علی مونگیریؒ
۱۳	تذکرہ فضل الرحمٰن گنج مرادآبادیؒ
۱۴	سیرت مولانا محمد یوسفؒ
۱۵	اسلام کی تعلیم
۱۶	تفہیم المنطق
۱۷	مبادی علم اصول الفقہ
۱۸	صدر یار جنگ مولانا حبیب الرحمٰن شروانیؒ
۱۹	ترانۂ ندوہ
۲۰	درجہ اول کا حساب
۲۱	شرح العقیدۃ الطحاویہ
۲۲	اصول الشاشی
۲۳	علم اصول الفقہ
۲۴	تاریخ ندوۃ العلماء اول
۲۵	تاریخ ندوۃ العلماء دوم

ملنے کے پتے

☆ مجلس تحقیقات ونشریات اسلام، ندوۃ العلماء، لکھنؤ
☆ مکتبہ ندویہ، ندوۃ العلماء، لکھنؤ
☆ مکتبہ الفرقان، نظیر آباد، لکھنؤ
☆ مکتبہ احسان، حسن منزل، مکارم نگر، لکھنؤ
☆ مکتبہ شباب، شباب مارکیٹ، ندوہ روڈ، لکھنؤ
☆ مکتبہ دارین، نزد شباب مارکیٹ، ندوہ روڈ، لکھنؤ

ناشر

مجلس صحافت ونشریات

ٹیگور مارگ، ندوۃ العلماء، لکھنؤ

فهرس الموضوعات

المترجمون في الكتاب